29

2023

الإنسان والتطور

سلسلة الاصدارات المكتبية العلمية

الجزء الثامن

في البدء كان الحلم

الأساس في الطب النفسي: الإفتراضات الاساسية

الفصل السابع

2023

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية

Arabpsynet

الأســـــاس فــــي الطــب النفســي: الإفتراضـات الاساسيــــة

الفصـــــل السابـــــــــــــــع

يحيــــى الرخـــــاوي

جـــــــــذور الطــــب الإيقاعحيــــوى التطـــورى 1

(النشــرات اليوميــة مــن 26 مـــاي 2018 إلــى 30 جـــوان 2018)

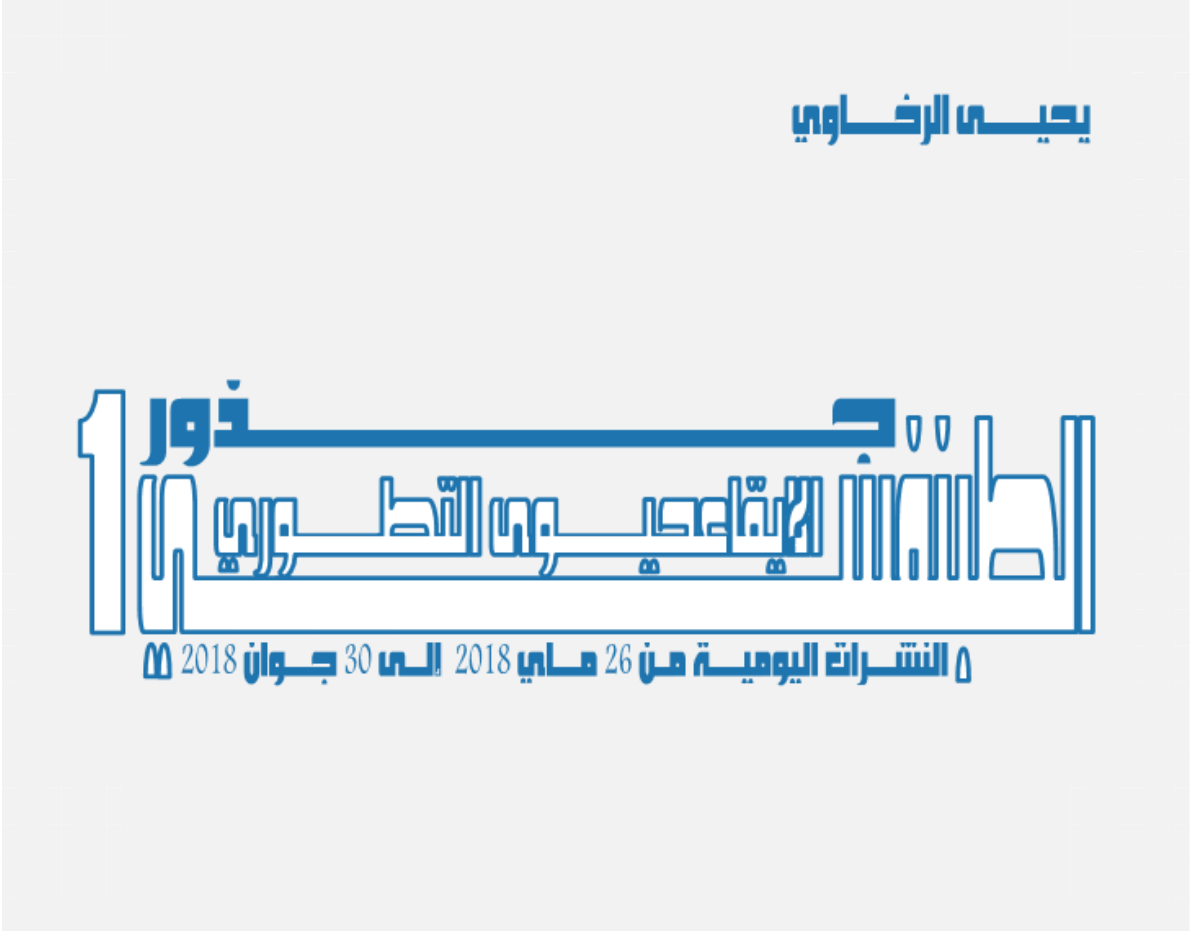

الفهـــــــرس

العدد: 3920 – عودة إلى: جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع) وقفة ضرورية	5
العدد: 3921 – عودة إلى: جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع) وقفة ضرورية (2)	9
العدد: 3922 – عودة إلى:جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى(من الإبداع الخاص) وقفة ضرورية (3)	22
العدد: 3928 –إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من نقدى للنص الإدبى) نبض المكان فى الوعى البشرى بين "لحس العتبه" و "قنديل أم هاشم"2	27
العدد: 3929 – إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من نقدى للنص الإدبى) نبض المكان فى الوعى البشرى بين "لحس العتبه" و "قنديل أم هاشم"1	31
العدد: 3934 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الخامس: "عقل بالى" رواية "الواقعة"	36

العدد: 3935 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل السادس: "الزيارة" رواية الواقعة 64

العدد: 3936 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل السابع: "الزيارة" رواية الواقعة 87

العدد: 3942 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل الثامن: "رق الحبيب" رواية "الواقعة" 114

العدد: 3943 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل التاسع: "الأرض السابعة" رواية "الواقعة" 131

العدد: 3944 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل العاشر "الحلقة" والخاتمة: رواية "الواقعة" 151

العدد: 3948 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل العاشر "الحلقة" والخاتمة: رواية "الواقعة" 168

العدد: 3949 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل الثانى "غريب الأناضولى" رواية "مدرسة العراة" 197

العدد: 3950 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل الثالث "نجوى شعبان" رواية "مدرسة العراة" 229

العدد: 3955 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص) الفصل الرابع "ملكة منّاع" رواية "مدرسة العراة" 254

السبـــت 26-05-2018

العدد: 3920 - عودة إلى: جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع) وقفة ضرورية

كيف تشرح ما يدور بداخل المريض من أفكار لا يقدر المريض نفسه أن يفسرها أو يعرف أن يقولها (رباب حمودة)

بعد تجربة الضغط على بناتى وأبنائى لاستثارة الحوار حول مصادر هذا الذى نمارسه تحت مسمى الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى، وبعد أن اكتشفت ثم تأكدت من أن هذه الإرهاصات لم تكن نابعة تماما من إنجازاتى العلمية وقراءتى المرجعية فحسب، وإنما أيضا وربما قبلا من إبداعاتى الخاصة الباكرة، غامرت بهذا الضغط – الكريه إلى نفسى – وطلبت من زملائى وزميلاتى المتدربين والمشاركين بان نختبر هذا الفرض، وقد كانت الاستجابة طيبة وذات دلالة كالتالى:

الذى حدث أن غمرتنى وفرة من التعقيبات والتساؤلات من قلة منهم لكنها كانت تعقيبات ذكية وصادقة ومهمة ووجدت فيها نموذجا لما كنت أرجو، ونظرا لأنى أعلم أنه لا أحد – تقريبا– ممن يعملون معى يتابع ما يسمى "حوار/بريد الجمعة" فقد وجدت أننى بحاجة أن أقتطف منه فى هذه الأيام الثلاث المخصصة لنشرة إبداعى الخاص كمصدر لتنظيرى العلمى، أقتطف من البريد ما يمكن أن يؤكد ما ذهبت إليه وهو:

"علاقة هذا الإبداع بممارسة الطبفنسى الإيقاعحيوى التطورى"

أعتذر لما فى ذلك من تكرار، لكننى أود أن أبلغ الرسالة لأبرئ ذمتى، ولعل

فيه ما يفيد فى ترشيد الأصغر والمتردد من عيالى، فيتعلم كيف يعلق وماذا يمكن أن يفيد من الحوار والرد مقتديا بزميلائه وزميلاته!

أ. رباب حموده

سؤال يطرح نفسه ولم أجد له إجابة ولكن استمتعت جداً بالقراءة.

كيف تشرح ما يدور بداخل المريض من أفكار لا يقدر المريض نفسه أن يفسرها أو يعرف أن يقولها.

د. يحيى:

يا رباب، يا رباب: هذا بالضبط ما أردته لكم ولى وأنا أحفزكم للكتابة والحوار، إن ما أدعو إليه فى تدريبى لكم (وممارستى طبعا) هو أن نتعلم كيف نتقمص المريض بكل ما هو ما أمكن ذلك، وهذا يصل إلى المريض بصدق غائر دون أن نتحدث عنه، وقد يصل إلينا فى نفس الوقت دون تسميته، وأعتقد أن هذا الصدق المتراكم هو المسئول عن إبداع مثل هذه الرؤية بشكل أو بآخر (وعن العلاج في النهاية).

أ. نادية حامد

طبيعة وعمق وهلامية وتنويعات ما يسمى اختيار قرار المرض أرى أنه يختلف من مريض لآخر والصعوبة الأكبر نجدها فى مرضانا اللى بياخدوا قرار المرض بلا عوده

د. يحيى:

أولاً: هذا صحيح ففكرة "قرار المريض" أو "اختيار المرض" برغم أنها حقيقة يمكن فحصها فى كل مريض برغم الفروق الفردية، لكن علينا أن نبذل الجهد الكافى وأن نصبر الصبر المناسب حتى لا تنقلب المسألة إلى "اتهام المريض باقتراف المرض" فالاختيار حقيقى وعميق ومتعدد المصادر وغامض، ولعل الإضافة التى تصلنا من تداعيات عبد السلام المشد تبين بعض ذلك.

هيا نقرأ سويا مرة أخرى هذه الفقرة أوائل الفصل الثانى

فكرة "قرار المريض" أو "اختيار المرض" برغم أنها حقيقة يمكن فحصها فى كل مريض برغم الفروق الفردية، لكن علينا أن نبذل الجهد الكافى وأن نصبر الصبر المناسب حتى لا تنقلب المسألة إلى "اتهام المريض باقتراف المرض

بعد أن دار رأسى، وأفرغ، وامتلأ، وانقلب عاليه سافله، عرفت أن وراء الأمور أمورا، وحمدت الله أن أحدا لا يعلم هذه الهواجس وإلا اتهمونى بالتمارض والادعاء

"...لو قالوا لى ألف مرة ومرة، قبل أن يحدث ما حدث، إن الإنسان يمكن أن يسهم فى اختلال توازنه لهزأت بهم واعتبرتهم قساة القلوب جهلة، أما بعد تلك الكلمة ذلك الصباح، وبعد أن دار رأسى، وأفرغ، وامتلأ، وانقلب عاليه سافله، عرفت أن وراء الأمور أمورا، وحمدت الله أن أحدا لا يعلم هذه الهواجس وإلا اتهمونى بالتمارض والادعاء، لو كنت أعلم أنها كانت ستكون بمثل هذا العنف والرعب والسخرية والغرابة لما سعيت إليها أبدا، ولكنى لم أسع إليها، بل هى التى سعت إلىّ.. ولكن يبدو أن "هي".. ليست إلا "أنا".

لعلك لاحظتِ يا نادية إلى أى مدى يمكن أن نتعلم كيف يكون قرار المرض اختيار غائر معقد متداخل وعلينا أن نحترمه ونبدأ منه كما هو دون اختزال.

****

الجزء الأول من الفصل الثانى:

"إمّا أنْ تعودَ... أو: نقتلكْ" (رواية الواقعة)

د. مريم سامح

المقتطف: "ولكنى لم أسع إليها، بل هى التى سعت إلىّ.. ولكن يبدو أن "هي".. ليست إلا "أنا"."

التعليق: حرّكت هذه العبارة داخلى التوقف و السكون و رؤية اللى جوه بدلاً من الهروب منه. للأسف أغلب الأحيان ارى نفسى اهرب منها وهى قابعة داخلى تتحرك و تتساءل، و اتلكك بالمشغولية. بل افكّر أيضاً أن هذا من أسباب توقفى عن التمعن و الرد على النشرات.

د. يحيى:

إن رحلات الدخول والخروج هكذا ليست سوى نتيجة للتلقى المحيط الأمين لهذه الخبرات، وهى من علامات حركية الداخل واستعداده للتشكل على مسار النمو، وهى لا تحتاج منّا لأكثر من الاعتراف بها دون تمّعنْ وإلا انقلبت عقلنه أو "مكلمة"، أعنى انقلبت إلى حديث عنها دون معايشتها، ثم إنها هى هى أيضا

كنت أعلم أنها كانت ستكون بمثل هذا العنف والرعب والسخرية والغرابة لما سعيت إليها أبدا، ولكنى لم أسع إليها، بل هى التى سعت إلىّ.. ولكن يبدو أن "هي".. ليست إلا "أنا".

إلى أى مدى يمكن أن نتعلم كيف يكون قرار المرض اختيار غائر معقد متداخل وعلينا أن نحترمه ونبدأ منه كما هو دون اختزال

إن رحلات الدخول والخروج هكذا ليست سوى نتيجة للتلقى المحيط الأمين لهذه الخبرات، وهى من علامات حركية الداخل واستعداده للتشكل على مسار النمو، وهى لا تحتاج منّا لأكثر من الاعتراف بها دون تَمَعّنْ وإلا انقلبت عقلنه أو "مكلمة"

تصبح عرضا مرضيا إذا تسارعت وتشتت واتحرفت ونكصت، إن ما شعرت به هو من خطوات تنمية مهارتك المهنية الفنية.

وبعد

أتوقف هنا بعد إذنكم لأن الابنة الدكتورة "مريم سامح" احتلت بقية البريد تقريبا (16 تعليقا) وقد أفرد لها نشرة باكر وربما بعد باكر للشكر، ربما حفزا لزملائها وزميلاتها أن يقتدوا بها إن وجدوا أن ثمة فائدة.

الأحـــد 2018-05-27

العدد: 3921 - عودة إلى: جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع)

وقفة ضرورية (2)

اتعجب كثيرا مما رأيته فى بعض المرضي، و هو الوعى الذهانى psychotic awareness، و بحثت لكى افهم اكثر عنه لكن ربما بحثى لم يكن وافياً، فهلا ترشدنى لأكتشف اكثر تلك المنطقة. (د. مريم سامح)

أواصل اليوم نشر مقتطفات من حوار الجمعة حول ما نشر من فصول رواية الواقعة (ثلاثة فصول) لتوضيح كيف أعانتنى مهنتى على محاولة سبرغور النفس الإنسانية، ثم كيف يمكن النقد أو الحوار حول النص أن يفيد الممارس (الطبيب النفسى والمعالج النفسى) فى مهنته بما ينير بصيرته أكثر من الحفظ والتسميع.

وسوف أخصص هذه النشرة لابنتى صاحبة الفضل "د. مريم سامح" كمثال لمشارِكةْ واحدة عبرت بصدق عن ما حرّك فيها النص، كما كادت تحيط بما أردت توصيله والحوار حوله، وقد انهيت نشرة أمس بتعقيب لها الذى لن أعيده اليوم، بارك الله فيها.

يدور كل الحوار أساساً حول الفصل الثانى من الرواية، وهو الذى بيدأ مع يصف رحلة عبد السلام المشد للعلاج بدءًا بالممارس العام علما بأن الخط العام للرواية هو رؤية المريض لأطبائه من مختلف التخصصات، ووصف المريض للأطباء والمستشارين الواحد تلو الآخر، فكما كما نشخص مرضانا نحن الأطباء فهم يشخصوننا.

نبدأ اليوم فى هذا الحوار بزيارة عبد السلام لعيادة ممارس عام يعلق لافته "أمراض نساء وأطفال"

****

الجزء الأول من الفصل الثانى:

"إمّا أنْ تعودَ... أو: نقتلكْ" (رواية الواقعة)

د. مريم سامح

المقتطف: "فوجدتنى أنظر إلى اللافتة المعلقة "أخصائى أمراض نساء وولادة وأطفال"، أشعر بسعادة غريبة لأنى متأكد– بشكل ما – أن مابى لا يتعدى هذه التخصصات الثلاثة، إذن: فأنا الشخص المناسب وهذا هو المكان المناسب،

التعليق: "اضحكتنى، ومين أكّد له؟! هذا الواقع: أنه ست، وأنه طفل بيلعب، وأنها مشروع ولادة جديدة؟

د. يحيى:

هذا التأكيد على هذه الحركية النشطة يذكرنا بما نكرره أن "واقع الداخل"، خاصة فى المرحلة النشطة للجنون، هو "واقع آخر"، لا هو خيال شاطح، ولا هو "لا شعور" غامض، بل هو واقع رائع بكل معنى كلمة رائع، ومريع ومرعب أيضا، وهذا ما يستقبله المريض بشكل مؤكد قبل أن يصبح ضلالات أو هلاوس.

د. مريم سامح

المقتطف: "ما زالت نظرة الممرض تتابعنى، تلك النظرة التى نظرها إلىّ بشك بعد أن أخذ حراراتى وهو يعلن نتيجة مقياس الحرارة، قائلا: "ستة وثمانية" (كدت أرد عليه: أربعتاشر")

التعليق: الحوار اللى داير جوه دماغه اشعر به، و أحيانا كان يدور داخلى شبهه، و استمتع به ادبياً، وهو بيحرك جوايا شعور بتواضع "غريب!" تجاه المرضي، وتخيل الحوار الذى قد يكون يدور فى داخلهم.

د. يحيى:

هذا الذى تشعرين به يا مريم: هو من أهم علامات صدق خطوات نموك عبر المهنة والتلقى المبدع، شكرا.

قبل سنوات طويلة في بداية رحلتى كنت قد أخطأت وأنا استعمل مثل هذا المصطلح ليدل على الحدس (الصادق نسبيا) الذى يصاحب بداية الذهان وذلك حين حسبت أن مصطلح سيلفانو اريتى "البصيرة الذهانية" Psychotic Insight إنما يشير إلى مثل هذه الخبرة

د. مريم سامح

المقتطف: "يبدو أنه (1) لم يسمعنى، كان مجرد تلطف عابر يسمح له بعد ذلك أن يعرينى ويضع آلاته على جسدى وكأنه يبحث عن شيء يمكن العثور عليه، فى حين أنه مشغول – على أحسن الفروض – بعدد الكشوف المتبقية فى الصالة، أو بميعاد زوجته التى تنتظره أمام الكوافير، كنت قبل ذلك أخشى التمادى فى مثل هذا التصور وأتهم نفسى بسوء الظن، أما اليوم فأنا أكاد أقرأ أفكاره.

التعليق: "اتعجب كثيرا مما رأيته فى بعض المرضي، و هو الوعى الذهانى psychotic awareness، و بحثت لكى افهم اكثر عنه لكن ربما بحثى لم يكن وافياً، فهلا ترشدنى لأكتشف اكثر تلك المنطقة.

بعد مراجعة ومتابعة، عرفت خطئى وهو أن سيلفانو أريتى كان يشير إلى بصيرة زائفة تأتى الذهانى الفصامى بالذات (عادة فجأة) في أول مراحل مرضه بعد مرحلة "الربكة المبدئية"

د. يحيى:

قبل سنوات طويلة في بداية رحلتى كنت قد أخطأتُ وأنا استعمل مثل هذا المصطلح ليدل على الحدس (الصادق نسبيا) الذى يصاحب بداية الذهان وذلك حين حسبت أن مصطلح سيلفانو اريتى "البصيرة الذهانية" Psychotic Insight إنما يشير إلى مثل هذه الخبرة، لكن بعد مراجعة ومتابعة، عرفت خطئى وهو أن سيلفانو أريتى كان يشير إلى بصيرة زائفة تأتى الذهانى الفصامى بالذات (عادة فجأة) في أول مراحل مرضه بعد مرحلة "الربكة المبدئية"، وهذه البصيرة تفسر له كل ما أصابه بمنظومة ضلالية محكمة، فتزول الربكة ويحتد الذهان (أو الفصام) ثم يرسخ ويستتب.

هكذا صحَّحْتُ نفسى حين عرفت أن هذه البصيرة الزائفة ليست سوى منظومة ضلاليه تحل محل الربكة المبدئية، فما هى إلا علامة على مزيد من تطور المرض تفسِّر أعراض الحيرة والغموض والتغير بضلال ثابت منقضّ، وأن هذه البصيرة المرضية نفسها ما هى إلا خدعة وجزء لا يتجزء من مسيرة الذهان نحو الاستقرار الأخطر، فصححت الخطأ الذى وقعت فيه وبدأت استعمل تعبير Awareness of the psychotic وهذا قريب من استعمالك هنا وهو أقرب إلى

ما يعيشه الذهانى قبيل أو قبل البداية فى تنشيط الحدس الصادق، وكشف الداخل، برغم أن العملية ذهانية، علما بأنها هى هى مشتركة بين الذهان والإبداع بشكل ما،

هذا وأعتقد أن استعمال كلمة "بصيرة" insight برغم وصفها بـ"الذهانية" لم يكن موفقا من "أريتى" مع كل احترامى وتقديرى.

د. مريم سامح

المقتطف: "لو قالوا لى ألف مرة ومرة قبل أن يحدث ما حدث إن الإنسان يمكن أن يسهم فى اختلال توازنه لهزأت بهم واعتبرتهم قساة القلوب جهلة، أما بعد تلك الكلمة ذلك الصباح، وبعد أن دار رأسى، وأفرغ، وامتلأ، وانقلب عاليه سافله، عرفت أن وراء الأمور أمورا، وحمدت الله أن أحدا لا يعلم هذه الهواجس وإلا اتهمونى بالتمارض والادعاء، لو كنت أعلم أنها كانت ستكون بمثل هذا العنف والرعب والسخرية والغرابة لما سعيت إليها أبدا، ولكنى لم أسع إليها، بل هى التى سعت إلىّ.. ولكن يبدو أن "هي".. ليست إلا أنا".

التعليق: حرّكت داخلى التوقف و السكون و رؤية اللى جوه بدلاً من الهروب منه. للأسف أغلب الأحيان ارى نفسى اهرب منها وهى قابعة داخلى تتحرك و تتساءل، و اتلكك بالمشغولية. بل افكّر أيضاً أن هذا من أسباب توقفى عن التمعن و الرد على النشرات.

د. يحيى:

رحلات الدخول والخروج وعمليات التداخل والتكثيف هكذا هى نتيجة للتلقى المحيط الأمين لهذه الخبرات، وهى من علامات حركية الداخل واستعداده للتشكل على مسار النمو، وهى لا تحتاج منّا لأكثر من الاعتراف بها دون تمّعنْ وإلا انقلبت عقلنه أو "مكلمة"، أعنى انقلبت إلى حديث عنها بدلا من معايشتها، ثم إنها هي هي أيضا تصبح عرضا مرضيا إذا تسارعت وتشتت وانحرفت ونكصت، كما حدث بعد ذلك مع عبد السلام.

صحّحْتُ نفسى حين عرفت أن هذه البصيرة الزائفة ليست سوى منظومة ضلاليه تحل محل الربكة المبدئية، فما هى إلا علامة على مزيد من تطور المرض

د. مريم سامح

المقتطف: "يشرق وجه أمى بالفرحة النسائية الخاصة التى تُرَى على وجوه نسوة ذلك الزمان حين تصل قفشاتهم إلى تلك المنطقة الخاصة التى "تدغدغ" وجدانهم وتهيئهم لأعمال الليل الممتعه فى تسليم وانتصار معا".

التعليق: المقطع ده من أوله جميل.

د. يحيى:

لعله واقعى ودقيق وصادق، وليس "جميلا" بالذات،

أو لعلك التقطت الدقة والصدق والعمق باعتبارهما جمالا من نوع خاص.

د. مريم سامح

المقتطف: "كل الناس تعرف أشياء أخرى غير الحقيقة التى أعيشها هذه الأيام، كنت مثلهم، وكنت أحس أن حبهم هوالحب، وأن أدبهم هو الأدب، الآن أعيد النظر وأنا فى رعب الوحدة ودهشة الغريب، تأكدت أن شعورى نحو آمال ليس شاذا ولا بشعا، إنه مجرد تفجير شىء موجود منذ عهد سحيق، قبل ذلك كنت أتجنبها وأعاملها بشىء من الجفاء، لم أكن أميز ذلك الشىء المختبئ بين أحشائى نحوها، وإن كنت دائما أخشى نظراتها الثاقبة التى تتخطى حدودك الظاهرة لتستقر بين ضلوعك مباشرة، قبل ذلك كنت أحتمى من هذا الفيض المقتحم بمزيج من الحياء والتبلد والجفاء"

التعليق: وصلنى هروبى من حركة مشاعرى تجاه من حولى بالجفاء أو باللياقة الزائدة.

د. يحيى:

لا تبالغى يا مريم فى وصف ما وصلك ويصلك حتى لا تُسْتَدْرجين إلى درجة من العقلنة تصبح وصية على الرسائل الكلية التى قد تصلك دون حاجة إلى أن تعرفيها بهذا التحديد،

أن هذه البصيرة المرضية نفسها ما هى إلا خدعة وجزء لا يتجزء من مسيرة الذهان نحو الاستقرار الأخطر، فصححت الخطأ الذى وقعت فيه وبدأت استعمل تعبير Awareness of the psychotic

أنا أرجّح أن ما وصلك هكذا بهذا الشكل المكثف الغامض هو ما يعيق زملاءك ويعيقك أحيانا عن التعليق.

د. مريم سامح

المقتطف: "لم أتمكن من قراءة الأخبار العادية التى كانت تجذبنى قبلا (البخت والإعلانات والوفيات وأخبار الإصلاح الوظيفي) ينجذب نظرى إلى المواضيع التى كنت أضعها تحت بند الكلام الفارغ والضحك على الدقون: "انتحار الفكر الجديد"، "المد الثورى فى العالم الثالث"، "مخاطر المجاعة وانقراض الإنسان"، كانت هذه العناوين تصيبنى بالإعياء، أما الآن..؟!! "

التعليق: يا دكتور أنا هقلق على نفسى علشان أنا شبه عبد السلام فى حاجات كتير، اكتبها و أنا مبتسمة.

أعتقد أن استعمال كلمة "بصيرة" insight برغم وصفها بـ"الذهانية" لم يكن موفقا من "أريتى" مع كل احترامى وتقديرى

د. يحيى:

برجاء إعادة قراءة ردى على التعليق السابق

ثم إن شعورك بوجه الشبه هكذا هو دليل على قدرتك الصادقة على التقمص، وهو راس مال ممارستنا المهنية الفنية العملية كما كررت مرارا.

****

الجزء الثانى من الفصل الثانى:

"إمّا أنْ تعودَ... أو: نقتلكْ" (رواية الواقعة)

د. مريم سامح

المقتطف: "أطير، يملؤنى الخوف، أتحسس جناحَىّ فلا أجدهما، أبدأ فى السقوط، الرعب من التهشيم يملؤنى، تبتعد الأرض عنى، أتمنى السقوط حتى الموت بدلا من هذا الرعب بلا نهاية، أصرخ أصرخ أصرخ، تهزنى زوجتى، أصحو، أنظر فى عينيها".

التعليق: وصف الحلم و مشاعر عبد السلام اثناءه جعلنى أرى بصورة اعمق و اقرب ما قرأته فى كتاب السيكوباثولوجى عن الاحلام اثناء النوبة الذهانية الحادة، و بصراحة شعرت بعدة مشاعر ربما اعمقها الخوف، فهى خبرة صعبة و مملوءة بالوحدة و التهديد، و لا اخفى عليك شعورى بالشفقة رغم علمى بكرهك لها، و شعرت بالخجل أنى أحيانا اتعامل مع المرضى بسطحية لا ترقى إلى مستوى خوفهم، أو ربما لا تراه! صعب يا دكتور الكلام ده من غير اختبار له!

د. يحيى:

بصراحة يا مريم يبدو أن ما كان يهمنى أن يصل من هذا المقطع هو سرقة القارئ لتصديق أن وصف الحالم للحلم وهو أثناء الحلم يجعلنا نصدق أن "للحلم وعى مختلف"، وأن ذلك، ومثل ذلك، يحدث في وعى خاص فعلا: لا هو وعى اليقظة ولا هو وعى النوم، وأنه عند الذهانيين والأطفال وإرهاصات الإبداع يحدث بحيث يجرى تداخل بين مستوى وعى الحلم ووعى اليقظة،

أما الحلم المحكى بعد اليقظة فهو أبعد ما يكون عن هذه المنطقة، وقد بينت ذلك بالتفصيل فى أطروحتى عن الأحلام وفى نقدى للأحلام (كتاب: عن طبيعة الحلم والإبداع "أحلام فترة النقاهة" نجيب محفوظ) دار الشروق 2006

ولا أذكر أننى قلت ذلك بأى تفصيل فى كتابى "دراسة فى علم السيكوباثولوجى"، (شكرا إذا أشرتِ لى على الصفحات).

د. مريم سامح

المقتطف: "أقول لهم إنى نسيت اسمى وإنى أتعرف على الألوان لأول مرة فى حياتى".

التعليق: اشاركه بفرحتى باعادتى التعرّف على اشياء كثيرة و اكتشافها بطعم مختلف الآونة الأخيرة. وقد وجدت أن فى هذا طاقة رهيبة تدفعني! إذ كل يوم يحمل اكتشافا جديداً!

د. يحيى:

إن الاحتفاظ بالقدرة على الدهشة هى من أهم علامات حيوية الحركة النمائية،

رحلات الدخول والخروج وعمليات التداخل والتكثيف هكذا هى نتيجة للتلقى المحيط الأمين لهذه الخبرات، وهى من علامات حركية الداخل واستعداده للتشكل على مسار النمو

وقد تناولت ذلك باكرا (1980) (2) فى مقال لى بالأهرام بعنوان "فضيلة الدهشة" يمكنك الرجوع إليه.

كما تناولته مرة أخرى بشكل أبسط وأوضح فى أرجوزتى للأطفال عن "الحق فى الدهشة" على لسان طفل يخاطب أباه قائلا:

-1-

بتشوف الحاجة ازاى دايما زى ما هيّهْ؟
وأنا كل مرة باشوفها يعنى مش هيه
هوّا انت يا خويا عنيك ديّه
مش همّا تمام زى عنّيـه؟

-2-

أنا بافرح باللى باشوفه جديد
بالشكل دهُهْ: دنياىَ بتزيد
وانت عمال بتعيد وتعيد
وانا كل مرة بلاقى نفسى ف دنيا ثانيه
يعنى الساعة بتبقى عندى مليون ثانيه

-3-

طب جرّب مرة تتأمل حاجة شايفها
من غير ما تقول ما انا عارفها
حاتشوف زيى ويمكن أكتر
حاتلاقى الألوان تتغير
وحاجات تكبر وحاجات تصغر
وحاتعرف من غير ما تفكر
ربنا موجود ... الله أكبر

كنت مثلهم، وكنت أحس أن حبهم هوالحب، وأن أدبهم هو الأدب، الآن أعيد النظر وأنا فى رهبة الوحدة ودهشة الغريب

د. مريم سامح

المقتطف: "كل شيء تغير، كل شيء تغير"، حقيقة لم يعد فيها جدال حتى لم تعد ترعبنى"،

التعليق: اطمئنانه بعد تسليمه أرانى أن الخوف فى الذهان له وجه آخر.. مش كله خوف.

د. يحيى:

عندك حق

البدء بالدهشة ثم الفرحة بالدهشة ثم الخوف من المجهول الذى قد تتكشف عنه الدهشة ثم الخوف من الآتى من التغيير إلى غيب غائب فى غاية المسار...الخ" كل هذا وغيره، هو بعض ما يقوم النص بإثارته،

فهل عندى حق يا مريم أن أعتقد أن مثل هذا النص الأدبى يسهل لنا مهمة التدريب حتى نتعلم كيف نقرأ داخل المريض باحترام وصبر وتعلّم؟

****

الجزء الثانى من الفصل الثانى: "إمّا أنْ تعودَ... أو: نقتلكْ" (رواية الواقعة)

د. مريم سامح

المقتطف: "ربما اختلف نوع الحب والكره أو هدفهما أو معناهما، أنا الآن أستطيع أن أحب مثلا ولكنى لا أجد من أحبه، وفى أحوال أخرى أخاف أن أحب بهذه الدوافع الجديدة لأنى أحس أنها من نوع آخر، ربما أكثر صراحة وربما أكثر وقاحة"،

التعليق: الله!

د. يحيى:

الله عليكِ يا ابنتى

(ثم إضافة إلى ما جاء فى بريد الجمعة)

يعتقد كثير من الناس يا مريم أن المريض النفسى متبلد المشاعر على طول

أن وصف الحالم للحلم وهو أثناء الحلم يجعلنا نصدق أن "للحلم وعى مختلف"، وأن ذلك، ومثل ذلك، يحدث في وعى خاص فعلا: لا هو وعى اليقظة ولا هو وعى النوم

الخط أو على الناحية الأخرى مندفع فى الاستجابة إلى انفعالاته البدائية بعنف وقسوة دائما، ولعلك لاحظت هنا العكس تقريبا، فعبد السلام يقول "أنا الآن أستطيع أن أحب" وكأنه حين كان سويًّا لم يكن يحب، وحين يكتشف المريض ضحالة ما كان يمارس من عواطف قبل الخبرة، يتعرف على وجدانه من جديد فيشعر أنها مشاعر من نوع آخر، فهو يلتقط الفرق بين القدرة على الحب، وزعم الحب أو الكلام عنه، وأيضا هو يبدأ فى ممارسة بحث جديد لموضوع الحب "لا أجد من أحبه"، وكذلك يشعر بالخوف من هذه المشاعر التى لم يَعتَدْها "أكثر صراحة أو أكثر وقاحة" (هل لاحظتِ دقة الوصف).

د. مريم سامح

المقتطف: "أن مخى مازال قادرا كما كان، على شرط ألا أضبطه متلبسا بالعمل،"

التعليق: المذاكرة من غير تركيز.

د. يحيى:

هذه الفكرة (أو النظرية أو الأطروحة أو الفرض): "المذاكرة من غير تركيز" التى استشهدتِ بها يا مريم تعقيبا على هذه الجملة تحتاج بعض الشرح منى:

هذه الفكرة أصبحت تمثل لى ثروة هائلة فى الممارسة، وكثير من أبنائى وبناتى الطلبة الذين يشكون من "عدم التركيز" يصدقونها ويمارسون آلية ما اسميه "التحصيل بدون تركيز"، لكن الأهل عادة يتعجبون منها ويرفضونها بشدة، وحين أواصل التأكيد على أن المخ البشرى يركز بالرغم من وصاية صاحبه، يزداد رفضهم فأتمادى شارحا أن الذى يعطل التركيز هو التركيز على التركيز، فلا يفهمون أكثر ، فأسأل أحد الوالدين هل أنت تمشى على قدم واحدة، أم على قدمين، فيقول: "قدمين طبعا"، فأقول له مازحا "بل إنك تمشى على قدم واحدة ثم الأخرى بالتبادل " وهكذا، ولو أنك تمشى على قدمين لرحت تقفز (مثل الغراب أحيانا) وأستشهد برباعية صلاح جاهين وأن الذى يراقص الدنيا ينساب معها دون تركيز وأنه لو ركز على مشيته هذه لارتبك وتعثر

أن مخى مازال قادرا كما كان، على شرط ألا أضبطه متلبسا بالعمل،"

غمّض عينيك وارقص بخفة ودلعْ
الدنيا هىَّ الشابّة وأنت الجدع
تشوف رشاقة خطوتك تعبدك
لكن أنت لو بصيت لرجليك .. تقع
****

الجزء الثالث من الفصل الثانى:

"إمّا أنْ تعودَ... أو: نقتلكْ" (رواية الواقعة)

د. مريم سامح

المقتطف: "أين ذهبت هذه الأشياء جميعا من عقلى طوال عشرين سنة، ماذا حدث لى وأين كنت طوال هذه المدة؟ كيف نسيت تماما كل شئ؟ كيف غفوت حتى نمت عشرين سنة؟"

التعليق: عودته لحياته و نفسه جميلة.

د. يحيى:

لا أظن أن هذه عودة إلى حياته أو نفسه، بل لعلها كشف عن مستوى آخر من الوعى هو المستوى الذى يتعرى فيطلق نقده، ورفضه عادة، على المستوى السائد فى الحياة العادية التى أصبح يراها بمثابة التنويم الجماعى، وهذا ما ينكشف بأثر رجعى بالإبداع أو بالمرض أو بالصدمة، وللأسف فإن هذا هو هو ما يمكن أن يُختَزَل بلغة الأعراض إلى: "ظاهرة (وأحيانا) ضلال: تغير الشعور بالواقع!!Derealization .

وقياسا دعينا نتذكر قول على بن أبى طالب "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" ثم نقيس عليه ونقول: "أغلب الناس فى تنويم جماعىّ، فإذا جنّ أحدهم انتبه، لعلنا ننتبه! وربنا يستر"!

د. مريم سامح

المقتطف: "كيف تنقلب الأفعال إلى أسماء؟ المصيبة أن ما حدث لى هو نفس ما حدث لسعيد عبد الراضى (شاعر اتحاد الطلبة) وعبد المهيمن المنقبادى

أن المخ البشرى يركز بالرغم من وصاية صاحبه، يزداد رفضهم فأتمادى شارحا أن الذى يعطل التركيز

(قائد المظاهرات) وسعاد زهران (راكبة الدراجة محطمة التقاليد) وسميحة عبد الوارث (الحالمة بالجنة على الأرض) وسناء، وفتحى، وعبد الودود، وسميه رمضان (الشابة الحاجة ذات الإيشارب والحماس لإرجاع الكون إلى أصله)، كلهم استبدلوا الأسماء الخمسة بالأفعال الخمسة، ولم يبق منهم إلا "التهامى محمود" الذى يبدو أنه احتفظ ببعض الأفعال حية فمازلت أسمع بعض تعليقاته بالصدفة على برامج الموسيقى التى لا أفهمها.

"الله يخرب بيوتكم".

.....

.....

من ذا الذى يحاول أن يوقظ فىّ الأفعال الخمسة؟ كيف أهرب ثانية إلي"الأسماء" الساكنة المستقرة؟ كنت أعيش، وهم جميعا مازالوا يعيشون، فلمصلحة من أرجع وحدى وأفيق من خدر الأسماء لأواجه أفعالا تتحدانى وأنا لا أفعل شيئا؟" وماذا سيكون مصيرى حين أعجز عن الاستمرار فى لعب هذا الدور المزدوج؟

التعليق: نعمل إيه بقي؟؟؟ الجرعة كبيرة يا دكتور، و انا بقرا حاسة إنى عايزة اقولك كفاية تقليب. صحيح مش ممكن حضرتك تتناول أجزاء من القصة تانى بجرعة اخف شوية، أنا مش عارفة اعبّر بس أظن حايوصلك.

د. يحيى:

لعل هذا هو ما جعلنى أعاود نشر الرواية بهذا التجزئ الذى قد يشوهها، كل فصل ينشر على ثلاثة أيام، وكل ثلاثة فصول تجمع بعد ذلك لمن يريد أن يجمعها، ومع ذلك فها أنت تشكين من "جرعة التقليب"،

بصراحة أنا أخشى من أى تدخل لاحق فى الأصل الذى كتبتُه من حوالى نصف قرن، وهأنذا أعيد اكتشافه معكم.

دعينا نتذكر قول على بن أبى طالب "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" ثم نقيس عليه ونقول: "أغلب الناس فى تنويم جماعىّ، فإذا جنّ أحدهم انتبه، لعلنا ننتبه! وربنا يستر"!

كأنها خافت هى الأخرى من أن يتحرك شىء فى داخلها

فضل مرضانا علينا حين يتحرك فينا ما عجزوا هم أن يوجهوه إلى غايته الإيجابية فنصبح مديونين لهم، وعلينا أن نواكبهم... إلى برّ السلامة وليس فقط إلى حظيرة العادية، ما أمكن ذلك

د. مريم سامح

المقتطف: "وكأنها خافت هى الأخرى من أن يتحرك شىء فى داخلها،"

التعليق: وصلنى منها شيء كبير، ربما يتعلق بالجانب الإيجابى للمرض النفسى و تأثيره على من حول المريض، كما نقول نحو ولاف افضل.

د. يحيى:

ربما يكون هذا فضل مرضانا علينا حين يتحرك فينا ما عجزوا هم أن يوجهوه إلى غايته الإيجابية فنصبح مديونين لهم، وعلينا أن نواكبهم... إلى برّ السلامة وليس فقط إلى حظيرة العادية، ما أمكن ذلك.

وبعد

هذا ما جاءت طزاجة وأمانة ابنة واحدة وهى تحاول صابرة مغامرة،

فلعل فيه دعوة لمن يتردد فى الدخول إلى الحوار حتى نتعلم جميعا معا.

الاثنيـــن 28-05-2018

العدد: 3922 - عودة إلى: جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص)

وقفة ضرورية (3)

نحن أحوج ما نكون إلى التعلم من مرضانا، واستلهام ثقافتنا ، وإطلاق إبداعنا ، والتكلم بلغتها، ثم الاستزادة بما يناسبنا من انجازات الآخرين الموضوعية بكل لسان ومن كل معمل ومصدر

اعتذار واقتراح

أتقدم بالاعتذار الشديد للأصدقاء المتابعين لهذه النشرة بعد أن قررت أن أتوقف مؤقتا عن مواصلة هذه التجربة التى استمرت لهذه الأسابيع، وآمل فى نفس الوقت أن تكون قد أدت الغرض منها، ولو مرحلياً، من حيث أنها وبرغم محدودية ما قدمت (ثلاث فصول) من عمل واحد، من رواية "الواقعة" إلا أن الهدف، وإن لم يتضح ابتداء قد تحقق ليظهر لنا منابع أخرى لهذا الفكر الإيقاعحيوى التطورى تتجاوز النقل من الكتب، والنسخ من ثقافات أخرى والسجن داخل كتيبات ودلائل التشخيص المستوردة أغلبها، تحت وصاية شركات الأدوية ورأسمالها المشبوه.

نحن أحوج ما نكون إلى التعلم من مرضانا، واستلهام ثقافتنا ، وإطلاق إبداعنا ، والتكلم بلغتها، ثم الاستزادة بما يناسبنا من انجازات الآخرين الموضوعية بكل لسان ومن كل معمل ومصدر.

اليوم سوف أعرض بديلا مؤقتا عن مواصلة نشر فصول هذه الرواية (بل الثلاثية، بل أعمالى الإبداعية الأخرى) لنفس الغرض، وليكن الإبداع قائما بذاته، والفروض والرؤى والأطروحات النفسية المهنية الفنية معروضة بشكل مستقل، ثم يتم الربط بينهما أو لا يتم حسب مقتضى الحال.

وإليكم ما خطر لى فى انتظار رأيكم.

أولاً: سوف أنشر مقتطفات محددة وقصيرة من النص المطروح مناقشته، وهى المقتطفات التى تتعلق بكشف أغوار النفس البشرية خاصة ما يسمى النفسمراضية (مع التذكرة بما يقابلها فى حالة السواء) وكذلك ما يتعلق بالعلاقات البشرية وهو ما أسميته فى عمل مستقل باسم: "فقه العلاقات البشرية".

ثانياً: سوف أحاول أركز على الربط بين هذا المقتطف وبين التطبيق العملى فى ممارسة الطبنفسى والعلاج بما يفيد القارىء (والمتدرب الأصغر خاصة وكذلك المريض)

ثالثاً: سوف أشير برابط كل مرة إلى موضع المقتطف وأيضا إلى موقع الرواية كاملة لمن أراد أن يقرأ الفصل كله أو الرواية كلها .

رابعاً : سوف أحاول أن أنشر التعليقات التى تصلنى أولاً بأول سواء نشرت هذه التعليقات والردود فى بريد الجمعة أم في نفس الأيام المخصصة للربط بين الإبداع والتطبيق العملى.

وبعد

أكتفى اليوم بنشر كيف نشأت فكره رواية "الواقعة" والتى تطورت إلى ثلاثية المشى على الصراط وهى التى بدأنا بها ثم أقدم موجز للفصول الثلاثة الأولى التى نشرت مجزأة ثم مجتمعة، حتى إذا وصلنى ما يشجع على مواصلة عرض باقى الفصول من هذا المنطلق الجديد تكن فى الاستجابة:

أولاً: موجز الأجزاء الثلاثة: "الواقعة"، "مدرسة العراة"، "ملحمة الرحيل والعوْد"

(الجزء الأول: الواقعة)

هى رواية يمكن أن تدرج تحت مسمى "تيار الوعى" وقد ظهرت ملامحها فى مجلة الصحة التى كانت تصدرها وزارة الصحة فى سلسلة بعنوان "مذكرات مريض نفسى" ثم جمعتها وأعدت صياغتها

هى حكاية مواطن مصرى طيب من أواسط الوسط، أصيب فجأة بإفاقة مرعبة دون أى تمهيد، فكانت بداية إعادة النظر فى ذاته ومن حوله والدنيا والناس

وهى حكاية مواطن مصرى طيب من أواسط الوسط، أصيب فجأة بإفاقة مرعبة دوة أى تمهيد، فكانت بداية إعادة النظر فى ذاته ومن حوله والدنيا والناس، ثم احتفظ بخبرته خشية سوء تأويل من حوله، وراح يرصد ما حدث داخل نفسه دون أن يبوح به كما هو، ثم راح يتردد على الأطباء والمعالجين والتحليليين والعارفيين ويصفهم وينقدهم ثم لا يكمل، واضطربت حياته في عمله ثم حياته الخاصة مع زوجته أكثر، وتطورت علاقته مع جاره المنطوى القارىء الساخط، إلى علاقة النطاح والترصد أكثر من علاقة الجيرة والمودة، ثم ماتت أمه فحركت عنده ذكريات نحو أصله وعلاقته بأبيه، وأخيرا فإنه أفاق تماما بعد مشاركة بالصدفة لحركة الطلبة فى السبعينيات فى ميدان التحرير، إلا أنه لم يحتمل أثار صدمة هزيمة يونيو لتنتهى الرواية وهو يلقى بنفسه إلى أحضان النيل.

ثم ماتت أمه فحركت عنده ذكريات نحو أصله وعلاقته بأبيه، وأخيرا فإنه أفاق تماما بعد مشاركة بالصدفة لحركة الطلبة فى السبعينيات فى ميدان التحرير، إلا أنه لم يحتمل أثار صدمة هزيمة يونيو لتنتهى الرواية وهو يلقى بنفسه إلى أحضان النيل

أما الجزء الثانى (مدرسة العراة)

فهو يحكى خبرة أحد عشر مريضا كانوا يترددون معا على طبيب عارف يمارس العلاج الجمعى وكان من بينهم عبد السلام المشد، بطل الواقعة، ثم زوجته، وجاءه غريب، وذلك بعد أن أُنْقِذَ فى آخر لحظة، وانتشل من حضن النيل ويحكى كل من هذه الشخصيات خبرته فى هذا العلاج الجمعى وما يحيط به من تفاعلات وانفعالات واشتباكات وأحداث، وأيضا يحكى كل منهم رأيه فى هذا النوع من العلاج والمعالج ناقدا مشخِّصاً رافضا متغيرا بشكل أو بآخر.

أما الجزء الثالث (ملحمة الرحيل والعود)

فقد كتبته بعد ربع قرن من كتابة الجزأين الأول والثانى وفصوله معنونه "بالأمكنة" لا بالأشخاص كما فى الجزء الثانى، وهو يحكى بعض ما آل إليه حال بعض شخوص الجزء الثانى وأيضا بعض ملامح الجيل التالى لهؤلاء من أبناء أو بنات بعض شخوص الجزء الثانى وهو يكشف عن رحلة الوجود البشرى فى مسيرة الشخص العادى فى علاقته بنفسه والمحيط فالكون إلى المطلق.

ثانياً : موجز الفصول الثلاثة التى نشرت:

إذا به يعيد النظر فى "مَنْ" هو و"لماذا هو" و"إلى أين"، يعيد النظر فجأة وبحدة وتشتت، هكذا ينطلق داخله فى التجوال داخل داخله، وحوله، وخارجه بطريقة، لم يَعْتَدها

الفصل الأول : في البدء كان الكلمة:

عبد السلام المشد المواطن المصرى الطيب وهو موظف بالمدينة "متزوج ويعول". فجأة وبدون أى مقدمات أو علامات منذره وجد نفسه فى خبرة يقال عنها "مرضا" وذلك حين فوجىء وهو واقف فى صف دفع ايصال كهرباء متأخر، فوجىء بلا مفاجأة: أن موظفة الشباك تسأله: "الاسم يا سيد"، وإذا به وكأنه يتعرف لأول مرة على أن له اسم، وأن هذا الاسم ليس جاهزاً طول الوقت، وأنه غالبا يدل على من يتسمى به: الذى هو المدعو "عبد السلام المشد نفسه"، وإذا به يعيد النظر فى "مَنْ" هو و"لماذا هو" و"إلى أين"، يعيد النظر فجأة وبحدة وتشتت، هكذا ينطلق داخله فى التجوال داخل داخله، وحوله، وخارجه بطريقة، لم يَعْتدها، ثم يواصل التداعى وهو يصف المفاجأت المتتالية والتداخلات العشوائية بين بعضه وبعضه وبينه وبين من حوله، بما يتضمن من مراجعه ونقد، وربكة، وتساؤل، ونقلات.

يحترم عزلته وهو يرفض حلوله وأفكاره ويكتشف خواء حياته الماضية واغترابه المجتمع ويواصل خبرته فى وحدةٍ ورعب معا، وهو يرفض أى اقتراب وفى نفس الوقت يعلن جوعه لأن يُرى وأن يَنتمى مع وقف التنفيذ.

الفصل الثانى:"إمّا أنْ تعودَ... أو: نقتلكْ" (رواية الواقعة)

يبحث عبد السلام عن علاج لحالته فيبدأ باستشارة طبيب العائلة مع أنه لا يعترف بأنه مريض، ولكنه يستجيب لإلحاح زوجته التي لاحظت اختلاف حالته من خلال تغير مزاجه ثم الرعشة المتقطعة التى تصيبه وهو يذهب إلى هذا الطبيب مع زوجته استجابة لإلحاحها، ويروح يقرأ داخل الطبيب بحدسه النشط، ويكاد يشخصه، ثم يواصل تداعياته حول هواجسه وما يعتريه من كوابيس وتداخل الحلم بالواقع، كما يصف ما طرأ على مشاعره تجاه عمله وزملائه وزميلاته، وهو يرعب من أى طارق يقترب من كشف هذا الذى يجرى داخله، ويتحدث عن الطفل غير الشرعى الذى يكمن فى داخله، ويعوث لعبا وارباكا فى نومه وأحيانا فى صحوه، كل ذلك وهو لا يكف عن السعى بحثا عن "عبد السلام المشد" الذى كان فلا يجده، ولا يجده بديلا عنه، وهو يعيش فى كوكبه الجديد الخاص بلا اسم ، ولا ماضى ولا حاضر إلا ما يتخلق له من تجاربه العجيبة الجديدة، وهو يتعرف

على جاره "غريب" من منطلق آخر، فيحترم عزلته وهو يرفض حلوله وأفكاره ويكتشف خواء حياته الماضية واغتراب المجتمع ويواصل خبرته فى وحدةٍ ورعب معا، وهو يرفض أى اقتراب وفى نفس الوقت يعلن جوعه لأن يُرى وأن يَنتمى مع وقف التنفيذ.

الفصل الثالث "يمامتان":

يواصل عبد السلام رحلته السرية مع ذاته وهو يمارس عمله بصعوبة بالغة وهو يعيد التعرف على زملائه من جديد وكأنهم ليسوا هم، ويضبط مشاعره نحو زميلته التى يسمح له خياله أن يجرى معها حوارا ينتهى بوعد بلقاء، وهو لا يكتشف أن كل ذلك من صنع الخيال إلا من خلال إفاقة من سؤاله بواب المكتب الذى يبلغه أن زميلته فى إجازة وضع، وهو يتأكد هنا بعد الحادث أن ما أصابه لهذه الدرجة لابد أن يكون نوعا من الجنون وذلك بعد تساؤله عن "ما هذا الذى يحدث، "خيال" أم "أوهام"، أم "جنون"، ثم يصل إلى أن ينكر كل ذلك ويصر أنه "لا مرض ولا جنون ولا يحزنون ولكنها "الجنة فى كوكبه الخاص" ويلتقى بزميلته بعد عودتها من إجازة الوضع، وهى تبدى نحوه اهتماما طيبا فى لقاء اقترحته، ويتم اللقاء فى جو من الود والاحترام لحالته وتذكّره زميلته بزوجته بكل طيبه وأمومة، وينتهى الفصل بمحاولته الهرب من كل هذا المحيط، بكل ما يعنّ له وسائل الهرب.

يعيد التعرف على زملائه من جديد وكأنهم ليسوا هم، ويضبط مشاعره نحو زميلته التى يسمح له خياله أن يجرى معها حوارا ينتهى بوعد بلقاء

وبعد

اعتباراً من الأسبوع القادم خطر لى أن أغير الأسلوب جذريا على الوجه التالى:

سوف أكتفى غالبا بنشر مقتطفات محدودة من الفصول التالية وهى المقتطفات التى لها علاقة بالتدريب والتطبيب النفسى وبالطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى خاصة، مع إشارة محددة إلى العلاقة الطبية والنقدية والتدريبية، ما أمكن ذلك ثم ننتظر تعقيبات ممن يهمه الأمر، وكأنى بذلك أخص هذه الصفحات للممارسيين لطب النفسى والعلاج النفسى، بقصد أرجو ألا يفسد الإبداع.

ولعل الأمر يكون بذلك أسهل وأكثر تحديدا للهدف والوسيلة.

الأحـــد 03-06-2018

العدد: 3928 -إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من نقدى للنص الإدبى)

نبض المكان فى الوعى البشرى بين "لحس العتب" و "قنديل أم هاشم"2

اعتبرت" أن المائدة فى الفيلم ".... هى المكان و الزمان والرمز والأسطورة، هى أستونيا، هى مناخ الولادة ومقبرة الموت وباعثة الحياة، .....، هي تلك الأرض القوية الصلبة التي يقف عليها المدافعون عنها يطالبون بالغناء سوياً و الصمت سوياً و التنفس سوياً والغناء سويا....إلخ

استهلال:

...وحتى أبين ما أعنى بـ "نقد النص البشرى" وهو المحور الذى تدور حوله أغلب أساسيات "الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى" سوف أواصل تقديم مقتطفات من نقدى الأدبى لبيان بعض ذلك.

مقدمة:

لا أعرف ما الذى جعل قنديل أم هاشم يقفز إلى وعيى وأنا أقرأ رواية "لحس العتب" لخيرى شلبى. أهو التعمق فى حضور "المكان" برغم الاختلاف الشديد بينهما؟ أهو التباين بين الوصف المتناهى الدقة لخارج الداخل، وبين الحدس المتناهى الكشف لداخل الخارج؟ أهو المسافة الزمنية الواقعة بين كتابة العملين (1939-1991) (2) برغم قرب زمن الأحداث نسبيا؟ أهو تميز الكاتبين تميزا إبداعيا ومصريا، كلّ بطريقته؟ أهو المقابلة بين ريفنا القديم، وقاهرتنا القديمة، بما يحمل من دلالات؟ أهو تناول كلا العملين لما يسمى التطبيب الشعبى على مستويين متناقضين تماما؟

لعله كل ذلك.

المقتطف من النقد المقارن (1)

هذا الجزء من الدراسة يتناول المكان كما جاء فى "لحس العتب" ، مقابلة بالمكان فى قنديل أم هاشم، حضورا فى، وجدلا مع: الوعى البشرى الفردى والجمعى.

الترابيزة

أتيحت لى فرصة عابرة لمشاهدة فيلم قصير من إستونيا باسم "المنضدة" عرض فى مهرجان الاسماعيلية التاسع (2005)" من إخراج "جلينا جرلين" و"مارى ليس" و"أورماس جويميس"، حاولت أن أجد أية إشارة مباشرة لما هو منضدة، أو مائدة (أو ترابيزة) ففشلت، وتصورت أن القائمين عليه تعمدوا ذلك ليتيحوا للمشاهد والناقد فرص أن يرى ما يرى، ربما مثلما فعلت ناقدة حاذقة (أمل زكى) حين اعتبرت" أن المائدة فى الفيلم ".... هى المكان و الزمان والرمز والأسطورة، هى أستونيا، هي مخاض الولادة ومقبرة الموت وباعثة الحياة، .....، هي تلك الأرض القوية الصلبة التي يقف عليها المدافعون عنها يطالبون بالغناء سوياً و الصمت سوياً و التنفس سوياً والفناء سويا....إلخ". شعرت أن رواية خيرى هى أولى بهذا الاسم "الترابيزة" (وليس المائدة أو المنضدة)، ليس فقط لأنها تبدأ بها وتنتهى بها، ولكن لأن وجودها المحورى بدا لى أنه هو ما يميز هذه الرواية أكثر من ظاهرة التطبيب الشعبى سلبا وإيجابا، حيث يمثل "لحس" العتب الجانب السلبى من ذلك

تبدأ رواية "لحس العتب" حول "ترابيزة" فى وسط المندرة، وتنتهى وقد نزعت الترابيزة من الدار نزعا بعد أن انهار عليها جدار الممر الذى سحبت إليه قسرا فى فترة من تاريخ حياتها. تدور جميع الأحداث تقريبا حول هذه الترابيزة، أو فوقها، أو بجوارها أو تحتها أو بالقرب منها، أو حتى بعيدا عنها. حتى حين سافر "فخرى" إلى البندر للعلاج، تصورت أن هذه الترابيزة ظلت تمثل خلفية

لكل منا محور أساسى يدوّر حوله حياته. يجرى ذلك فى مستوى ما من الوعى، حتى لو لم ندركه. يتجلى أثر ذلك فى الشعور، أو يظل كامنا فى مستوى أعمق من الوعى طول العمر

أحيانا يكون لهذا المحور اسم نظرية أو أيديولوجى. بلغة سيلفانوا أريتى يمكن أن يكون "الفكرة المركزية". وبلغة الأساطير: الأيقونة ذات السحر الغامض، وبلغة الإسلام الحقيقى: أنه "لا إله إلا الله"،

متنقلة وراءه خشية أن يتغير (ولو إلى الشفاء) بعيدا عنها، وسرعان ما استعادته (الترابيزة) كما هو. بدأ الرواية هكذا: "ليست هذه الترابيزة العجيبة هى كل ما تبقى..." (ص 5). كما كانت أخر كلمات الرواية عن الترابيزة حين قال الوالد: "..... وحين كانت الذكريات تجرهم إلى الحديث عن الترابيزة الشهيرة كان أبى يبتسم قائلا: الملك فارق نفسه انزاح عن عرشه! سبحان من له الدوام". (ص 66). انتهت الرواية إذن بنزول هذه الملكة، الترابيزة، عن عرشها: الناس والذاكرة.

التمحور حول مركزٍ ما (تكملة فى نفس الصفحة نفس النقد)

لكل منا محور أساسى يدوّر حوله حياته. يجرى ذلك فى مستوى ما من الوعى، حتى لو لم ندركه. يتجلى أثر ذلك فى الشعور، أو يظل كامنا فى مستوى أعمق من الوعى طول العمر، أحيانا يكون لهذا المحور اسم نظرية أو أيديولوجى. بلغة سيلفانوا أريتى يمكن أن يكون "الفكرة المركزية". وبلغة الأساطير: الأيقونة ذات السحر الغامض، وبلغة الإسلام الحقيقى: أنه "لا إله إلا الله"، وهكذا. إلا أنه لا يتحتم دائما أن يعرف أى منا تحديدا حول أى محور يدور. ولا هذا ممكن معظم الوقت. ثم إن أى محور هو ليس ثابتا بالضرورة. هو قابل للتغير والتعديل مع كل ولادة جديدة على مسار النمو. كذلك فإن أى واحد منا عادة ما يُسقط (و/أو يزيح) موضوع تمحوره خارجه على رمز أو حدث، بوعى أو بغير وعى.

لا يتحتم دائما أن يعرف أى منا تحديدا حول أى محور يدور. ولا هذا ممكن معظم الوقت.

إن أى محور هو ليس ثابتا بالضرورة. هو قابل للتغير والتعديل مع كل ولادة جديدة على مسار النمو

وصلنى أن الراوى فخرى، فى مسح العتب، قد تمحور حول تلك الترابيزة مثلما فعل أبوه وأسرته، كل بطريقته، وأيضا: بما تعنيه مختلفا عند كل منهم. فخرى زحف على سطحها طفلا، ودار حول أثرها صبيا، وبحث تحتها تلميذا مستكشفا، وحادث أشلاءها وأشياءها أخيرا، لكنه فى النهاية قفز بعيدا عنها و كأنه وُلد من رحمها بالرغم منها حين انطلق إلى الخارج (الشارع/الطبيعة) بعد أن شفى بتناغم وعيه مع وعى حقيقى آخر فى رحاب الوعى الإيقاع الحيوى الطليق.

وبعد

هذا ما جاء فى مقدمة هذا "النقد المقارن"

فهل أطمع فى تعليقات تحفزنى على مواصلة هذه الطريقة، فى هذا العمل وغيره.

وهل يحرك هذا الوصف بعض ما يمكن أن تعنيه لنا "هنا"، ".." فى القاعدة الأساسية فى العلاج الجمعى "هنا والآن" (أنا ó أنت)

وهى تذكرنا ذلك بكتاب جاستون بشلار فى "شاعرية المكان" جنبا إلى جنب مع كتابه " حدسُ اللَّحظة"(3)؟

شكرا

هل أطمع فى تعليقات تحفزنى على مواصلة هذه الطريقة، فى هذا العمل وغيره

الاثنيـــن 04-06-2018

العدد: 3929 - إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من نقدى للنص الإدبى)

نبض المكان فى الوعى البشرى بين "لمس العتبه" و "قنديل أم هاشم"1

مقدمة:

مازالت إشكالية التعرف على ماهية الوعى تمثل تحديا على كل المستويات، وقد أشرت إلى ذلك مرارا، وإلى الصعوبات التى عايشتها حتى بعد محاولة قراءة رأى "هنرى إى" وأيضا بعض كتابات الوعى عند هيجل مروراً بكل ما يعّن لى من فروض واحتمالات وتنظير ونظريات حتى انتهيت إلى فهم أوسع من خلال تعدد مستويات الوعى بعدد تعدد أنواع العقول "دانيال دينيت" (2) ولكن ظل الجدل بين هذه العقول والتباديل والتوافيق بالطول والعرض تبعدنى عن إرواء عطشى لمعرفة ماهيته تحديدا.

مازالت إشكالية التعرف على ماهية الوعى تمثل تحديا على كل المستويات

وأنا أعيد الآن قراءة هذا النص الذى كتبته نقدا منذ عقد من الزمان، اكتشفت أن النص الأدبى ألهمنى لمحات من الربط بين المكان والوعى بقدر لم يخطر لى من قبل فى تنظيرى العلمى مثلما سبق أن خطر لى الربط بين الزمن والوعى.

انتهيت إلى فهم أوسع من خلال تعدد مستويات الوعى بعدد تعدد أنواع العقول "دانيال دينيت"

أنهيت نشره أمس بتساؤل يقول:

"هل يحرك هذا الوصف الوارد فى النقد تلقائيا بعض ما يمكن أن تعنيه "هنا" كما نركز عليها فى العلاج الجمعى فى: "هنا والآن"؟

وإذا بى أجدنى قد رددت على هذا التساؤل ضمنا حين تناولت العلاقة بين المكان والوعى، وبين الوعى والمكان فى هذا العمل النقدىّ كما يلى:

المقتطف (2)

حضور المكان فى الوعى (من نص النقد)

..... لست متأكدا إن كنا نعرف حقيقة معنى: "استحالة وجودنا إلا فى مكان ما" ؟، إن أى شىء حى، أو غير حى، لا يوجد منفصلا عن المكان الذى هو فيه، لكن الإنسان يتميز، بالإضافة، بقدرته على الوعى بالمكان ظاهرياً، بدرجات مختلفة. من ضمن خداعنا لأنفسنا رحنا نتصور أننا نعرف ما هو المكان، وأننا نعايش علاقتنا به بوضوح أكثر من الزمن، وبالتالى حاولنا أن نفهم إشكالة الزمن من منطلق المكان، فقد تصورنا أننا كما يمكننا أن نتجول فى المكان ذهابا وجيئة، شرقا وغربا، يمكننا أن نتجول فى الزمن بنفس الطريقة، وبهذا نكسر سجن الزمن التتبعى، الذى لكى ندركه، علينا أن ننفصل عنه لنتبعه أو نقيس خطواتنا به. المكان ليس بهذه البساطة التى تصورناها لنفهم الزمن من خلاله. المكان ليس مساحة للتجوال ولا هو تعيين للزمن، المكان هو الذى يموضع العلاقات بيننا وبعضنا، وبين الأشياء وبعضها، وبيننا وبين الأشياء. العلاقة بالموضوع، هى "علاقة بالآخر فى مكانه"، العلاقة بالموضوع تشمل: العلاقة بالأشياء فى حضورها وغيابها وتغيّرها، فى جدلها المتجدد بوعى يتشكل، فى حركية إيقاع حيوى نامٍ ينطلق من كل ذلك إلى الممكن المجهول: إذ يتنوع باستمرار مع حركية الجدل المتصاعد عبر دورات الإيقاع الحيوى.

إن تغير المسافة باستمرار فيما بيننا وبين الموضوع هو أمر جوهرى بالنسبة للوعى عامة والوعى بالمكان أيضا، يختلف الوعى بالمكان بحسب درجة إدراك العلاقات، أو إدراك الحركية، وكيفية تغير المسافات.

..... لست متأكدا إن كنا نعرف حقيقة معنى: "استحالة وجودنا إلا فى مكان ما" ؟، إن أى شىء حى، أو غير حى، لا يوجد منفصلا عن المكان الذى هو فيه، لكن الإنسان يتميز، بالإضافة، بقدرته على الوعى بالمكان ظاهرياً، بدرجات مختلفة

من ضمن خداعنا لأنفسنا رحنا نتصور أننا نعرف ما هو المكان، وأننا نعايش علاقتنا به بوضوح أكثر من الزمن

حاولنا أن نفهم إشكالة الزمن من منطلق المكان، فقد تصورنا أننا كما يمكننا أن نتجول فى المكان ذهابا وجيئة، شرقا وغربا، يمكننا أن نتجول فى الزمن بنفس الطريقة، وبهذا نكسر سجن الزمن التتبعى،

حين حضرنى المكان هكذا فى رواية "لحس العتب" (لخيرى شلبى) بالإضافة إلى حضور تشكيلات التطبيب الشعبى، الإيجابية والسلبية، تصورت أن قراءة مقارنة مع "قنديل أم هاشم" (ليحيى حقى) قد تكشف الاثنين أجمل وأبدع.

فى رواية "لحس العتب" كان وصف المكان من خلال العلاقات السلوكية والرمزية والموضوعاتية هو الحاضر غالبا، فى حين أنه فى قنديل أم هاشم كان التناول يتم من خلال امتدادات المكان والناس فى الوعى، وبالعكس، طول الوقت، فضلا عن الامتداد فى المكان: "الغيب" "المابعد

المكان عند كل من شلبى وحقى فى هذين العملين كان حاضرا طول الوقت بكل التفاصيل، سواء ضاق عند شلبى حتى كاد ينزوى تحت الترابيزة، أو حولها، أو اتسع عند حقى حتى تخطى مقام السيدة وميدانها إلى المطلق اللامتناهى. أين المكان هنا وهناك من الوعى البشرى، وما العلاقة بينهما؟

(ثم كتبت فى نفس النقد)

.... فى مرحلة سابقة كنت أشبّه الوعى بالوساد اللازم لكى تتزرع فيه سائر الوظائف النفسية الأخرى، وكأنه الأرضية الضرورية لأشكال حادثة، ثم تبينت أن هذه التفرقة بها من التعسف والاختزال ما يخل بتقديم الوعى الإنسانى بحضوره الجوهرى فى كل الحياة العقلية والنفسية، فى كل الوجود. الوعى عندى الآن هو عمق أى سلوك يتبدى لنا، هو البعد المشتمل لما يصلنا ظاهرا، وهو متعدد بعدد الظواهر، أو حتى بعدد جزيئات الظواهر، بقدر ما هو مشتمل لها جميعا على مستويات مختلفة، من هنا لم يعد يصلح أن نختزل الوعى إلى ما يشبه "السطح الجاهز لما يحتويه"، كما يوحى لفظ "الوساد" أو "الأرضية"، (كما تصوّرت ونظّرت سابقا) الوعى البشرى هو الأقدر على أن يكون المقابل الحيوى داخلنا للمكان الخارجى. العلاقة بين حركية الوعى كمكان حيوى داخلى، وحركية المكان كحضور موضوعى خارجى، هى علاقة جدلية مستمرة. (ما زلنا فى نفس النقد)

المكان ليس بهذه البساطة التى تصورناها لنفهم الزمن من خلاله. المكان ليس مساحة للتجوال ولا هو تعيين للزمن، المكان هو الذى يموضع العلاقات بيننا وبعضنا، وبين الأشياء وبعضها، وبيننا وبين الأشياء.

العلاقة بالموضوع، هى "علاقة بالآخر فى مكانه"، العلاقة بالموضوع تشمل: العلاقة بالأشياء فى حضورها وغيابها وتغيّرها

إن تغير المسافة باستمرار فيما بيننا وبين الموضوع هو أمر جوهرى بالنسبة للوعى عامة والوعى بالمكان أيضا

فى "لحس العتب" نتابع حضور الترابيزة فى الوعى بما حولها من مندرة وما جاورها من "خزنة"، وما ملأها من حركة ناس وأزمنة، يحتلون هذا الحيز من الأرض، يدخلون ويخرجون على فترات، لكن يبقى المكان هو الأصل، هو الكيان الحى المحيط والترابيزة فى مركزه.

يقع هذا المكان فى دار متآكلة فى قرية من قرى بندر دسوق، لكنه يقع أكثر فى "الذاكرة الوعى"، وليس الذاكرة شريط التسجيل "..هناك هناك فى أبعد ركن من ذاكرتى أرانى طفلا فى حوالى الثالثة من العمر أرتع زحفا على سطح هذه الترابيزة رائحا غاديا" (ص 9) الذاكرة هنا مكان يُزار، لا معلومة تُستعاد، والترابيزة هى مجال محيط، وليست أداة تُستعمل. حجم الترابيزة (أكثر من مترين فى متر ونصف)، وموقعها (ترابيزة الوسط) يدلان على أنها مجال محورى أكثر منها شيئا للاستعمال. المتابع لزحف الأحياء والأشياء (وقد صيّرها الراوى أحياء) فوق، وتحت الترابيزة، وحولها، لا بد أن يشعر أنها أصبحت وكأنها الأرض الكروية، وأحيانا المجموعة الشمسية. أرجل الترابيزة النحاسية تقول أيضا إنها كائن حى"... شغل يدوى، بأرجل مخروطية عليها نقوش وانبعاجات وتكورات تنتهى فوق الأرض بأقدام على شكل حوافر من النحاس إن تأملتها قليلا تبينت أنها على شكل سباع كثيفة الشعر غليظة الظافر..."(ص 8). ها هى الترابيزة تعلن عن رسوخها من جهة، وأصل قوتها وتوحشها وسيطرتها من جهة أخرى، فإذا أضفنا إلى ذلك كيف كان الناس والأطفال خاصة يحسبون أن هذه الأرجل النحاسية هى من الذهب، شعرنا كم كانت هذه الترابيزة "قيمة " فى ذاتها من أكثر من ناحية.

قيمة الترابيزة المعلنة كانت فى اتجاه آخر: إنها دليل على العز والأصل، وبالتالى لا يمكن الاستغناء عنها مهما كان الثمن، بدا التنازل عنها لأى سبب وبأى مقابل بمثابة تسليم لواقع مرفوض، يتمنى المصاب به، رب الدار (وأهل الدار)، أن يكون واقعا مؤقتا، وإن كان الأب يعرف من داخل داخله، ومن همس وتصريح مَنْ حوله، أن ذلك محال، وأن ما آل إليه الحال من حاجة وحرمان هو واقع دائم راسخ لا حل

يختلف الوعى بالمكان بحسب درجة إدراك العلاقات، أو إدراك الحركية، وكيفية تغير المسافات.

....فى مرحلة سابقة كنت أشبّه الوعى بالوساد اللازم لكى تنزرع فيه سائر الوظائف النفسية الأخرى، وكأنه الأرضية الضرورية لأشكال حادثة

له، لكن ظلت الترابيزة تمثل قيمة أهم فى موقعها المحورى الذى تدور حوله الحياة وتتشكل الأحداث، دون أن تنفصل عنه.

وبعد

ننتقل الأسبوع القادم إلى ما يقابل ذلك فى "قنديل أم هاشم" عند يحيى حقى، لكن دعونا نثبت البداية (بداية نشرة السبت) لعلنا نحفز المواصلة.

المكان "يمتد" فى قنديل أم هاشم

فى المقابل: تتمحور أحداث رواية قنديل أم هاشم حول مكان محورى أيضا له حضوره ودلالاته، هو مقام السيدة زينب، بما حوله وما يدور بهم ويدوّرونه، الميدان والناس كتلة واحدة. المكان، هنا، بما فيه من ناس وأحوال، هو جاهز للمقابلة بالغرب بكل ما يعنيه ذلك "..هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب؟ ..... "..... مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وإنهاء النهار يروّحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو" (ص 113). الراوى أو إسماعيل أوالكاتب (فى قنديل أم هاشم) سرعان ما يستدرك (مثلما فعل كثيرا طول الرواية قائلاً): "..ولكن . لا. لا .... من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها وذل الشرق وجهله ومرضه".

.....

(ونكمل الأسبوع القادم لمن يستطيع معنا صبرا)

لم يعد يصلح أن نختزل الوعى إلى ما يشبه "السطح الجاهز لما يحتويه"، كما يوحى لفظ "الوساد" أو "الأرضية"، (كما تصوّرت ونظّرت سابقا)

العلاقة بين حركية الوعى كمكان حيوى داخلى، وحركية المكان كحضور موضوعى خارجى، هى علاقة جدلية مستمرة

السبـــت 2018-06-09

العدد: 3934 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى(من الإبداع الخاص)

الفصل الخامس: "عقل بالى" رواية "الواقعة"

كلنا معرضون لمثل هذه الأمور، والمرض النفسى لم يعد عيبا هذه الأيام إنه علامة حضارية، من منا يستطيع أن يتحمل كل هذه الضغوط..؟

مقدمة

وعدت فى الأسبوع الماضى أن أخصص يوم السبت للفصل التالى (الخامس) من رواية "الواقعة" (1) أنشره مجتمعا، لأكتفى يومى الأحد والأثنين بمحاولة الإشارة إلى ما يربط هذا الإبداع الباكر بالطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى.

ثم قمت بكتابة موجز للفصول الأربعة تمهيدا لقراءة هذا الفصل (مثل الأسبوع الماضى)، فوجدت أننى أقوم بأبشع عمل يمكن أن يلحق بمثل هذا الإبداع.

فكتبت إشارة لأكثر إيجازا لجماع الفصول الأربعة معا فوجدتها أقبح وأقبح، فعدلت عن كل ذلك وقررت أن أنشر الفصول الباقية للرواية تباعا كل يوم سبت خاصة بعد أن لاحظت المتابعات من الأصدقاء فى بريد الجمعة.

أنا أسف.

*****

نشرة اليوم

الفصل الخامس

"عقل بالى"

أخذت المشاكل تتصاعد بعد أن خانتنى ذاكرتى فى كل موقع، بدأت أول الأمر بنسيان أشيائى الصغيرة بالمنزل، البيت ستر وغطاء، وزوجتى صابرة حتى الآن، أما فى العمل فالأمر قد استشرى حتى امتلأت الملفات بالتأشيرات الحمراء تزين كل الصفحات وعرفت الأوراق الرجوع إلى مكتبى حتى تصورت أنها سترجع بعد ذلك وحدها دون أن يحملها الساعى إلىّ بعد المراجعة والتأشير عليها بما لا لم أعد أفهمه، ارتفعت الهمسات حتى أصبحت تلميحات علنية، أخذت شكل القفشات ذات المغزى، ثم أصبحت التعليقات تلقى فى وجهى مباشرة ولا شىء يوقظنى من ذهولى، وحتى الحمار الجنسى فى جوفى توقف عن هز ذيلة.

إطمئن يا أستاذ نصحى لقد ذهبت من قبل للطبيب، وتبينت أنى طبيعى تماما، لن أشل عقلى مرة ثانية باستعمال تلك الأقراص

ذات صباح جاء الأستاذ نصحى عبد الصادق رئيسى المباشر وجذب كرسيا إلى جوار مكتبى، بدأ حديثه معى فى وداعة وأدب ظاهر مثل طلبة مدارس الفرير أيام زمان، .... وجهه ملئ بالرقة والجد معا، رجل طيب بلا شك.

– صباح الخير يا أستاذ عبد السلام.

– صباح الخير يا افندم.

– كيف حالك اليوم؟

أى جديد تسوقه الأيام، وكيف أرد هذا الطارق وهو يجلس قبالتى طول النهار.

التليفون دائما مشغول يا أستاذ نصحى، فكيف أحصل على ميعاد؟

– لا بد أن تطلبه إلا عشرة.

– مثل كل يوم يا افندم.

– أريد أن أتحدث معك على انفراد.

انفراد؟ هل فى الأمر سر؟ ترى هل لاحظ مشاعرى فى تلك الفترة التى انتهت؟ ماذا بينى وبينه من أسرار؟

– أنا تحت أمرك.

قلتها ولم أتحرك من مقعدى فاقترب أكثر بكرسيه وقال هامسا.

– أنا أعرف محللا ممتازا ساعد صديقا لى يمر بمثل حالتك وشفى على يديه تماما.

– مثل حالتى؟ مالها حالتى يا أستاذ نصحى.

– كلنا معرضون لمثل هذه الأمور، والمرض النفسى لم يعد عيبا هذه الأيام إنه علامة حضارية، من منا يستطيع أن يتحمل كل هذه الضغوط، ..؟

– أنا علامة حضارية يا أستاذ نصحى؟. أى ضغوط وأى مرض تتكلم عنه؟

– لن تخسر شيئا وأنا على استعداد للذهاب معك.

يبدو أن الوصاية بدأت تفرض علىّ من الخارج أيضا، لابد من مزيد من الحذر،

– إطمئن يا أستاذ نصحى لقد ذهبت من قبل للطبيب، وتبينت أنى طبيعى تماما، لن أشل عقلى مرة ثانية باستعمال تلك الأقراص، لقد توقف عقلى عن العمل وحده يا أستاذ نصحى دون حاجة إلى كيمياء.

– لا أقراص ولا يحزنون هو محلل نفسى ممتاز، لا يعطى أقراصا.

– إذن ماذا يعطى؟.

– لا عليك من التفاصيل، ولكن صديقى يقول إنه يحسن الاستماع ويبحث عن الأسباب، وإذا عرف السبب انحلت العقد والمشاكل.

– إذا عرف السبب ؟؟ ..كان غريب أشطر.

– مَنْ غريب؟

– آسف، لا شئ، الأمر غريب، ولا غريب إلا الشيطان.

– لست أمزح يا أخ عبد السلام، أنت صاحب أولاد، والهمس يزداد من حولك، والحالة بدأت تهدد عملك.

مزيد من اليقظة والحذر، التهديد أصبح علنا وليس عندى ما أضمن أن ينفعنى إذا أنا وعدته بإصلاح عملى، لم أعد أستطيع أن أحتفظ فى عقلى بأى رقم إلا لمدة ثوان لا تكفى لنقله من صفحة إلى أخرى. نسيت جدول الضرب، ولابد من الرضوخ ولو من باب المناورة أو التأجيل.

– إلا عشرة؟ ماذا تعنى؟.

– إنه يرفع السماعة فيما عدا آخر عشر دقائق من كل ساعة حيث يتلقى المكالمات ويعطى المواعيد

حتى لا يقطع أحد الجلسة أثناء العلاج، ألم أقل لك إنه عمل جاد، ليس مجرد أقراص، أو تطييب خاطر.

– شكرا يا أستاذ نصحى. سأحاول.

حاولت الانصراف إلى ما بيدى من ملفات ولكنه أكمل برقة وأدب دون تصنع.

– ماذا ستحاول يا عبد السلام يا أخى؟ إنك لم تسأل حتى عن العنوان.

– آسف كنت سأسألك فيما بعد.

–... أم أنك نسيت ما كنا نتحدث فيه؟

يعايرنى بالنسيان، لا مفر من التسليم قبل أن يذكرنى بمصائب أدائى فى العمل.

– أيدا، .. ولكنى لا أحب أن أزعجك بشئونى الخاصة.

– إسمع النصيحة، لم يعد هذا الأمر من شئونك الخاصة، وأنت على هذا الحال، أنت تعلم أنى أتلقى الإهانات من المدير العام كل يوم بسببك، اعتبرنى صديقك يا أخى، جرب، هو أمر إدارى إذن، وليست نصيحة !!! لا مفر من التسليم.

–.. أنا تحت أمرك.

تناول الأستاذ نصحى ورقة من فوق الكتب وكتب فيها بضعة كلمات تصورت أنها إنذار بالفصل، كورها وناولها لى، أخذتها فى صمت وانصرفت بعد أن ربت على كتفى فى حنان.

جلست إلى مكتبى لا أجرؤ على فتح الورقة، حاولت أن أسترجع الحديث كله أو بعضه فلم أستطع أن أتبين إلا أن إنذارا رسميا قد وجه إلى، بدأت حالتى تهدد رزقى، فى يدى ورقة تؤكد ذلك، انتهزت فرصة أن أحدا من الزملاء لا ينظر إلى وفتحت الورقة فى هدوء.

الدكتور "..... ".. مستشار نفسى، الإستشارة بميعاد سابق، ما علاقة هذا الدكتور بعملى بالإنذار بالفصل؟ لم أسمع عن حكاية "المستشار" هذه قبل ذلك، هل هو مستشار فى اللجنة الثلاثية قبل الفصل؟ لا أملك التراجع حفظا على مرتبى ووظيفتى ولن أعدم فائدة فى أن يكون عندى عذر دائم لأخطائى فى العمل، الأمر الذى سأرفضه حتى الموت هو التسليم لتلك الأقراص مرة ثانية،

كلما زادت مخاوفى تعجلت الذهاب إلى المغامرة حتى أنتهى من هذه التخمينات والمحاذير

أخذت موعدا عجيبا بعد محاولات أقرب إلى المناورات العسكرية، كان الموعد خمسة إلا خمسة، ما هذه المواعيد المضحكة؟ هل هذا من لزوم الصنعة؟ التليفون إلا عشرة والموعد إلا خمسة

أكد لى نصحى أفندى أن هذا المحلل المستشار ليس له علاقة بالأقراص، ولكن خوفى مازال قائما، لن أفعلها ولو كان مصيرى التسول على النواصى، شىء لله يا أم العواجز!!.

مر يومان وثلاثة وأنا أحاول أن أؤجل التجربة خوفا من المجهول، إلا أن نظرات الأستاذ نصحى المتسائلة كانت تلاحقنى مع تأشيراته الحمراء المنتظمة، حالتى تزداد سوءا، يبدو ألا مفر.

– التليفون دائما مشغول يا أستاذ نصحى، فكيف أحصل على ميعاد؟

– لا بد أن تطلبه إلا عشرة، ..

– إلا عشرة؟ ماذا تعنى؟.

– إنه يرفع السماعة فيما عدا آخر عشر دقائق من كل ساعة حيث يتلقى المكالمات ويعطى المواعيد،

– ولماذا يا أستاذ نصحى.

– حتى لا يقطع أحد الجلسة أثناء العلاج، ألم أقل لك إنه عمل جاد، ليس مجرد أقراص، أو تطييب خاطر.

إذن فهو عمل جاد، قالها وهو يطمئننى، إلا أن ترددى زاد، كان فى نيتى أن أذهب لمجرد الوقاية من الفصل، أما أن يأخذ أحدهم الحكاية جدا فهذا مالا أحتمله، بدأ الشك يساورنى فى أن الأستاذ نصحى نفسه كان من بين زبائن هذا المستشار، وإلا فما الداعى لكل هذا الحماس والدفاع؟ ثم إن معلومات الأستاذ نصحى تبدو"نفسية جدا"، من أين له بها؟ هل يريدنى أن أشاركه شيئا ما، هل يريدنى أن أكون مثله حتى لا يخجل مما فعل؟ لكننى لست مثله، هو إنسان يتكلم بالحساب كأنه يقرأ من كتاب، يعامل الناس فى رقة تدعو للشك، يلمع ذقنه كل يوم حتى أتعجب كيف يفعلها بهذه الصورة، تساءلت مرة أيام نشاط عقلى الساخر إن كان يستعمل الزلطة التى كانت تستعملها خالتي"نجيبه" فى تزليط قاعة الفرن بعد دهاكتها، الفرق بين، إن كان هو يحتمل الوقوف أمام المرآة لإتمام هذه

لابد اننا لسنا فى مصر العزيزة، كيف يمكن أن تكون المواعيد بهذه الدقة فى بلد بهذه الفوضى؟

دققت الجرس، فتحت لى سيدة فى منتصف العمر ولم تدعنى للدخول، سألتنى ماذا أريد، فلما أجبتها بأن ميعادى الساعة كذا طلبت منى فى رقة أن أحضر فى الموعد، انصرفت محرجا منبهرا

المهمة المعقدة، فهو لا بد يحتمل الخمسين دقيقة التى حدثنى عنها عند هذا"المستشار"، أنا لست هو، خاصمت المرآة منذ أخرجت لى لسانها، ليس عندى أدنى فكرة عن هذه الأمور"الجادة"، أحس أن عقلى قد تحلل بحيث لم يعد يحتمل أى نبش فى أنقاضه، أين المهرب؟

كلما زادت مخاوفى تعجلت الذهاب إلى المغامرة حتى أنتهى من هذه التخمينات والمحاذير.

* * *

أخذت موعدا عجيبا بعد محاولات أقرب إلى المناورات العسكرية، كان الموعد خمسة إلا خمسة، ما هذه المواعيد المضحكة؟ هل هذا من لزوم الصنعة؟ التليفون إلا عشرة والموعد إلا خمسة، لابد اننا لسنا فى مصر العزيزة، كيف يمكن أن تكون المواعيد بهذه الدقة فى بلد بهذه الفوضى؟ من أين لى بالأتوبيس أو حتى بالتاكسى الذى سيوصلنى إلا خمسة؟ لهجته كانت حاسمة ومحذرة فى نفس الوقت، هو شخصيا الذى أعطى الموعد بلا وسيط، ليس أمامى إلا احترامه بقدر ما شعرت منه بالاحترام.

* * *

قبل الموعد بأكثر من ساعة كنت قد وصلت إلى باب العيادة، وجدته مغلقا بعكس عيادة النطاسى السابق حيث كان المنظر أقرب إلى جميعة استهلاكية، يبدو أنى على وشك الدخول فى تجربة مختلفة فعلا، دققت الجرس، فتحت لى سيدة فى منتصف العمر ولم تدعنى للدخول، سألتنى ماذا أريد، فلما أجبتها بأن ميعادى الساعة كذا طلبت منى فى رقة أن أحضر فى الموعد، انصرفت محرجا منبهرا.

أين أقضى هذا الوقت؟ أليس عند هذا الدكتور حجرة لأمثالى من الرعية التى لا تستطيع أن تحضر فى الموعد إلا حسب الاحتمالات اللوغاريتمية للمواصلات العشوائية؟

أين أقضى هذا الوقت؟ أليس عند هذا الدكتور حجرة لأمثالى من الرعية التى لا تستطيع أن تحضر فى الموعد إلا حسب الاحتمالات اللوغاريتمية للمواصلات العشوائية؟

لا حظت أن عقلى بدأ يعمل بدقة، هكذا وحده، أبعد هذه الأجازة الطويلة يصحو فجأة بعد أن كاد أن يكمن باعتباره لم يعد صالحا للاستعمال الآدمى؟ هل هى صحوة الخوف من المجهول؟ هل زال الكابوس تلقائيا. .؟

تركت لقدماى العنان مثل أيام زمان، وكان عقلى قد كف عن الفرجة والفلسفة والنظريات، كما كف عن التفكير أصلا، وربما عن الإحساس اليومى حتى بلمس الأشياء، لم تأخذنى قدماى بعيدا فانحرفت إلى أقرب مقهى بلدى ذكرنى بأيام تجوالى فى حوارى سوق السلاح والسيدة، طلبت شايا" كشريا" مثل أيام زمان، أخذت اتأمل مَنْ حولى ممن يشدون فى أنفاس الشيشة أو الجوزة فى هدوء وإتقان، أو يرتشفون المشروبات الساخنة فى تأن وتأمل، ذكرونى بعلاقة غريب زمان بفنجان القهوة، الوجوه تغيب بين الدخان والبخار ثم تظهر فى وضوح هادئ، لا حظت أن عقلى بدأ يعمل بدقة، هكذا وحده، أبعد هذه الأجازة الطويلة يصحو فجأة بعد أن كاد أن يكهن باعتباره لم يعد صالحا للاستعمال الآدمى؟ هل هى صحوة الخوف من المجهول؟ هل زال الكابوس تلقائيا، .؟ رجعت إلى القدرة على التأمل الدقيق والتربيط، يبدو أن مفعول هذا"المستشار" أكيد حتى شفانى "على الريحة"، لعل عدم السماح بالانتظار فى عيادته هو جزء من التمهيد للعلاج الذى أتى بهذه النتيجة قبل أن يبدأ، استعاد عقلى نشاطه وقدرته على الربط بين الأحداث، حاولت أن أتذكر بعض المواقف التى كان يخيل إلى أنها قد غرقت فى طوفان النسيان، نجحت بشكل ملحوظ، إلا أن أياما وأسابيع قد اختفت برمتها تحت القاع، نظرت إلى كوب الشاى الذى يكاد ينتهى وابتمست، يا سلام!! منذ زمن لم أبتسم هكذا، رجع عقلى الساخر إلى نشاطه الحاد اللاذع حتى صور لى أن فى هذا الشاى مادة كيميائية تغسل الصدأ الذهنى، وأن كوبا آخر يمكن أن يتيح لى أن أفتح بقية خزائن عقلى، ثم خطر ببالى أن أغمس فى الشاى مفتاح الشقة الذى طالما عاكسنى وأنا أفتح الباب إلى درجة كنت أخشى معها أن يلحقنى الأستاذ غريب على السلم وأنا على غير استعداد للقائه، لمحنى الجالسون

رجع عقلى الساخر إلى نشاطه الحاد اللاذع حتى صور لى أن فى هذا الشاى مادة كيميائية تغسل الصدأ الذهنى

هأنذا أكتشف أخيرا أن لى عقلين على الأقل، واحد علنى يتكلم مع الناس وليكن اسمه "عقلي"، والآخر يتكلم فى الخفاء وسوف أطلق عليه"عقل بالى" مثلما كنا نقول صغارا

وأنا أهم بوضع المفتاح فى بقايا الشاى فتراجعت سعيدا بعودتى، فلتبق تلك الخزائن المجهولة مغلقة ما شاء لها الصدأ، وليرجع عقل بالى إلى نشاطه السرى الساخر حتى لو أصيب بالفلسفة، هأنذا أكتشف أخيرا أن لى عقلين على الأقل، واحد علنى يتكلم مع الناس وليكن اسمه "عقلي"، والآخر يتكلم فى الخفاء وسوف أطلق عليه"عقل بالى" مثلما كنا نقول صغارا، يبدو أن هذا الحل السعيد يمكن أن يسهل على ما سبق أن حيرنى لما تبينت أن هناك صدقين، وكذبين، وخوفين، وحبين فأكثر تفسير مباشر، كل ذلك لأن لى عقلين على الأقل، يا حلاوة!! عقلى وعقل بالى، كنت أعلم من بعض قراءاتى القديمة أن المحللين النفسيين، مثل هذا المستشار الذى أنتظر لقاءه، يتكلمون عن الشعور واللاشعور فهل يا ترى أيهما يكون الشعور؟ وأيهما يكون اللاشعور؟ اللاشعور على حد علمى لا بد وأن يكون غير مشعور به (!!) وأنا شاعر بكل من العقلين بلا خلط ولا تردد، وفى نفس الوقت، لا بد أنى أتميز عن الناس بهذين الشعورين ياعم نصحى، كل الناس لهم "شعور" "ولاشعور" وأنا لى شعورين، فأيهما سوف يعالجه محللك المستشار يا عم نصحى، خصوصا وأنه فى الغالب مسكين مثلك ليس عنده إلا شعور واحد فقط؟! من يدرى؟ كلها ربع ساعة، ونرى.

عقلى وعقل بالى، كنت أعلم من بعض قراءاتى القديمة أن المحللين النفسيين، مثل هذا المستشار الذى أنتظر لقاءه، يتكلمون عن الشعور واللاشعور فهل يا ترى أيهما يكون الشعور؟ وأيهما يكون اللاشعور؟

نظرت إلى الساعة فوجدت أن الميعاد قد اقترب وحمدت الله أن يقظتى قد تمت قبل اللقاء الموعود حتى أستطيع أن أجتاز هذا الامتحان القادم بنجاح مناسب، وحمدت الله أكثر أنى انتبهت لهذه الصحوة قبل الكشف، حتى لا تختلط علىّ الأمور أكثر، فأحسب أن ذلك من مزايا التحليل النفسى وآثاره، ربما تمت الإفاقة خوفا من التحليل قبل التحليل، هذا فضل على كل حال، خشية اللقاء هى التى أجبرت عقل بالى على النشاط فجأة، ثم تابعه عقلى، أنا استطيع الآن

أن اسمّع جدول الضرب، ولا بد أنى أستطيع أن أؤدى عملى بكفاءة تختفى معها تأشيراتك يا أستاذ نصحى، ومن ثم تلميحاتك بالرفت إذا أنا لم أعالج،

ما فائدة أن أذهب إلى هذا المستشار بعد هذه الإفاقة؟ إجراء لن يُخَسِّر، أنا دفعت الكشف، من حقى أن أمارس قدرا من حب الاستطلاع، والأهم من كل ذلك إسكات الأستاذ نصحى، أسرعت الخطى حتى دققت الجرس فى نفس اللحظة التى فتحت لى فيها الباب، لعلها سمعت وقع أقدامى، يبدو من منظرها أنها ربة هذا المكان وليست ممرضة أو مساعدة، أدخلتنى إلى الصالون مباشرة، ناولتها ورقة الحجز محرجا بناء على طلبها، قالت لى دقيقة من فضلك وانصرفت.

لا يوجد غيرى فى المكان، شككت فى وجود الدكتور المحلل، هل أنا فى عيادة أو فى منزل؟ هذا الصالون وتلك التحف توحى أن هذا منزله وأن هذه السيدة زوجته، شعرت بالراحة قليلا حين أحسست أننى فى بيت، لابد أن ساكنى هذا البيت من البشر العاديين، لكن ما هذا الصمت الذى لا يقطعه إلا بندول ساعة الحائط فى الصالة، صوت البندول يقطع الصمت فى أول الأمر إلا أنه يضاعفه بعد حين، أو لعلنى فى مدفن مثل مدافن الناس الأكابر تخليدا لتقليد قدماء المصريين، كله جائز.

مع دقة ساعة الحائط فى الصالة، حضرت السيدة الفاضلة تدعونى إلى الدخول، لم أعد أطيق كل هذا النظام والدقة، راحت يداى تهتز مثل البندول وأنا أتجه إلى حجرة المكتب، تذكرت جلستى فى القهوة البلدى منذ قليل وكيف عاد لى عقلى يحسب ويفكر ويعلق، وتعجبت للفرق بين الموقفين، تساءلت: ترى لو أنى دخلت إلى هنا مباشرة هل كنت سأصحو هذه الصحوة؟

اللاشعور على حد علمى لا بد وأن يكون غير مشعور به (!!) وأنا شاعر بكل من العقلين بلا خلط ولا تردد، وفى نفس الوقت، لا بد أنى أتميز عن الناس بهذين الشعورين

لا يوجد غيرى فى المكان، شككت فى وجود الدكتور المحلل، هل أنا فى عيادة أو فى منزل؟ هذا الصالون وتلك التحف توحى أن هذا منزله وأن هذه السيدة زوجته

المكتب جميل رقيق، والرجل يشبه المكتب كأنهما صنعا معا، كان جالسا فقام بنصف وقفة، لم يمد يده وإن كان أومأ برأسه نصف إيماءة، وابتسم لى نصف ابتسامة، كل شىء "نصف" حتى ضوء الحجرة، هى أيضا نصف مضاءة، مازلت مأخوذا بالنظام والنظافة والصمت والدقة، جلست قبالته عبر المكتب، قشعريرة تسرى فى جسدى رغم جو الحجرة المكيف، حاولت أن أستقرئ وجهه فلم أستطع، كل شىء بالحساب مثل الموعد والصمت وحركة بندول الساعة، يداه أيضا تتحركان بالحساب، وحتى تجاعيد وجهه مرسومة بالحساب، هبت على ريح الشمال الباردة، وتذكرت أدب الأستاذ نصحى ورقته التى تبعث الشك، لابد أن هناك علاقة بين هذا المكان وبين ما آل إليه الأستاذ نصحى من رقة ناعمة مثلجة، لم أحتر هذه المرة فى تحديد الموطن الأصلى لهذا المستشار الدكتور المحلل مثلما احترت سابقا مع زميله العصبى، أستطيع أن أجزم أنه من سلالة مستوردة من النرويج على وجه التحديد، النرويج دون أى بلد من بلاد الشمال الباردة، أما لماذا النرويج، فلأنى لا أعرف عنها شيئا.

المكتب جميل رقيق، والرجل يشبه المكتب كأنهما صنعا معا، كان جالسا فقام بنصف وقفة، لم يمد يده وإن كان أومأ برأسه نصف إيماءة، وابتسم لى نصف ابتسامة، كل شىء "نصف" حتى ضوء الحجرة، هى أيضا نصف مضاءة

كل شىء بالحساب مثل الموعد والصمت وحركة بندول الساعة، يداه أيضا تتحركان بالحساب، وحتى تجاعيد وجهه مرسومة بالحساب

انتظرت فترة طويلة بعد أن أخذ اسمى وعنوانى ومعلومات مستفيضة مثل الأستاذ الدكتور النطاسى السابق وزيادة، سأل عن عدد إخوتى وترتيبى بينهم ونوع رضاعتى، كدت أضحك إذ كيف أتذكر نوع رضاعتى إلا إن كان يقصد عبث خيالى بفردة اليمامة اليسرى لزميلتى آمال، ساد الصمت برهة حتى كدت أستأذن فى الانصراف إلا أنى نظرت فى ساعتى ووجدت أنه لم يمض سوى دقائق محدودة، مازال من حقى، وربما من واجبى أن أبقى، ماذا أفعل فى المدة الباقية يا ترى؟.

قطع هو الصمت مشكورا بصوت يكاد يخرج من بطنه، كان وجهه يحمل نفس التعبير طول الوقت، فلا بد أنه يتكلم من بطنه فعلا، قال فى هدوئه الدمث.

– الآن تفضل,عليك الدور، تكلم، .. هات ما عندك.

قطع هو الصمت مشكورا بصوت يكاد يخرج من بطنه، كان وجهه يحمل نفس التعبير طول الوقت، فلا بد أنه يتكلم من بطنه فعلا

قلت فى دهشة.

– ماذا أقول؟ ؟

– قل ما بدا لك.

(رد عقلى بالى فجأة، وهو يلعب حاجبيه: "إحنا رجالك").

إلا أن عقلى رد فى رزانه.

– أرسلنى الأستاذ نصحى عبد الصادق لما لاحظ كثرة نسيانى حتى أثر ذلك على عملى، وهو رئيسى المباشر، ولكنى استعدت ذاكرتى منذ قليل والحمد لله.

خيل إلى أنه كان يعرف الأستاذ نصحى كما تصورت، لاحظت ذلك من خلجاته حين مر الأسم على سمعه ومضى يسألنى.

قال عقلى.

– متى استعدتها.

– استطعت أن أتغلب على أكثر مشاكلى فجأة، بعد أن كادت تهدد مستقبلى.

– قبل الحضور مباشرة.

قال فى ثقة.

سأل فى ثقة.

– أنت تحاول أن تقاوم العلاج منذ البداية

– هل أنت خائف، ..؟

(قال عقلى بالى سرا:" بل أنت الخائف")

قال عقلى.

– استطعت أن أتغلب على أكثر مشاكلى فجأة، بعد أن كادت تهدد مستقبلى.

قال فى ثقة.

– أنت تحاول أن تقاوم العلاج منذ البداية

(قال عقل بالى فى صمت وهويتذكر بعض القصص والنوادر، "هكذا خبط لصق"؟؟)

قال عقلى.

– فى الواقع أنا لا أعرف شيئا عن العلاج.

قال فى هدوء.

– أنت مصاب بفقد الذاكرة للأشياء التى لا يريد عقلك الباطن أن يتذكرها.

(قال عقل بالى "وأنت إيش عرفك بالباطن والظاهر" يا جهبذ !!!).

قال عقلى.

– لقد أدركت سر أخطائى.. وكان طمعى فى تسامح الأستاذ نصحى يجعلنى أتمادى فى الإهمال، هذه هى الحكاية.

استمر فى غير كلل.

– إذن فهى مسألة إدارية.

(قال عقل بالى: "بل، ... ميتافيزيقية وأنت الصادق").

قال عقلى.

– تقريبا، حتى اسأل الأستاذ عبد الصادق.

سكت فترة وكأنه يفكر، ثم بدا هادئا غير مكترث، ..

– على كل حال نحن تعارفنا وأنا تحت أمرك، وقتما تشعر أنى أستطيع مساعدتك.

(قال عقلى بالى: "قلنا حانبنى، وادى احنا بنينا السد العالي").

قال عقلى:

– شكرا وآسف لإزعاجك ولكنى أريد بعض الاستفسارات عن طريقة العلاج.

قال عقلى.

– فى الواقع أنا لا أعرف شيئا عن العلاج.

قال فى هدوء.

– أنت مصاب بفقد الذاكرة للأشياء التى لا يريد عقلك الباطن أن يتذكرها

سكت فترة وكأنه يفكر، ثم بدا هادئا غير مكترث، ..

– على كل حال نحن تعارفنا وأنا تحت أمرك، وقتما تشعر أنى أستطيع مساعدتك

قال فى وضوح:

– تأتى فى الميعاد وتستلقى على هذه الأريكة لمدة خمسين دقيقة، وتقول ما يخطر على بالك، ويتكرر ذلك مرتين أو ثلاثا أسبوعيا حتى تشفى.

(قال عقل بالى: "ياليتنى أنام الآن، أريد أن أجرب هذه اللعبه الجديدة، .)

وافق عقلى... فأعلنها بنفس الألفاظ لكنه توقف عند "أجرب"...

وافقنى الدكتور أيضا فأعجبت بديمقراطيته وصبره.

.....

تمددت على أريكة لم أنم على مثلها فى حياتى، لست أدرى هل هى من ريش النعام أو من الكاوتشوك وارد الشواربى... استرخت عضلاتى وكدت أهزها إلى أعلى وإلى أسفل كما كنت أفعل حين نمت أول مرة على سرير "بملة"، طال الصمت حتى كدت أستغرق فى النوم.

جلس هو على كرسى خلف رأسى بعيدا عن مستوى نظرى، اضطررت أن أقطع الصمت لما بدأت أحس بالتوتر من هذا الوضع الشاذ.

– هل أتكلم وأنا نائم هكذا، ماذا أقول؟

– أى شىء يخطر ببالك، ..

(قال له عقلى بالى: "يا نهار أسود، هل تعنى ما تقول فعلا، لكننى أنا الذى سأدفع الثمن: الطرد أو السجن أو الرفت أو النفى، أيها أسرع).

خطر لى أنى لو تكلمت هكذا وأنا نائم فإن الكلام لابد أن ينزل فى قدمى كما كانوا يحذروننا من الشرب – صغارا – ونحن مستلقين، .. ولكن ربما كانت هذه هى الطريقة الحديثة للعلاج: أن ينتقل الكلام الزائد من رأسك إلى قدميك حسب

شكرا وآسف لإزعاجك ولكنى أريد بعض الاستفسارات عن طريقة العلاج.

قال فى وضوح:

– تأتى فى الميعاد وتستلقى على هذه الأريكة لمدة خمسين دقيقة، وتقول ما يخطر على بالك، ويتكرر ذلك مرتين أو ثلاثا أسبوعيا حتى تشفى.

تمددت على أريكة لم أنم على مثلها فى حياتى، لست أدرى هل هى من ريش النعام أو من الكاوتشوك وارد الشواربى

نظرية الأوانى المستطرقة، وبذلك تثقل رجلاك ويصفو رأسك فى نفس الوقت، فتصبح "ثقيلا" و"راسيا" وكلاهما مرادف للعقل أو للدلال حسب مزاج سعاد حسنى، يا واد يا تقيل، أو حسب تعليمات مقتفى الأثر، ..

قطع المحلّ على اكتشافاتى السرّية الجديدة قائلا، ..

– فيم تفكر الآن؟

رد عقلى مباشرة بما يشغله هذه اللحظة وقد كان شيئا آخر غير شطحات عقل بالى (يبدو أن العقلين يمكن أن يفكرا فى نفس اللحظة).

– فى تكاليف العلاج.

لم يرد على الفور، هممت أن أرد أنا مع أننى أنا الذى ألقيت السؤال، همس لى عمل بالى: هو الذى سبق أن قال: "أنت تنسى مالا تريد تذكره"، رأيت كيف أنا لا أريد أن أتذكر تكاليف العلاج، ومع ذلك لم أنسها، خاب ظنك سيدى اللورد، هأنذا أسألك عن ماوددت ألا أعرفه.

فوجئت بأنه رد أخيرا:

– كل جلسة مثل الكشف، ولكن المهم هو الجدية والالتزام، ..

قفزت من فوق الأريكة كالملدوغ وقد تأكدت من عودة جدول الضرب إلى ذاكرتى

– أربعة وعشرون (2)جنيها فى الشهر، ؟

(ذكرنى عقل بالى بأن مرتبى يزيد عن ضعف هذا المبلغ بقليل)،

قال فى هدوء .

– هذا إذا حضرت مرتين فى الأسبوع فقط.

جلس هو على كرسى خلف رأسى بعيدا عن مستوى نظرى، اضطررت أن أقطع الصمت لما بدأت أحس بالتوتر من هذا الوضع الشاذ.

– هل أتكلم وأنا نائم هكذا، ماذا أقول؟

– أى شىء يخطر ببالك

فيم تفكر الآن؟
رد عقلى مباشرة بما يشغله هذه اللحظة وقد كان شيئا آخر غير شطحات عقل بالى (يبدو أن العقلين يمكن أن يفكرا فى نفس اللحظة).
– فى تكاليف العلاج

قلت فى انزعاج.

– هذا إذا كان الشهر أربعة أسابيع فقط.

(لعب عقل بالى حاجبيه وأخرج لسانه لأنه خدعنى وتكلم هو نيابة عن عقلى).

استمر عقلى وهو يستعبط وكأنه ليس هو،

قال:

– آسف لابد أن أدبر أمورى أولا.

قال فى ثقة وتفهم:

– وأنا آسف كذلك، ولكنى لا أستطيع خداع الناس، أو ظلم نفسى، وعلى أى حال إذا كنت جادا فى العلاج فسوف أضع ظروفك الاقتصادية فى الاعتبار.

(قال عقل بالى:" لا تقل له إننا اثنان، حتى لا يطلب ضعف الأتعاب).

يبدو أننى قلت بعض الجملة الأخيرة بصوت مرتفع سمعه الدكتور فحسب أننى أوجه له الحديث وقد كنت جالسا على الأريكة بعد لدغة العقرب، وكان هو مازال جالسا على كرسيه فى اتزان يرسل إلى نسمات من ريح بلاد النرويج، ..

قال:

– عفوا؟ ؟

قلت معتذرا:

– لا، أبدا، كنت أختبر قدرتى الحسابية ووجدتها على ما يرام،

قال متفهما:

– ما عليك لم تكن تنوى من البداية، فضلا عن الاستمرار،

فوجئت بأنه رد أخيرا:

– كل جلسة مثل الكشف، ولكن المهم هو الجدية والالتزام،

قفزت من فوق الأريكة كالملدوغ وقد تأكدت من عودة جدول الضرب إلى ذاكرتى

– أربعة وعشرون (2) جنيها فى الشهر، ؟

(قال عقل بالى: لابد أن له عقل بال ينبئه بنوايا الناس)،

قال عقلى:

– أنا عاجز عن الشكر، ولن أنسى لطفك ما حييت.

قال مودعا فى رقة حقيقة:

– أنا تحت أمرك، ليس عندى شك أنك سوف تجد طريقك، ولكن أرجوك أن تقدر طبيعة عملى.

شكرته واحترمت صدقه واعتزازه بمهنته وانصرفت مطمئنا بعد أن مد لى يده بالتحية، إذ يبدو أنه لا يسلم إلا مودعا إلى غير رجعة.

قبل أن أغادره لمحت وراء وجهه الأملس إنسانا رقيقا وربما محتارا مثلى، كانت الساعة "إلا عشرة"، خرجت مندفعا، خشيت أن أخل بالنظام، قابلت على السلم رجلا منمقا لامعا يتمهل الصعود خطوة خطوة، أغلب الظن أنه صاحب الموعد التالى، وأنه يتباطأ حتى لا يصل قبل خروجى، أحسست من رائحة العطر التى تفوح منه لتملأ السلالم، ومن مدى أناقته وهدوء خطواته، أنه الرجل المناسب للمكان المناسب، كما طاف بخيالى منظر وأناقة الأستاذ عبد الصادق، لكن هذا الخيال لم يمكث سوى ثوان، وأنا؟ أين مكانى المناسب؟ ربما فى القهوة البلدى أو فى السجن، أو فى مستشفى المجاذيب، المؤكد أنه ليس هذا المكان، يبدو أن الأستاذ نصحى حين أرسلنى إلى هنا كان يظن أنى مستور أو ابن ناس بشكل ما، ..، أو يبدو أنه تصور أن حديثى عن بلدنا أحيانا يعنى ثراء ريفيا يسمح لى بهذه المغامرة، إن كل ما أتلقاه من أمى هو بعض "الزيارات" العينية التى تعيننى على غلاء الأسعار، ولا أظن أن هذا المستشار يرضى أن أدفع له أتعابه بقدر من "البيض" أو " أقراص الكعك" مثلما كنا نفعل زمان مقابل الحلاقة.

قال عقلى:
– أنا عاجز عن الشكر، ولن أنسى لطفك ما حييت.
قال مودعا فى رقة حقيقة:
– أنا تحت أمرك، ليس عندى شك أنك سوف تجد طريقك، ولكن أرجوك أن تقدر طبيعة عملى

قبل أن أغادره لمحت وراء وجهه الأملس إنسانا رقيقا وربما محتارا مثلى، كانت الساعة "إلا عشرة"، خرجت مندفعا، خشيت أن أخل بالنظام، قابلت على السلم رجلا منمقا لامعا يتمهل الصعود خطوة خطوة، أغلب الظن أنه صاحب الموعد التالى

ما علينا، رجعت إلى لعبتى القديمة وسوف أدبر أمورى ثانية بعدما تأكدت أن لى عقلين وشعورين، كل المطلوب هو أن يلتزم كل منهما باختصاصاته حتى لا تعود الأمور إلى الاضطراب، ليختص عقلى بالمكتب والأعمال المنزلية، وللعقل الآخر الفرجة والفلسفة واختراع النظريات والخيال الجامح، جاءت سليمة هذه المرة والحمد لله.

* * *

– حمدا لله على السلامه يا عبد السلام، هكذا وإلا فلا.

– الله يسلمك يا أستاذ نصحى البركة فيك.

– هكذا تتحقق النتائج بأسرع مما حسبتُ، ولكن حذار أن تنقطع عن الذهاب، وإلا كنت مثل الراقصين على السلم.

أية نتائج، وأى سلم يا رجل؟ لن أحدثك عن شئ، وسأدعك سعيدا بأوهامك.

– ربنا يسهل يا أستاذ نصحى.

– أنا تحت أمرك ومادمت قد سمعت النصيحة فسأقول لك سرا، لقد كنت أنا الذى ذهبت إليه للتحليل والعلاج، وليس صديقى.

نظرت إليه، ولم أحاول أن أعقب حتى لا تفلت منى أننى كنت عارفا تقريبا، فمضى يؤكد بلهجة أقرب للزهو:

– وبالتحليل وبالتفسير تخطيت كل الصعاب،

لم أستطع أن أمنع نفسى من الرد هذه المرة متعجبا.

– كل الصعاب؟؟

– حللت كل العقد، وفهمت مدى الكبت الذى كنت أعانيه منذ الطفولة حتى أصبحت "هكذا".

سوف أدبر أمورى ثانية بعدما تأكدت أن لى عقلين وشعورين، كل المطلوب هو أن يلتزم كل منهما باختصاصاته حتى لا تعود الأمور إلى الاضطراب، ليختص عقلى بالمكتب والأعمال المنزلية، وللعقل الآخر الفرجة والفلسفة واختراع النظريات والخيال الجامح

مضى يؤكد بلهجة أقرب للزهو:
– وبالتحليل وبالتفسير تخطيت كل الصعاب،
لم أستطع أن أمنع نفسى من الرد هذه المرة متعجبا.
– كل الصعاب؟؟

كدت أسأله "هكذا، ..ماذا، يا هذا؟ " لكنى آثرت السلامة،

* * *

استطعت فى الأيام التالية أن أنظم أمورى أثناء النهار، أما فى الليل فما زالت المعارك تنتظرنى، مع كل مساء امتحان صعب، يبدأ أول الليل ونادرا ما أنجح فيه، ولكن نادرا ما يعلن فشلى فيه أيضا، كنت أذكى من أن أترك الأمور تخرج من يدى، المعارك مستمرة مع الهوام والوحوش متى ما غلبنى النعاس، وحين يشتد الصراع بلا حول لى ولا قوة يصبح النوم أملا وتهلكة فى نفس الوقت – أظل يقظا حتى الصباح خوفا من أن أفقد عقلى إذا أنا أغلقت عينى.

يبدو أننى حين حاولت أن أشرح حالتى أكمثر للأستاذ نصحى استعملت بعض التعبيرات التى كانت تدور بداخلى، وكان عادة يتعجب، ثم قاطعنى ذات مرة قائلا:

أنت تسمى الأشياء بأسماء غريبة، إنها حالة نفسية اسمها القلق...

– هل أنت متأكد من أن اسمها "القلق"؟

– طبعا، وهى من الأمراض العصابية الناتجة من الصراع بين "الأنا والهو"...

"يانهار أسود" ذهبت إلى المختصين فلم يذكروا لى كل هذا العلم، ولكن الأستاذ نصحى شىء آخر، لابد أن هذا الـ "أنا"، هو عبد السلام المشد، وأن الـ "هو"، هو "عقل بالي"، ولكنى شخصيا لست عبد السلام المشد، "والهو" ليس عقل بال شخص مجهول الأصل والهوية، ثم إنه ليس "هو" واحد ولكنه عشرة أو عشرون أو مائة، ما هذا يا أستاذ نصحى، إسمح لى يا رئيسى العزيز: الله يخيبك، أسكتُّ عقل بال بحسم وسألت مباشرّ.

حللت كل العقد، وفهمت مدى الكبت الذى كنت أعانيه منذ الطفولة حتى أصبحت "هكذا".

كدت أسأله "هكذا، ..ماذا، يا هذا؟ " لكنى آثرت السلامة

ثم قاطعنى ذات مرة قائلا: أنت تسمى الأشياء بأسماء غريبة، إنها حالة نفسية اسمها القلق...
– هل أنت متأكد من أن اسمها "القلق"؟
– طبعا، وهى من الأمراض العصابية الناتجة من الصراع بين "الأنا والهو"...

– من أين لك بهذا اليقين يا أستاذ نصحى؟

– من خبرتى من التحليل وقراءاتى، ثم دراستى فيما بعد.

– هل تدرس حضرتك ما أنا فيه الآن؟

– يعنى، لقد أنهيت الليسانس وأحضر الآن الماجستير.

– وهل تترك التجارة والمحاسبة.

– ليس بالضرورة.

ترى هل يراد لى نفس المصير، أن أقلب كل مشاعرى هذه إلى أسماء وتحاليل ولافتات تلغى كل شىء حين تضعه تحتها؟ هل هذا هو الطريق لذلك العلاج المقترح؟ وهل لابد من الدراسة بنفس الحماس والتعصب؟

– هل لابد من مثل هذه الدراسة، حتى أشفى يا أستاذ نصحى؟

– لا، أبدا، هى مجرد هوايتى الخاصة.

حمدت الله أن جهلى حمانى من دراسة هذا التحليل النفسى الذى يبدو أنه أصبح من هوايات العصر الحديث، ما للتحليل النفسى وقيام القيامة؟ سمعت عن العقد والشعور بالنقص، ما أنا فيه ليس له علاقة بكل هذا، ليس له اسم، إنه انفجار مدمر تضيع فيه المعالم وتختلط الأسماء، ليس فيه نشاط معروف إلا الفرار، حيث يفر المرء من كل حوله، أمه وأبيه، صاحبته وبنيه، الفرار الفرار يا غريب ويا صبحى أفندى ويا كل الناس، أنا لا يعنينى إلا ما أنا فيه، وهو ما لا أستطيع تحديده، ما إن أخرجت الأرض أثقالها حتى تطايرت أفكارى كالحمم وغلت عواطفى كالبركان التدميرى، ترى هل عند نصحى أو محلله أو أى كائن كان اسم مناسب لهذا الذى حدث يوم "إيصال النور"؟ يوم نفخ فى الصور؟ مزيد من الاستفسار لن يضر.

حمدت الله أن جهلى حمانى من دراسة هذا التحليل النفسى الذى يبدو أنه أصبح من هوايات العصر الحديث، ما للتحليل النفسى وقيام القيامة؟

سمعت عن العقد والشعور بالنقص، ما أنا فيه ليس له علاقة بكل هذا، ليس له اسم، إنه انفجار مدمر تضيع فيه المعالم وتختلط الأسماء، ليس فيه نشاط معروف إلا الفرار، حيث يفر المرء من كل حوله، أمه وأبيه، صاحبته وبنيه، الفرار الفرار

– هل يشمل ما تسميه القلق يا أستاذ نصحى أن ينقلب كيانك كله وتزدحم رأسك بالأسئلة مثل النافورة التى تقذف ماء النار؟

– نعم هو القلق، لكن وصفك له هو الغريب.

قلت فى تسليم ظاهر، ..

– قلق، أرق، كله مثل بعضه، أشكرك على اهتمامك.

– لا شكر على واجب يا عبد السلام، نحن زملاء، أصدقاء.

تراجعت عن التسليم ورجعت أسأل فى تخابث:

– أنت خير صديق، وأطيب رئيس يا أستاذ نصحى، هل يمكن أن تخبرنى كيف سيكون حالى حين يأخذ الله بيدى، كيف سأكون أنا؟

قال فى فخر وثقة .

– ربما ساعدك الحظ وأصبحت مثلى.

أخرج لى عقل بالى لسانه فى شماته وغنى:

"تعالى يا شاطر، نروح القناطر".

قلت لعقل بالى.

"إخرص يا غبى قد يسمعك"

رد عقل بالى:

= لا تخف، إنه لا يسمع ولا يرى ولا يحس،

= إنه رزين عاقل، .. وأنت تغار منه يا أرعن،

= إنه أسطوانة مشروخة لن أسكت حتى أكسرها.

= إخرس يا قاتل، أنا أعرف جبنك.

أنا لا يعنينى إلا ما أنا فيه، وهو ما لا أستطيع تحديده، ما إن أخرجت الأرض أثقالها حتى تطايرت أفكارى كالحمم وغلت عواطفى كالبركان التدميرى

أحسبها فأجدنى سأتوقف فى أول الطريق، أحاول أن اتغلب على صعوبات الليل بالصبر والتدخين، وعلى صعوبات النهار "بالفرجة" واصطناع الفلسفة

= أنا لست قاتلا، أنا أحاول أن أريك الحقيقة.

= أية حقيقة؟ لقد أحس بى ونصحنى بالذهاب إلى المختص.

= لما كثرت التأشيرات الحمراء وابتدأ المدير فى لومه.

= بفضل نصيحته تحسنت الأحوال وتحسن أدائى الوظيفى.

– لم لا يكون هذا بفضل الشاى الكشرى، لا بفضل صاحبه المحلل النرويجى.

– يهيئ الأسباب.

لم أسمح بالتمادى فى هذا النقاش العقيم خاصة بعد أن لعب لى عقل بالى حواجبه وهو يهم بتسفيه الأسباب ومهيئها، خشيت أن يسألنى، من هذا الذى يهيئها.

دأبت بعد ذلك أن أوثق أواصر الصداقة بينى وبين الأستاذ نصحى، وكأنى أحتمى به من عقل بالى، يستقبل الأستاذ نصحى ذلك بترحاب شديد، ويسألنى بين الحين والحين إن كنت مازلت أذهب إلى صاحبه، فلا أستطيع إلا أن أكذب عليه بطريقة تحتمل الصدق، فأشير من طرف خفى إلى أن هذه – على العموم – أسرار لا يصح التحدث فيها إلا بعد الشفاء، أعجب بقدرته على التصديق والتمادى فى استعمال هذه اللغة طول الوقت، أتعجب من مثابرته وإيمانه بهذا الذى يقول وأحاول أن أجد فيه ما يغرينى على بيع حلى زوجتى لأخوض هذه التجربة كاملة بشكل ما، أحسبها فأجدنى سأتوقف فى أول الطريق، أحاول أن اتغلب على صعوبات الليل بالصبر والتدخين، وعلى صعوبات النهار "بالفرجة" واصطناع الفلسفة، صحبة الأستاذ نصحى أصبحت مصدرا جديدا للتأمل والتعجب، كانت محاولاته لإقناعى بالاستمرار لا تتوقف وهو يشرح لى أسرارا

كانت محاولاته لإقناعى بالاستمرار لا تتوقف وهو يشرح لى أسرارا جنسية تتصل بحكايات إخريقية عن ملك اسمه أو ديب، وواحدة أخرى لا أذكر اسمها

هو يتكلم عن جسم المرأة بطريقة غريبة إذ يقول أنه رمز للقضيب لأن البنت تحسد الولد على أن له قضيبا، وتثور أعماقى حين أتصور جسد البنت قضيبا، هذا علم جديد به قدر مريع من المسخرة اللذيذة!!

جنسية تتصل بحكايات إغريقية عن ملك اسمه أو ديب، وواحدة أخرى لا أذكر اسمها، وهو يتكلم عن جسم المرأة بطريقة غريبة إذ يقول أنه رمز للقضيب لأن البنت تحسد الولد على أن له قضيبا، وتثور أعماقى حين أتصور جسد البنت قضيبا، هذا علم جديد به قدر مريح من المسخرة اللذيذة!!

كان الأستاذ نصحى ينسى أو يتناسى أنى أوهمه بالذهاب إلى ذلك المحل فيأخذ فى ممارسة هوايته فى التفسير والتأويل، ذات مرة حاول أن يسألنى عن أحلامى فلما ألمحت له عن معارك الوحوش لم يعر الأمر اهتماما، ولكن حين ظهرت الثعابين فى الحلم قفز فى سعادة وكأنه وجد مفتاح القضية، فالثعبان "قضيب" بلا جدال، هكذا قال بيقين، تذكرت وأنا ابتسم كيف كنت فى طفولتى قد وقعت فى مثل هذا الخلط حين كنت أحس بأن قضيبى قطار الدلتا المار ببلدنا ليسا إلا ثعبانين لا أول لهما ولا آخر، ولما كبرت وواتتنى الشجاعة على لمسهما عرفت أنهما من الحديد، ولكنى أذكر أنى اضطررت للمشى عليهما أكثر من ساعة حتى أتبين أنهما لا يلتقيان مثلما كان يخيل إلى من بعيد، يومها كاد القطار يدوسنى وأنا منهمك فى محاولة إثبات أنهما ثعبانان يلتقيان فى مكان أبعد من مدى نظرى، هذه هى كل معلوماتى عن العلاقة بين الثعابين والقضبان، كنت أحيانا أخشى أن يفلت منى الزمام وأنا أستمع إلى الأستاذ نصحى وهو يقسم الناس إلى شخصيات "شرجية" وأخرى فميه، إلى آخر هذه التسميات العجيبه، أمنع خيالى بصعوبة أن يقفز منى وأنا أمام سيارة المدير "الشرجي"، أو وأنا أحدث أسعد أفندى "الفمي"، لعبة جديدة لا تخلو من طرافة.

لست أدرى لم خطر ببالى أن الأستاذ نصحى لو حاول التحقق من أوهامه بنفس الطريقة التى حاولت بها التحقق من أوهامى حول قضيب قطار الدلتا، إذن

ذات مرة حاول أن يسألنى عن أحلامى فلما ألمحت له عن معارك الوحوش لم يعر الأمر اهتماما، ولكن حين ظهرت الثعابين فى الحلم قفز فى سعادة وكأنه وجد مفتاح القضية، فالثعبان "قضيب" بلا جدال، هكذا قال بيقين

لداسه قطار آخر لا أعرف معالمه.

سألته فجأة:

– هل فى بلدكم قطار دلتا؟

أجاب فى دهشة:

– أى دلتا؟

قلت مستعبطا:

– دلتا النيل.

قفز عقل بالى فى عناد يعرض نظرية تتناسب مع مقتضى الحال: راح يثبت لى أن الوجه القبلى "ذكر" لأن النيل فيه فرع واحد، أما الوجه البحرى فهو أنثى – وماعليك إلا أن تنظر فى الخريطة لتتأكد من ذلك، وإذا كنت رجلا مثلى، من وجه بحرى فقد يعتريك الخجل، ثم قد تُسْتَفَزّ لتحاول إثبات رجولتك بالتاريخ الطبيعى مادامت الجغرافيا قد شرعت فى وجهك هذا الاتهام، لوح لى عقل بالى ساخرا بأن مشكلتى ربما تنتهى بطلب نقلى إلى الصعيد، ..!!

سألت الأستاذ نصحى عن ذلك، فأجاب فى استغراب:

– ولماذا الصعيد، ..؟

أجبت بإحراج بادى.

– أظن أنى معقد من قطار الدلتا من صغرى، حتى أنى أتصور أن حالتى ستتحسن لو انتقلت إلى الصعيد.

انتبه صبحى أخيرا إلى تزايد شطحى دون أن يعتبر ذلك سخرية أو استهانة بنظرياته، نصحنى بحدة، بالقدر الذى تسمح به رقته، أن أكمل العلاج وكان مازال يخيل إليه أنى بدأته أصلا، خجلت من التمادى فى لعبة الكذب،

كنت أحيانا أخشى أن يفلت منى الزمام وأنا أستمع إلى الأستاذ نصحى وهو يقسم الناس إلى شخصيات "شرجية" وأخرى فميه، إلى آخر هذه التسميات العجيبه

نصحنى بحدة، بالقدر الذى تسمح به رقته، أن أكمل العلاج وكان مازال يخيل إليه أنى بدأته أصلا

وأحسست أن الأمور كادت تفلت من سيطرتى مثلما كان الحال فى بداية البداية، وبدأت أتمادى فى الحذر عند الحديث معه، وكنت ألاحظ كثرة تعاطيه لبعض الأقراص فى أوقات غريبة وحين سألته عنها وعن شحوب وجهه أجاب أنها أقراص للهضم وحموضة المعدة ولا علاقة لها بالأعصاب، زاد فضولى لأعرفه أكثر بعيدا عن الكلام والنقاش والتحليل، لم أتوان عن تلبية دعوته لزيارته فى البيت والتعرف على أسرته الصغيرة، ذهبت وفى نيتى التى لم أعلنها أن أتأكد من نتائج هذا العلاج السعيد.

* * *

حين طلبت الانصراف لم يتمسك أحد ببقائى ادعاء لمزيد من الكرم والحفاوة، هكذا الحضارة وإلا، ... خرجت إلى الشارع أكاد لا أصدق أنه أطلق سراحى

فتحت لنا زوجته الباب بنفسها، سيدة نحيفة رقيقة تتحرك فى هدوء كأنهاتخاف على شعور الهواء وهى تخترقه، تعجبت من حضورى مع زوجها أو هكذا خيل إلى، إذ يبدو أن الزيارات تعتبر لديهم حدثا استثنائيا على حسب معلوماتى من حديثى معه، انحنت السيدة بأدب ظاهر ونظرت إلى الأرض، فغلبت الظن أنها تخجل من رفع عينيها فى وجهى من باب الحياء، إلا أن نظراتها تركزت على حذائى، أنقذ الموقف الأستاذ نصحى بأن تلكأ وهو يخلع حذاءه بجوار الباب ويرتدى أحد" المنتوفليات" القابعة تحت الشماعة فى واجهة الباب، ترددت مع أننى فهمت أن المطلوب هو أن أحذو حذوه ولكن ترددى زال حين انحنى وهو يقدم لى فردتى منتوفلى آخر بدا لى جديدا، قررت أن أنفذ التعليمات فى صمت وهو يكرر أنه ما فعل ذلك إلا لأنه يعتبرنى كأحد أفراد الأسرة، وأن المنزل منزلى، وعليه فإن من حقى، حسب تعبيره، أن أفعل مثله تماما، تلكأت أكثر خوفا من المفاجآت، فأنا لا أذكر متى غيرت الجورب، فعلتها أخيرا وأغمدت قدمى فى المنتوفلى بسرعة مناسبة يمكن أن تخفى أية روائح خاصة.

دخلت وكأنى أزور معبدا من معابد العصر التحليلى النفسى، قادنى إلى الصالون وهو سعيد بى سعادة التقاء زملاء السلاح فى الحياة المدنية، راح يحدثنى عن زوجته التى استأذنت بعد أن اطمأنت لإنهاء الطقوس اللائقة، انهال عليها بالمديح وهو يقوم بإضاءة أنوار وإطفاء أخرى حتى يحسن توزيع الضوء حسب جلستنا الموقوفة عن التنفيذ لحين حضورها، ترددت فى الجلوس فعلا تحت زعم أنى أنتظر حضور "المدام"، فمازالت عندى فكرة عامة عن الذوق، ولكنى فى الحقيقة كنت أخشى على "الكرسى الفخم" من بنطلونى، نبهنى عقل بالى أن آخذ حذرى حتى لا يطلب منى أن أخلع بنطلونى تحت زعم أن المنزل منزلى أيضا، عادت زوجته بالسلامة تخطو بنفس الرقة.

لم يعد فى مقدورى أن آمل فى أى حل من الحلول التى لاحت لى هنا أو هناك، نشاط عقل بالى الساخر كان يبالغ فى تشويه هذا المآل الذى انتهى إليه نصحى وعائلته

بدأنا الحديث عن الطرق الحديثة فى تنشئة الأطفال، بدا الأستاذ نصحى أقل حماسا وأكثر خوفا، وكان ينظر إلى زوجته مستأذنا أو متسائلا عن الخطوة التالية، وجهه يزداد شحوبا أو احمرار حسب إيماءاتها، كان حضور زوجته مثالا للصمت المثقف والذوق الرفيع معا، أخذت تشير إلى بعض محتويات الحجرة من تحف ولوحات وتذكر لى أسماء لا أعرفها، وحين ذهبت لتحضر "الليموناده "بنفسها كان الأستاذ نصحى يستدعى الأولاد للسلام علىّ والتعرف بى، أحسست أنى أستطيع أن أسحب نفسا عميقا من الهواء لأول مرة منذ دخولى وكأنى قد توهمت أن التنفس أيضا هنا بالحساب والأصول، ذكرنى الصمت المخيم على المنزل كله بذلك الصمت الذى شعرت به فى عيادة صديقه المحلل، وإن كانت زوجة المحلل أكثر حيوية ونشاطا وبساطة، تذكرت فكرة المدافن المصرية القديمة، وأحسست كأنى فى مقبرة عصرية فى وادى الملوك الجديد، وأخذت أنتظر تشريف الأمراء من وادى الملكات.

عادت السيدة الفاضلة تحمل أكواب الليمونادة فأغلب المشروبات والمأكولات لابد أن تصنع بالبيت كما قدرت، ثم عاد الأستاذ نصحى ووراءه ولدان متشابهان كأنهما توأمان لولا أن أحدهما أطول من الآخر، وعرفنى بهما " لمعى، وجميل"، انحنيا معا ثم استقاما وجلسا على طرف الأريكة وبدأ الحوار: هذايقول وذاك يرد، ثم يصدر صوت من أقصى القاعة، فيتردد الصدى فى الجانب الآخر ويبدو أن ذلك كان عرضا لنموذج من التربية الحديثة وآثارها، وحمدت الله أنهما انصرفا بسرعة، ونهرت عقل بالى خوفا من تعليقه.

أغلقت خلفى كل الأبواب منذ سمعتهم يغلقون بابه شقتهم ورائى، إذا كان الشفاء هو أن أدفن حيا فى إحدى مقابر الملوك العصرية، فيفتح الله.

زادت البرودة فى مفاصلى وانتقلت إلى كل جسمى وكأن رياح الشمال تهب من النرويج مباشرة فى أدب اسكندنافى، تمنيت لو أنهم يوزعون علينا بطانيات مثلما يفعلون فى برنامج الصوت والضوء فى ليالى الشتاء، الاختناق يزداد رغم رقة نسمات الهواء لكننى أجد صعوبة مع كل شهيق، هل لا بد أن يستأذن الهواء منهم قبل أن يدخل إلى صدرى؟ حين طلبت الانصراف لم يتمسك أحد ببقائى ادعاء لمزيد من الكرم والحفاوة، هكذا الحضارة وإلا، ..، خرجت إلى الشارع أكاد لا أصدق أنه أطلق سراحى.

قال عقل بالى فى شماته.

– هل صدقتى.

ثارت فى رغبة التحدى فقلت له:

– وأى عيب فى هذا البيت النموذجى، كفى عبثا وتذكر قصر ذيلك وخيبتك.

= إذن فأنت تريد أن تكون " هكذا" بإذن العلم والتحليل.

– لم لا؟ سوف أفعلها لو اضطررت يوما، أليس هذا أفضل منك ومما تخبئ لى؟ هو أفضل حتما من أن أعيش تحت رحمة شطحاتك وسخافاتك ومفاجآتك.

قال عقل بالى وقد بدا عليه أنه يخشى هذا الحل السعيد:

– أقتلك لو تفعلها، أو فى القليل سأعلن جنونك على الملأ، دعنا نستمر أصدقاء فى السر أفضل.

قلت فى شماتة نسبية.

– إظهر على حقيقتك، أنت وغد تضحى بكل شىء فى سبيل استمرار شطحك، حتى لو كان الثمن هو الجنون ذاته.

= الجنون أفضل من برامج الصوت والضوء المعادة فى مقابر البيوت الحديثة .

هذا الذى شممت رائحته عند الدكتور المستشار التحليلى ثم رأيته فى بيت الأستاذ نصحى لا يصلح لعلاج أمثالى ممن يقيمون فى المدينة كزائرين حتى لو مكثوا فيها قرونا دون الرجوع إلى قريتهم التى يحملونها معهم حيثما كانوا.

ثار غيظى وأنا أرد:

– أنا الذى أقتلك لو خرجت عن طوعى

= دعنا نمضى مثلما كنا: كل فى إختصاصه.

– ولكنك تتدخل فى اختصاصى أثناء الليل دون استئذان.

= الليل مملكتى أنا، وأنا أسمح لك بالتواجد فيها أحيانا.

قلت فى تحد:

– أنا وراءك والزمان طويل.

= أنت رجل طيب لا حول لك ولا قوة.

قلت فى عناد:

– أنا لا أقبل شفقتك، إحتفظ بها لنفسك ودعنى أراجع حساباتى.

لعب لى حاجبيه فهاجمنى صداع ثقيل.

* * *

لم تمض هذه الزيارة بسلام،

لم أعد أطيق سماع أحاديث الأستاذ نصحى وتفسيراته وتعليقاته، بالنسبة إلىّ بدالى أنه قد زادت تجاعيد وجهه كما شحب لونه أكثر، زادت رتابة صوته، لم أحاول أن أواجهه أو أجرح شعوره، ولكنى كنت دائم السؤال عن " لمعى،

وجميل، والمدام"، وكان هو مطمئنا بصفة عامة، طالما أنا أدعى الذهاب للعلاج. وكأنى أذهب نيابة عنه، .

* * *

لم يعد فى مقدورى أن آمل فى أى حل من الحلول التى لاحت لى هنا أو هناك، نشاط عقل بالى الساخر كان يبالغ فى تشويه هذا المآل الذى انتهى إليه نصحى وعائلته، أغلقت خلفى كل الأبواب منذ سمعتهم يغلقون باب شقتهم ورائى، إذا كان الشفاء هو أن أدفن حيا فى إحدى مقابر الملوك العصرية، فيفتح الله.

.....

أنا لا أستطيع الزعم أنه كان لدى أمل حقيقى فى التحليل أو غيره، تعمدت أن أنهر عقل بالى حتى لا ينفرد بى وأنا أفهمه ألا يبالغ فى التعميم، فلعل بيت الأستاذ نصحى فريد هو نتيجة لطباع مختلفة لم آلفها، ولا علاقة لها بالتحليل، رحت أعزو مقاومتى أن أسلم نفسى لعملية التجميل التحليلى هذه لاختلاف موطنى الأصلى، أنا لم أستطع أن أتخلص من قريتى بعد، أنا أحملها تحت جلدى، هذا الذى شممت رائحته عند الدكتور المستشار التحليلى ثم رأيته فى بيت الأستاذ نصحى لا يصلح لعلاج أمثالى ممن يقيمون فى المدينة كزائرين حتى لو مكثوا فيها قرونا دون الرجوع إلى قريتهم التى يحملونها معهم حيثما كانوا.

لم أزر أمى منذ لست أدرى متى.

* * *

انتظروا "الفصل السادس" السبت القادم:" **الزيارة**

الأحـــــد 2018-06-10

العدد: 3935 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى(من الإبداع الخاص)

الفصل السادس: "الزيارة" رواية الواقعة

والدتك تريد أن تراك يا عبد السلام أفندى، هى لم تطلب ذلك صراحة إلا أنها دائمة السؤال عنك وقد زاد انشغالها فى الفترة الأخيرة حتى حكت لى حلما شغلها

مقدمة

رجعت إلى بريد الجمعة الماضى، ووجدت أغلب التعقيبات هى على ما نشر من رواية "الواقعة"، فقررت أن أواصل نشر فصولها تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) مؤجلا مواصلة عرض ما تيسر من النقد المقارن بين "لحس العتب" لخيرى شلبى و"قنديل أم هاشم" ليحيى حقى.

مرة أخرى

أنا آسف

*****

نشرة اليوم

الفصل السادس: (رواية "الواقعة")

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

"الزيارة"

- "سيدى عبد ربه يا سيدى".

هكذا أعلنت " البنت" قدوم ابن خالتى من البلدة على غير انتظار، أدخلته فى حجرة الجلوس، وبعد التحيات والأشواق الحارة من ناحيته، والردود الفاترة المخجلة من ناحيتى ساد صمت أحسست فيه بأنى متهم لابد أن يدافع عن نفسه، ماهى تهمتى على وجه التحديد؟.

– خيرا إن شاء الله!!؟.

قال فى وضوح بلا عتاب مباشر.

– والدتك تريد أن تراك يا عبد السلام أفندى، هى لم تطلب ذلك صراحة إلا أنها دائمة السؤال عنك وقد زاد انشغالها فى الفترة الأخيرة حتى حكت لى حلما شغلها،

ثار فضولى ولكنى لم أجزع،

– وكيف حال صحتها يا عبد ربه؟

عظمة كبيرة، والأعمار بيد الله!!

لم يكن لدى دافع واضح يدفعنى أن أزورها فى المدة الأخيرة منذ حدث ما حدث، حتى أنى لم أدعها لقضاء بعض الوقت بين الأولاد مثلما تعودنا كل عام، هل هذا أيضا من ضمن الأعراض، أو أنى اكتسبت صفات النذالة العصرية تحت حجج المرض والفلسفة الجديدة؟ ربما كان السبب هو اللامبالاة التى أغرقتنى حتى هامة رأسى، أو هو الفرار المستمر من كل من يقترب، وهاأنذا أفر منها ومن غيرها منذ نفخ فى الصور يوم حكاية إيصال النور، مضيت أسأل فى حماس خال من العواطف و الأشواق:

– هل هى مريضة يا عبد ربه؟ يبدو أنك تخبئ شيئا ..

لعنت نفسى بكل لغة حين تذكرت أننى لم أزرها من زمان، بل إننى لم أتذكرها أو أحن إليها منذ كان ما كان.

– حالتها ليست خطيرة، ولكل أجل كتاب.

فى بلدنا لا تملك إلا أن تكون متيقظا طول الوقت وإلا انهالت عليك التعليقات صراحة، أما إذا كنت أصبتَ بعض المكانة الاجتماعية فإنهم ينتظرون انصرافك على مضض لعقد ندوة خاصة بتقييم تصرفاتك وتحديد ما جرى لك، "كونسلتوا مجانا"

أنت لا تعلم يا عبد ربه ما هى الحالات الخطيرة فى الحياة، ولا "معنى" لكل كتاب أجل.

– خير يا أستاذ، هل سمعتنى؟؟

– طبعا.

– إن شاء الله خير، ..نراك عما قريب، أستأذن.

تصرفت تصرفا عصريا ربما تعلمته من زيارة بيت نصحى أفندى، تركته يخرج فورا دون دعوة إلى الغداء، وجعلت أهمهم بغمغمات ظهر من بينها "ربنا كريم" "وربنا يستر"، عبارات تصلح لكل المناسبات، نظر إلىّ عبد ربه نظرة كلها عتاب مكتوم، شممت منها رائحة مباراة العودة على أرضه فى البلد.

* * *

اقترب القطار من البلدة، حاولت أن أسترجع مشاعرى التى كانت تغمرنى حين كنت أذهب إلى هناك كل مرة فلم أشعر بشىء يذكر، لم تتغير البيوت ولا الأشجار، ومازال فؤاد افندى "الأشرجى" يلوح ببقايا راية خضراء، مئذنة سيدى علوان تنتظر الوعود السياسية والاشتراكية بترميمها، لا تنبض فى خلية واحدة بذكريات الطفولة، أين راحت أحاسيس الشوق لأشياء لا أعرف كيف كنت أشتاق إليها زمان؟ لماذا؟.

ترى كيف سأخفى هذا التغير عن أهل البلدة؟ مازالت نظرات عبد ربه تتخايل أمام عينى، لقد نجحت فى التمثيل والتخفى فى المدينة لأن كل واحد من أهلها يمضى فى حاله، لا تشغله إلا نفسه، بل إن كلا منهم يرحب بتمثيل وكذب الآخرين عليه حتى لا يتبين تمثيله هو وكذبه هو، أما هنا فما أعنف صوت الرفض وما أسهل إعلانه باستنكار مثل لذع السياط، اخترعوا لذلك ألفاظا لا أستطيع تصويرها إلا هكذا "إيههههييه"!!!؟، أنا لا أعرف لفظا يعطى هذه الموسيقى التصويرية مثل هذا النغم، فهو يحمل مزيجا من العتب، والاستنكار،

تزيد دقات قلبى وأستجمع قواى وأدعو الله أن أرجع للقاهرة وأنا مازلت عبد السلام المشد، أنا لا أعرف ماذا كان يشد جدى الأكبر حتى سموه المشد؟ مهما كان أصل الاسم فقد تعودت عليه وأنا لا أريد تغييره عن طريقهم

والرفض، والتهديد والتعجّب معا، كما أنه يحمل فى نفس الوقت قدرا من السماح بالتراجع الفورى، شىء أشبه بالإنذار الدبلوماسى العنيف قبل إعلان الحرب.

فى بلدنا لا تملك إلا أن تكون متيقظا طول الوقت وإلا انهالت عليك التعليقات صراحة، أما إذا كنت أصبتَ بعض المكانة الاجتماعية (كأن أصبحت أفنديا بماهية، أو امتلكت طينا، أو بيتا ذا دورين بعد عودتك من السعودية أو ليبيا) فإنهم ينتظرون انصرافك على مضض لعقد ندوة خاصة بتقييم تصرفاتك وتحديد ما جرى لك، "كونسلتوا مجانا" ثم إنهم يصدورن أحكامهم بالتشخيص والتصنيف دون النظر إلى العلاج من فرط احترامهم للواقع – هكذا أخذت أفسر طباعهم فى خوف وحذر – وعليك بعد ذلك أن تدافع عن نفسك أو ترشوهم، أو تهرب إلى غير رجعه، وستفشل فى أغلب الأحوال، ويستمر لدغ السياط معك بغير توقف أينما كنت.

كنت أذهب إلى بلدنا فأحس بالأمان والهدوء، أنا لا أحس الآن إلا بالخوف والحذر، لم أعد أستطيع أن أسمى ذلك الشعور القديم أمانا، يبدو أن كل ما كنت أستطيع الحصول عليه هو أن أنسى نفسى فى كتلة البشر المتداخلة

لا بد أن أستجمع كل قدرتى على التمثيل والتحايل فأنا مقبل على اختبار أصعب من اختبار المحلل النرويجى، وطبيب الأعصاب، ونظرات سيادة المدير، المصيبة هنا أنك لو فشلت فى الامتحان مرة، ولو بمحض الصدفة، فلن يشفع لك بعد ذلك أى تكفير أو نجاح لاحق، هم لا ينسون أبدا، بمجرد أن تقع حادثة جديدة أو غريبة مهما كان نوعها تصبح علامة زمنية يُؤَرَّخُ بها لعدة سنوات حتى تقع حادثة أكبر وأغرب، تاريخهم يحكى أنه: "من ساعة جواز الواد معوض بالولية أم شلبى، أم السبع بنات!! – أو "من يوم ما ضبطوا ابن ابراهيم الاكتع مع الحمارة" إلى آخر هذه الحوادث التى قد تحدث كل يوم، ولكن ما يؤرخ به هو إذا تميزت بإعلانها فى جُرسة، أو كانوا متحفزين تجاه صاحبها (ربما لاسباب لا تتعلق بالحادثة ذاتها)، أما إذا كانت الحادثة ذات صفة يمكن أن تلصق بصاحبها فقد تتغير الأسماء وتتولد فروع عائلات جديدة، بأسماء جديدة، نتيجة لهذا الحادث العابر، لا أحد يستطيع أن يمنع هذا التفرع العائلى بأى قوة كانت، عائلة "أبو

لماذا زلزلت أرضى أنا برغم أنى منهم؟ لا، لم أعد منهم، لست متأكدا،هل أجد إجابة محددة بعد هذه الزيارة؟ هل أنا ما زلت منهم؟ أم أننى لم أكن أبدا منهم؟

خروف" كانت أصلا من عائلة النبراوى ولكن أحد أفرادها سرق من صديق له خروفا صغيرا من غنم أبيه وذبحه فى المرعى وحاول أن يأكله كله قبل عودته من الحقل بعد أن شواه فى "الراكية" فأصيب بتخمه وكاد أن يروح فيها، منذ ذلك اليوم واسمه أبو خروف، وأولاده أولاد أبو خروف، أما أحفاده فقد تكونت منهم بذرة العائلة الجديدة "عائلة أبو خروف" وكاد الناس ينسون أنهم أصلا من عائلة النبراوى، كثير من الأسماء التى تسمعها ظهرت إثر حوادث عابرة توقف عندها زمن القرية يوما، ثم اكتسبت شرعيتها تلقائيا، جعلت أسترجع بعض الأسماء التى لا أعلم حكاية نشأتها على وجه التحديد ولكنى تصورتها بخيالى الخائف، يا ترى ماذا فعل أجداد "على الدُّهُلّ" و"سيد الاهطل" و"زكى فرقع" ليكتسبوا هذه الأسماء الدالة، تزيد دقات قلبى وأستجمع قواى وأدعو الله أن أرجع للقاهرة وأنا مازلت عبد السلام المشد، أنا لا أعرف ماذا كان يشد جدى الأكبر حتى سموه المشد؟ مهما كان أصل الاسم فقد تعودت عليه وأنا لا أريد تغييره عن طريقهم، صحيح أننى كدت أتنازل عنه لموظفة شباك تحصيل الهكرباء، لكننى متمسك به الآن تماما لأسباب مشروعه، قريتنا لا تقبل هذا الكلام الفارغ الذى يسمح لأحد أن ينزلها بغير اسم وكنية ومعالم، أدخلها وأنا متمسك بعبد السلام المشد مائة فى المائة ولومؤقتا، ولا أريد أن أعود منها وأنا عبد السلام "المِنـَزِّلْ" أو عبد السلام "أبو هفَّة"، أو عبد السلام عَقْلبَالُه، أشعر بمدى تمسكى باسمى حين أحسست أن أحدا يمكن أن ينتزعه منى، مع أنى كدت أنفصل عنه حتى الجنون حين أحسست أنه مفروض علىّ.

أنا يا أمى؟
كادت تقفز من جلستها المتعبدة فى قرص الشمس، همت بكل جسمها ثم ارتدت ثانية كأنها عدلت عن رأيها وعادت إلى السكون المتعبد، تقدمت منها، وانحنيت على ركبتى وحاولت أن ألثم يدها، لمحت دمعة تترقرق فى عينيها فاهتز كيانى بمشاعر بعيدة عميقة غير قابلة للوصف

كلما اقترب القطار من المحطة فى سرعة يسبقها حمار العمدة زادت دقات قلبى خوفا من المجهول، لم أكن هكذا أبدا، ماذا ينتظرنى هذه المرة؟ هكذا؟

كنت أذهب إلى بلدنا فأحس بالأمان والهدوء، أنا لا أحس الآن إلا بالخوف والحذر، لم أعد أستطيع أن أسمى ذلك الشعور القديم أمانا، يبدو أن كل ما كنت أستطيع الحصول عليه هو أن أنسى نفسى فى كتله البشر المتداخلة، كنت

أضيع راضيا حين لا يهتم أحد بمن أكون مستقلا عن الكتلة البشرية، أهل بلدنا لا يعنيهم من تكون بقدر ما يعنيهم أنك"ابن من" وربما سألوا عن خالك واكتفوا، أما أنت، فمؤجل البت فى أمرك طول ما أنت حى، اختلف كل شىء هذه المرة، لا أنا أشعر بالأمان القديم، ولا أنا أريده، ولا أنا أريد شيئا آخر، كل ما أريده هو أن أعود بأسرع ما يمكن إلى لعبتى الجديدة، هذا "الزلزال" أيقظنى أم أماتنى؟! إذا كان أيقظنى فلماذا كل هذا التفكير؟ وإذا كان قد أماتنى فما كل هذه اليقظة والنشاط الذين يمارسهما عقلى الداخلى الذى أصبح مثل الكاميرا التى تلتقط كل التفاصيل، وأحيانا يكون مثل آلة العرض التى تسترجع كل التفاصيل فى تجسيد بشع، أين أهل بلدى من هذه الزلازل والبراكين؟ هل تحميهم كتلتهم، وعنادهم، وتسليمهم، وقسوتهم، وتسامحهم، من الزلزلة والأسئلة؟ حتى أرضهم ملساء وديعة لا تثور ولا تغضب، وغاية احتجاجها أن تتكاسل بعض المواسم عن الإنتاج، فلماذا زلزلت أرضى أنا برغم أنى منهم؟ لا، لم أعد منهم، لست متأكدا،هل أجد إجابة محددة بعد هذه الزيارة؟ هل أنا ما زلت منهم؟ أم أننى لم أكن أبدا منهم؟ هم أيضا لهم زلازلهم، هم ليسوا الأرض التى أفرزتهم، علاقتى بالطين أقوى وأرسخ، راجع إليها بشوق غير تبلدى تجاههم، سوف أسألها مالها؟ هل ستحدثنى عن أخبارها؟ هل تفتح لى صدرها لأحدثها عن أخبارى؟...

وقف القطار فى المحطة التى تقف فى مكان ما بين دار خالتى أم عوض ومنزل حضرة الناظر، نزلت وكلى حذر ويقظة أتحسس طريقى إليهم وكانت آثار مطر غزير قد أحالت الحوارى إلى مستنقعات ومعاجن من طين يخترقها "مِدقَ " قد مهدته أرجل الناس والماشية وسط هذا المستنقع الطينى بطريقه تطمئن الإنسان على مستقبله، كان شكل المدق مثل الثعبان الملتوى – دون تفسيرات قضيبية يا عم نصحى – وقد خيل إلى أنه الثعبان الذى كان يحفظ جثث قدماء المصريين بعد الموت، هو يمر أمام الدور فتمتد ألسنته وأحيانا أرجله إلى داخلها بطريقه تتحدى الفناء وتنتظر البعث،

الحمد لله أنى رأيتك، الله يرحمه ويحسن إليه. لماذا تذكره "هو" كلما رأتنى أو ذكرتنى !؟ – هل أنت بخير يا أمي؟ ... شغلنى عليك "عبد ربه".

أحسست بسكينة تتسحب إلىّ حتى أنى لم أعد أحتاج إلى ذلك التفكير المستمر الذى كان يساعدنى على الشعور بالوجود، لم تعد الألفاظ فى متناول عقلى الساخر، داخلنى شعور فاتر بالذنب وكأنى طفل نسى نفسه فى اللعب فطالت غيبته حتى جاء وقت الحساب

لم أقابل كثيرين أثناء سيرى وقد استقبلنى من يعرفوننى بالسلامات والهمهمات وحين كان أحدهم يصر على أن:

– تفضل.

فأرد كالآلة:

– الله يحفظك.

– تفضل.

– الله يخليك.

– تفضل.

– الله يكرمك.

ثلاث مرات لا تزيد ولا تنقص، كنت أتساءل هل هو يعنيها فعلا؟ وماذا لو تفضلت لمجرد ممارستى لهوايتى الجديدة فى معرفة معانى الألفاظ واختبار إمكانية تحقيقها؟ سوف يستقبلنى أيهم فى تساؤل، ثم فى حيرة، ثم فى شك حين يكتشف أنى تفضلت لمجرد أنه قال تفضل !! ألفاظ مع وقف التنفيذ.

* * *

دفعت باب منزلنا بعد أن سلمت على خالتى أم عطية الجالسة على المصطبة المقابلة، باب دارنا لا يغلق إحكاما أبدا ليلا أو نهارا – ليس لفرط الأمانه المنتشرة بين أبناء بلدنا ولكن استنادا إلى الميثاق غير المكتوب الذى يضع المنازل من المناطق المحرم فيها السرقة، البيوت مكان مقدس، حتى عند اللصوص، أما الحظائر فهى عرضة للسرقة من غير أهل القرية، لكن الزراعات، باستثناء الحدائق، فمسموح فيها بالسرقة لملء البطن فقط وليس للتحميل إلى البيوت، قانون واضح وتفصيلى يعرفه اللص المحترف، واللص الجائع، والهواة من الشباب الجدد فى "الكار"، دفعت الباب– وكنا بعد العصر– فأصدر أزيزا طويلا طويلا ظل يطن فى أذنى حتى وصلت إلى "المقعد" أعلى السلم، جاءنى صوتها من فوق كما اعتدت دائما، ..

انقلبت السكينة إلى شعور بالعجز، تمنيت لو أنى ما جئت، تمنيت لو أغمض عينى وأجد نفسى فى القاهرة حيث الوحدة والفرجة والسخرية تملأ الحياة باللاشئ، أعظم فرصة للوحدة تجدها وسط المحيط البشرى المجهولة شواطئه، كنت أحسب أنى أبحث عن معنى بسيط متسق، وها أنذا أصاب بالخزى وأشعر بالعجز وأود لو أهرب لما تصورت أنه فى متناول يدى، هل هذا هو المعنى الذى أبحث عنه فعلا؟

- ميييي ......ن؟

كان ممطوطا كالعادة وكأنه يكمل أزيز الباب.

لم أرد وإن كان قد غمرنى مزيج من الطمأنينة والسخط والخجل معا لأنى تأخرت فى زيارتها، أحسست بخجل أكبر لأنى حين فعلتها الآن جئت "هكذا"، هل يمكن ألا ترانى "هكذا"؟ صعدت الدرج الطينى الملتوى، وتعجبت كيف أنى لم أسقط من فوقه ولا مرة وأنا صغير، بل إننى لم أخف منه أبدا، فى حين أنى أخاف منه الآن حيث تبينت – ربما لأول مرة – أنه ليس له حاجز جانبى.

أنا لا أنظر إليها هذه المرة على أنها أمى، تبدو لى كأنها إحدى آلهة الإغريق التى لم تكتشف حتى الآن، إلهة العناد مثلا تتحدى أى عبث يخطر ببال أمثالى من الضائعين

كانت جالسة أمام باب المقعد على الحصيرة فى مواجهة قرص الشمس المزمع على الرحيل وقد نشرت قميصها أمامها مستغرقة فى النظر إليه، وكأنها تبحث بين نسيجها عن شيء ذى بال، ربما عن حشرة تبحث عن الأمان بين طياته.

- مين؟؟

قالتها هذه المرة بطمأنينة الواثـق من صاحب وقع الأقدام على السلم.

- أنا يا أمى؟

كادت تقفز من جلستها المتعبدة فى قرص الشمس، همت بكل جسمها ثم ارتدت ثانية كأنها عدلت عن رأيها وعادت إلى السكون المتعبد، تقدمت منها، وانحنيت على ركبتى وحاولت أن ألثم يدها، لمحت دمعة تترقرق فى عينيها فاهتز كيانى بمشاعر بعيدة عميقة غير قابلة للوصف، مشاعر لا يمكن تتبع أصلها فى تاريخى القابل للتذكر، مشاعر تأتى من خلف كل شئ، وكأنها موجودة قبل كل شئ، وبعد كل شئ.

هى تتمسك بالحياة بقوة عنادها الإلهى، ..حتى لو كانت حياتها كلها بلا معنى، المعنى هو فى مجرد عنادها للبقاء على قيد الحياة بدون هدف مفهوم إلا صراع الموت إلى آخر لحظة

- خير يا عبد السلام يا ابنى أين أنت؟ وكيف حال العيال.

- يقبلون يديك،

ساد العتاب الصامت فترة حتى ملكنى خوف مبهم.

– خير يا أمى، كيف حال صحتك أنت؟

ردت وكأنها لم تسمعنى، لم أستطع أن أتبين بوضوح ما قالت، كان ظل دمعة يترقرق فى عينيها، فيتهدج صوتها.

– الحمد لله أنى رأيتك، الله يرحمه ويحسن إليه.

لماذا تذكره "هو" كلما رأتنى أو ذكرتنى !؟

– هل أنت بخير يا أمي؟ ... شغلنى عليك "عبد ربه".

استمرت فى حديثها المتصل الذى يكاد يتجنب الرد أصلا على ما أقول أو أسأل.

لا تنسى أن تزوره، يرضى عنك ..

– طبعا.

لم أكن أنوى أن أزوره، فقد جئت لزيارة الأحياء مضطرا، فما بالك بالموتى، إن كان ثمة فرار فأنا أفر منه أكثر مما أفر منها رغم أنه غائب فى التراب

– العفو عند صاحب العفو، .....

لم يكن هناك مجال للاستمرار، تحاملت على نفسها وقامت تتلوى من فوق الحصير، ذهبت لتوها تنادى أم عطية لتساعدها فى الإمساك بدجاجة تعد لى بها وليمة العشاء دون انتظار، تعبير عيانى مباشر عن الترحيب والحنان، كأنها بذلك تلقمنى ثديها لأرتوى، داخلتنى طمأنينة ما، فتوقفت عن التفكير، سررت من هذا التحول وأحسست بسكينة تتسحب إلىّ حتى أنى لم أعد أحتاج إلى ذلك التفكير المستمر الذى كان يساعدنى على الشعور بالوجود، لم تعد الألفاظ فى متناول عقلى الساخر، داخلنى شعور فاتر بالذنب وكأنى طفل نسى نفسه فى اللعب فطالت غيبته حتى جاء وقت الحساب، انقلبت السكينة إلى شعور بالعجز، تمنيت لو أنى ما جئت، تمنيت لو أغمض عينى وأجد نفسى فى القاهرة حيث الوحدة والفرجة والسخرية تملأ الحياة باللاشئ، أعظم فرصة للوحدة تجدها وسط المحيط البشرى المجهولة شواطئه، كنت أحسب أنى أبحث عن معنى بسيط متسق، وها أنذا أصاب بالخزى وأشعر بالعجز وأود لو أهرب لما تصورت أنه فى متناول يدى، هل هذا هو المعنى الذى أبحث عنه فعلا؟ وماذا أفعل بوعيى بكل ذلك؟ يبدو أن المعنى يكون بسيطا حين لا تعيه أنه كذلك، كان يمكن أن يكون هذا المعنى هو أعظم صور الوجود لو أنى غير واع به.

ماذا تعنى حياتها أصلا؟ كيف تمر عليها الساعات وهى تتعبد فى قرص الشمس أو تطارد حشرة ضالة، أو تبحث فى قميصها عن سر الحياة وهدف الوجود؟ ترى هل ينبغى أن نبحث فى أشيائنا بمثل هذا الاهتمام الجاد بدلا من البحث فى عقولنا بلا جدوي؟ هذه زيارة من نوع آخر، كنت أحضر هنا قبل ذلك لأقبّل يدها وأسمع دعواتها وآخذ ما تيسر من خيراتها، وأعرف كم ربحت من هذا المشوار على وجه التحديد بعد خصم أجرة القطار، أما الآن فأنا أواجَهُ بشيء جديد تماما، أطلع على نوع من الحياة يدعونى لأن أعيد النظر فى كل شئ، أنا لا أنظر إليها هذه المرة على أنها أمى، تبدو لى كأنها إحدى آلهة الإغريق التى لم تكتشف حتى الآن، إلهة العناد مثلا تتحدى أى عبث يخطر ببال أمثالى من الضائعين، فضلا عن أمثال الأستاذ نصحى أو حتى الأستاذ غريب من النازحين من بلاد الحضارات الحديثة، هى تتمسك بالحياة بقوة عنادها الإلهى، ..حتى لو كانت حياتها كلها بلا معنى، المعنى هو فى مجرد عنادها للبقاء على قيد الحياة بدون هدف مفهوم إلا صراع الموت إلى آخر لحظة، هل يمكن أن أجرب أن أترك نفسى "هكذا" مثلها مثل عباد الشمس؟

خرجت إلى الشارع وفى عقلى سؤال واضح أريد أن أحدد بإجابته مصيرى "هل هذا هو مكاني؟ هل أجد الحل هنا؟"

ربما وجدت الحل الحقيقى هو فى أن أعود نباتا متواضعا، "كل من انفصل عن أصله، ..يطلب أيام وصلهً، لا أعرف أين ومتى قرأت أو سمعت ذلك، أدخل إلى داخل حجرة "المقعد" أفتح الدولاب القديم الذى أخاف عليه فى كل مرة افتحه فيها أن يكسر، وهو يأبى فى كل مرة أن يصاب بأذى رغم أصوات القرقعة المهددة، أخلع قميص الكتاف من يدى وقدمى وأرتدى صديريا، أرتبك وأنا أحاول أن أحكم رباط أزراره المائة (هكذا خيل إلي)، أرتدى جلباب أبى وأخرج باحثا عنها فلا أجدها، اسمع صياح الدجاج فى العشة واستنتج أنها مختفية بداخلها تحاول الإمساك بالدجاجة وحدها بعد أن تأخرت عليها أم عطية، أسمعها تحدث الدجاج فى ألفة واعتذار، الدجاج يقفز من حولها صائحا فى احتجاج وثورة،

خرجت إلى الشارع وفى عقلى سؤال واضح أريد أن أحدد بإجابته مصيرى "هل هذا هو مكاني؟ هل أجد الحل هنا؟"

أنتظرها حتى تخرج ممسكة بدجاجة سمية بنية اللون تحاول التخلص من يدها بعنف فلا تستطيع، تبادل الدجاج بعض الهمهمات المعتذرة المختلطة باللعنات على أم عطية التى لم تحضر حتى الآن، ترانى منتصبا أمامها فى جلباب أبىّ، تبتسم فى سعادة وحب وكأنها تراه "هو" وليس أنا، يمر على خاطر من الغيظ مع الرضا فى نفس الوقت – دائما "هو" وليس أنا، يدب فيها النشاط وتتغير نبرة صوتها وتمضى تدب فى الأرض وقد علت وجهها حمرة خفيفة كأنها تخجل من ذكرى تدغدغ مشاعرها .....

..الحمد لله أنهم يسألون "أين أنت"؟ ولا يسألون "من أنت"؟ ولو حصل، لوليت هاربا بلا رجعة.

– يرحم الله الناس الطيبين ...

أدعها تجتر ذكرياتها السعيدة فى السر ..

– أنا ذاهب يا أمى.

– لا تنسى أن تزوره، يرضى عنك ..

– طبعا.

لم أكن أنوى أن أزوره، فقد جئت لزيارة الأحياء مضطرا، فما بالك بالموتى، إن كان ثمة فرار فأنا أفر منه أكثر مما أفر منها رغم أنه غائب فى التراب.

أخذت السجائر ومضيت فى طريقى ووجدتنى أتجه إلى المقابر رغم قرارى الأسبق، واكتشفت أنها مكان معقول لقراءة الفاتحة وفاء بوعدى الصامت لأمى

فرارى منه لا ينتهى، وحاجتى إليه لا تهدأ.

خرجت إلى الشارع وفى عقلى سؤال واضح أريد أن أحدد بإجابته مصيرى "هل هذا هو مكاني؟ هل أجد الحل هنا؟"

بدا لى لأول وهلة أن الناس يعيشون هنا بتوافق أكبر، وأن هذه المصائب المرضية التى سماها الأستاذ نصحى "علامة حضارية" لا وجود لها فى هذا العالم المتماسك المتناغم، أخذت أنظر إلى المواشى، والناس وهى عائدة إلى دورها تسبح فى سحابة من الغبار تطمس المعالم بين الإنسان والحيوان فلا تميز بينها إلا بانتصاب القامة وعدد الأرجل، يقفز إلى عقلى جواب حاسم عن السؤال: "نعم، هذا هو الحل، .."، لأول مرة منذ نزلت من القطار يقفز عقلى الآخر فى

تحد يسأل "هذا" ماذا؟ رعبت من هذه اللهجة القديمة التى يضطهدنى بها كلما اقتربت من حلٍ ما، كان يرد على الأستاذ نصحى دائما بنفس الطريقة، كلما قال "أصبحت هكذا"، يرد عليه بلا إبطاء "هكذا ماذا"؟ هذا العقل الخبيث يحطم كل شىء قبل أن يبدأ، أعرف أنه ليس حلا ولا يحزنون، لكننى كنت أريد أن أستمتع بهذا الاحتمال رغم يقينى بخطئه، لم أرد على عقلى الآخر وأجّلت المشاحنة، أحاول أن أذوب فى وسط سحابة الغبار وكتلة الحيوانات والبشر، لم أستطع، انسلخت بإرادتى وتوجهت إلى دكان البقالة الذى يجتمع حوله الناس بعد العشاء وطلبت علبة بلمونت صغيرة وأنا أحاول أن أجرجر خالتى شفيقة إلى الكلام ...

للمقابر عندى معان مختلفة حسب الظروف والهدف من الزيارة، فهى: العيد والبلح، والطيارة الورق، والمراجيح، أو هى العفاريت والظلام والأرواح والجان، أو هى عذاب القبر وحساب الملكين

– خير يا عبد السلام أفندى، أين أنت يا رجل يا طيب؟.

لماذا يصرون على هذا السؤال؟ هل بدأت ملامحى تفشى السر، ..الحمد لله أنهم يسألون "أين أنت"؟ ولا يسألون "من أنت"؟ ولو حصل، لوليت هاربا بلا رجعة.

– دنيا يا خالتى شفيقة.

– كان الله فى العون.

أخذت السجائر ومضيت فى طريقى ووجدتنى أتجه إلى المقابر رغم قرارى الأسبق، واكتشفت أنها مكان معقول لقراءة الفاتحة وفاء بوعدى الصامت لأمى، من المفيد أن يمضى بعض الوقت حتى ينفض تجمع الناس على البوابة فأتجنب عددا من العيون الجاهزة للرصد والحكم، وحتى –أيضا– تنتهى أمى من إعداد الدجاجة.

* * *

للمقابر عندى معان مختلفة حسب الظروف والهدف من الزيارة، فهى: العيد والبلح، والطيارة الورق، والمراجيح، أو هى العفاريت والظلام والأرواح والجان، أو

هى عذاب القبر وحساب الملكين، أشعر هذه المرة بمشاعر جديدة، أشعر أنها ليست مقابر يسكن فيها الموتى، ولكنها شكل آخر من أشكال الحياة، كأن الحد الفاصل بين الحياة والموت قد اختفى عندى حتى اختلط بعضهما ببعض فأصبحت أحس بأنى فى وادى الملوك عند الأستاذ نصحى، فى حين أنى فى مساكن الذين عرفوا الحقيقة وبخلوا علينا بها وأنا أزور المقابر.

توجهت إلى قبره مباشرة وأنا أفتقد أية مشاعر مثل الشوق والحنين مثل أيام زمان، حتى الرحمة لم أترحمها عليه، أحسست أن الحكاية مستمرة بشكل أو بآخر ولا داعى لكل هذا الجزع لمجرد الجهل بهذه الحقيقة الواضحة: "الحكاية مستمرة"، صرفت المقرئين والعجزة الذين تعودوا أن يحوموا حولى كلما ذهبت إلى هناك لأنى لم أجد مبررا لوجودهم هذه المرة، نفحتهم المعلوم وكأنهم قاموا بالواجب المعتاد كاملا، أردت أن أختلى به ربما أعيد التعرف عليه فى هذه الظروف الجديدة، اقتربت من المقبرة وأخذت أدقق البصر حتى وجدته جالسا يمسك بمسبحته الطويلة ويتمتم بالوِرْد الذى لا ينتهى أبدا، يهتز أحيانا ويتصلب حينا وينتفض نادرا، ولكنه مستغرق فى دنياه الخاصة طول الوقت، ليست صورة رمزية نتيجة للتصور والخيال، وليست روحا تجسدت مثلما كنت أسمع فى حكايات الرعب، لم تخالجنى ذرة خوف، كنت متأكدا أن وجوده لاجدال فيه وقد تمثل لى حتى عشته بعمق ربما أكثر من أى وجود آخر يدعى الحياة لمجرد أنه يخرج أصواتا من فمه، كنت فى كامل وعيى أعلم تماما أن ما أراه ليس مجرد منظور للعين، كنت أحس أنه جزء منى أو من الطبيعة الكونية التى هى أنا أيضا بشكل أو بآخر، لا ذرة خوف ولا مجال للتساؤل عن طبيعة الأشياء، عجبت لهذا التحول الذى قلب كيانى فجعلنى أخاف من سلالم دارنا وكنت أقفزها ثلاثة ثلاثة وأنا صغير، وفى نفس الوقت أذهب عنى الخوف وسط المقابر والأرواح، وقد كنت أرعب لمجرد سماع سيرتها.

أشعر هذه المرة بمشاعر جديدة، أشعر أنها ليست مقابر يسكن فيها الموتى، ولكنها شكل آخر من أشكال الحياة، كأن الحد الفاصل بين الحياة والموت قد اختفى عندى حتى اختلط بعضهما ببعض

جلست على الأرض مسندا ظهرى إلى جدار قبره ونظرت إلى الأفق الرمادى، مازال هذا الوجود الحى متمثلا أمامى رغم أن ظهرى للقبر، قلت فى نفسى "أجرب أن أحدثه"، بدأ خوف آخر، خوف له مذاق آخر، بدأ من مفاصل أقدامى يصاعد إلى أعلى ثم توقف عند منتصف البطن، كنت قد تعودت هذا الحوار الساخر بينى وبين عقل بالى وسميته مرة التفكير الداخلى، ومرة أخرى تصورته وسواسا، ولكنى أتقدم الآن نحو مسرحيات حية متعددة الأشخاص، يقينى بحيويتها لا يدع مجالا للشك فى صدق ما يجرى، لا أملك أن أتراجع، ماثل هو أمامى، فلا مناص من الحديث،

سألته:

– هيه؟ هل يعجبك هذا؟

استمر فى اهتزازه وأشار لى بيده أن أنتظر حتى ينتهى من السورة التى يتمتم بها، حاولت أن أرهف سمعى فإذا به يقرأ "وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ" لم أحاول أن أدقق ولكنى ازددت خوفا، عدت أسأله :

– ماذا تريد بعد ذلك؟

وضع المسبحة فى جيب سيالته والتفت إلى:

– أنت السبب فى كل هذا، .... وكم نصحتك؟

لم أكن أتوقع بعد كل هذه السنين، وحتى وهو تحت التراب أن يستمر فى نصائحه ومعايرته لى بأننى السبب فى كل المصائب، سوف أتمادى معه حتى النهاية.

– وما العمل؟

– ترجع إليه بلا تردد.

تشجعت هذه المرة وقلت له:

– وأنت، ماذا فعلت بهروبك إليه؟

أردت أن أختلى به ربما أعيد التعرف عليه فى هذه الظروف الجديدة، اقتربت من المقبرة وأخذت أدقق البصر حتى وجدته جالسا يمسك بمسبحته الطويلة ويتمتم بالوِرْد الذى لا ينتهى أبدا

كنت فى كامل وعيى أعلم تماما أن ما أراه ليس مجرد منظور للعين، كنت أحس أنه جزء منى أو من الطبيعة الكونية التى هى أنا أيضا بشكل أو بآخر،

تلكأ فى الإجابة ووضع يده فى سيالته يعبث بمسبحته دون أن يخرجها.

– أستغفره، وأتوب إليه؟

قلت فى تحد:

– ذنوبك لا تنتهى عند هذا الحد؟

نظر فى غضب حتى تصورت أنه سيطردنى:

– رحمته وسعت كل شئ، وأنا أطمع فيها وهو راضٍ عنى.

– ومن أدراك؟

– ما أنا فيه.

– وماذا أنت فيه غير التمتمة والاهتزاز والاستجداء؟ هل عرفت شيئا عن أى شئ؟ هل تستطيع أن تجيب عن سؤال واحد من أسئلة الوجود؟ أم أنك احتميت بجهلك وخوفك، الأمور تغيرت والناس تريد أن تعرف.

– هذا تطاول لا يجلب إلا الضياع.

– وهذا عَمَىَ، لا يجلب إلا الفراغ.

– ليس هناك سبيل آخر.

– أعلن عجزك وفشلك، ..نتفاهم !! هو الله الذى لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

مضيت فى حديثى وكأنى لم أسمعه تماديت فى السؤال.

– أين الطريق ما دمتَ واثقا هكذا؟

– الصور تختلف والسبيل واحد.

– تصر على أن أكون مجرد نسخة منك، وأن أمضى بقية حياتى فى التمتمة والاهتزاز.

– دعنى إذن، ... واجن ثمرة تطاولك على ما لا تعرف.

(يعيّرنى بالضياع وسأعيره بالشقاء)

جلست على الأرض مسندا ظهرى إلى جدار قبره ونظرت إلى الأفق الرمادى، مازال هذا الوجود الحى متمثلا أمامى رغم أن ظهرى للقبر، قلت فى نفسى "أجرب أن أحدثه"، بدأ خوف آخر، خوف له مذاق آخر

– وهل أنت سعيد؟.

قلتها بتحد حقيقى وشوحت بيدى وكأنى ألقى قنبلة يدوية، اهتز قليلا وعقد ما بين حاجبيه وظهر الألم على وجهه حتى كدت أبكى لألمه، ندمت على جرأتى وقسوتى، ولكن أساريره سرعان ما انفرجت بعد لحظات ليقول لى فى صرامة.

– أسعد منك على أى حال.

– أنا أعرف شقاءك فهل تعرف شقائي؟.

– كنت أتمنى أن تكون أسعد منى.

– هذا ما أحاوله، أنت لا تستطيع أن تتحمل عاقبة أمانيك، أنا أشك فى نيتك، ساعدنى إن كنت صادقا.

– كيف ترفض طريقى ثم تطلب منى العون.

– أنت نفسك تنتظر أن أجد بديلا.

تراجَعَ فى صمت وكأنه يخفى ألما بعيدا يشككه، و قال وكأنه يذكر نفسه لا يخاطبنى،

– أطلب العون من أهل العون.

– أنت لا تعرف من هم أهل العون.

– ولا أنت، أنا مستمر فى البحث عنهم، أما أنت فتوقفت.

– أنت تعايرنى؟! ومع ذلك أنا لا أكرهك، ..بل أشفق عليك.

– وأنا أدعو لك.

أخرج مسبحته من سيالته ونظر إلى الأرض وابتدأ فى الاهتزاز الرتيب من جديد، سمعته يقول فى ورده "قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير".

هل يدعونى للاستسلام إلى ما لا أعرف؟ هل كتب علينا أن ننتظر العزة

أنت السبب فى كل هذا، .... وكم نصحتك؟ لم أكن أتوقع بعد كل هذه السنين، وحتى وهو تحت التراب أن يستمر فى نصائحه ومعايرته لى بأننى السبب فى كل المصائب، سوف أتمادى معه حتى النهاية

والذل مغمضى العينين؟ هو نفسه لم يستسلم أبدا ومازال دائب السعى إليه – نظرت إليه فإذا به قد استغرق تماما فعرفت أنه لن يرد على مهما حاولت.

التفت إلى الأفق الرمادى فإذا بالسحاب الداكن يتجمع ليتعجل قدوم الليل، وحين رددت بصرى إلى حيث يجلس لم أجده، نظرت إلى جوارى فلمحت على مقربة منى كومة من الخرق الملونة القذرة، لم أكن قد لاحظتها من قبل ذلك، هممت بالانصراف ولكنى سمعت سعلة جافة ضعيفة تصدر من تحت كومة الخرق، انزعجت فى أول الأمر، ..إلا أن هذه الأماكن وما تحتويه لم تعد تزعجنى بقدر ما تزعجنى زيارة عائلية عادية، سعلت الكومة مرة أخرى فتأكدت أنها كائن حى، هززتها بلا خوف، اهتز جسمها وأخرجت يدها تهشنى بها مثل ما تهش أى حشرة تحاول التدخل فى حريتها، أو تبحث عن وجبة دسمة من دمها، لم أتراجع فهززتها مرة ثانية حتى كشفت عن وجهها فى غضب واشمئزاز، عرفتها، خالتى "شلبية الهبلة"، حاولت أن ترجع إلى تكورها تحت كومة الخرق فهززتها أكثر مناديا عليها باسمها، أزاحت هذه الكومة من على جسدها فظهرت من تحتها كما عرفتها طول عمرى، لم يتغير منها شىء أبدا، لا عمرها ولا وجهها ولا بقايا جسدها، ... ولكنى أنا الذى تغيرت حتى استطعت أن ألمح فى عينيها معنى آخر للحياة ...

– كيف حالك يامّه شلبية ...؟

نظرت إلىّ طويلا وهى تحاول أن تتعرف علىّ، ثم أشاحت بوجهها عنى دون رد وكأنها عدلت عن الترحيب،

– أنا عبد السلام يا مّه شلبيه ..

قلتها رغم علمى أن هذا الاسم لم يمر على سمعها قبل ذلك أبدا، فأنا لا أذكر أنها نادت أحدا باسمه مرة واحدة، ..

نظرت إلى ثانية وقالت:

ماذا أنت فيه غير التمتمة والاهتزاز والاستجداء؟ هل عرفت شيئا عن أى شىء؟ هل تستطيع أن تجيب عن سؤال واحد من أسئلة الوجود؟ أم أنك احتميت بجهلك وخوفك، الأمور تغيرت والناس تريد أن تعرف.

– إن شا الله .

فرحت بردها، كنت أود أن أسمع صوتها بأى ثمن، حاولت أن أتمادى معها فى أى اتجاه:

– إن شاء الله ماذا يامه شلبيه؟.

نظرت إلى باستنكار ثم ضربت على صدرها بيدها عدة مرات صائحة، ..

– خلِّ الجدعان، خلِّ الجدعان، .. خلِّ الجدعان، ..

ومضت مسرعة بين القبور حتى اختفت عن ناظرى تماما، .. وكأنها دخلت أحدها.

* * *

رجعت إلى البلدة أجر قدمى ولا أحاول أن أسترجع شيئا مما كان، هل كل ما حدث هو داخل مملكتى الخاصة؟ أشعر أننى فى حالة بين الائتناس والحذر، مما جعلنى أشعر بأنى أكثر قدرة على مواجهة الفلاحين دون أن يظهر علىّ تغيير يمكن رصده، أحس أنى أعود إليهم ومعى سند قوى من لقائى مع أبى ومع خالتى "شلبية".لم أعد وحدى تماما.

كان الظلام قد احتوى البيوت حتى لم يعد يمكن تمييز معالمها، زاد من طمأنينتى أن ملامح الناس – وبالتالى ملامحى – قد اختفت هى الأخرى فى هذا الرمادى الزاحف، عرجت إلى "البوابة" واخترت ركنا منزويا خلف الظلال المتراقصة، أصروا على أن أتوسطهم تكريما للقادم من مصر، بدأ يتوافد على الدكان بضعة نفر ممن أعرف ومن لا أعرف، كان العدد محدودا فقد فضل الباقون اتقاء البرد فوق الأفران المحمية، جلست وسط جو من الترحيب المعلن والتعليقات الهامسة، لم يخطر ببالى أى تفسير سيئ لهذه الهمهمات من خلفى لأنى كنت متأكدا أن النور الخافت يخفى ملامح وجهى، كما كنت أعلم أن هذه هى طريقة استقبال القادم من "مصر"، فما بالك بعد طول غياب؟ رجع إلىّ

هذا تطاول لا يجلبه إلا الضياع.

– وهذا عَمَىَ، لا يجلبه إلا الفراغ

أنت تعايرنى؟! ومع ذلك أنا لا أكرهك، ..بل أشفق عليك.

– وأنا أدعو لك

السؤال الأول "هل هذا هو مكاني؟ هل أجد هنا الحل؟" تطلعت فى وجوههم فى حذر فتبينت قفزات البسمات اللاذعة والتحدى، غمرونى بالأسئلة عن مصر وأحوال مصر، وكأن لى مصادرى الخاصة تزودنى بالمعلومات السرية، كان علىّ أن أجيب إجابات محددة، وألا أعتذر أو أؤجل تحت أى ظرف، حتى حين طلب منى "رزق" المزين أن أوصى ناظر مدرسة الصنايع بالمركز على ابنه، لم يسمح لى بأن استفسر عن اسم الناظر تحديدا قائلا:

– دهدى، ..اسمه حضرة الناظر طبعا.

ولما سألته عن عنوانه قال فى دلال وعتاب، ..

– إيهييه، ..ماهو معكم فى مصر.

ولم أملك إلا أن أعِدَهُ خيرا.

ابتدأت أحس بالاختناق من كثرة الأسئلة وطلب التوصيات من شخص عاجز جاهل وحيد مثلى، لم أشعر أن أحدا شعر بى منذ وصولى إلا شلبيه الهبلة، وأمى لبضعة لحظات، وأبى رغم عناده.

حتى فرصة التأمل الصامت لم يسمحوا لى بها، أستأذنت فى أول فرصة، وانصرفت مودعا بنظرات لا أعرف محتواها تفصيلا، ولكنها كانت كلها على حد إحساسى أحكاما، أحكاما، أحكاما تكاد تخترق ظهرى حتى كدت أجرى متجها إلى دارنا وأنا أتجنب أن ألتفت ورائى صائحا "والله العظيم ما عملت حاجة"، لم أكن أنفى الأحكام القاسية فقط، بل إنى كنت أرفض الأحكام كلها، وخاصة الحكم علىّ بأنى "رجل طيب!!"

– هل ذهبت لأبيك يا ابنى.

– طبعا يا أمى.

– روح يا ابنى الله يهديك ويزيح عنك.

كانت تروح و تجئ بنشاط بالغ وسعادة حقيقية، رحت أتعجب من هذه

هل يدعونى للاستسلام إلى ما لا أعرفه؟ هل كتب علينا أن ننتظر العزة والذل مغمضى العينين؟ هو نفسه لم يستسلم أبدا ومازال دائب السعى إليه – نظرت إليه فإذا به قد استغرق تماما فعرفت أنه لن يرد على مهما حاولت.

الحيوية التى دبت فيها، وكأنها ليست الهيكل المتهالك الذى استقبلنى قابعا تحت الشمس منذ ساعات، كدت أسألها "وكيف يهدينى الله وماذا يزيح عنى؟ إيش عرفك يا أمِّى بما بى، ياليتنى أعرف ماذا جاءنى بلا استئذان حتى أستطيع أن أزيحه عنى !، ياليت نظام نزح خزانات الفضلات يصلح لتخليص الإنسان من فائض أفكاره التى تطفو على عقله حتى تفسده، لا بد أن للعقل فضلات مثل الجسم، ولا بد أن نعرف طريقا للتخلص من الأفكار الزائدة التى لا جدوى منها فى الحياة اليومية، ولكن كيف لمثلى أن يعرف الأفكار الزائدة من الأفكار الضرورية؟ لماذا ترك لنا الحكم والاختيار فى محتوى العقل ولم يترك لنا الخيار فى مسائل الجسم، أكاد أجزم أننا لو كنا نخير فى مسألة وظائف الجسم والعقل ويسمح لنا بالتساؤل حولها بلا شروط إذن لتوقفت جميعها نتيجة لغرور الإنسان وسوء استعماله للحرية.

هذا ظلم لا يرفعه إلا الجنون، إما أن نوهب التفكير على قدر احتياجنا له أو قدرتنا عليه، وإما أن نوهب نظاما ما نفرز به فضلات أفكارنا، لو كنت أعرف ماذا تقصد أمى بدعوتها "يزيح عنك"، ولو كنت أعرف ما يدعو لى به أبى، لساعدتهما وساعدت الله على تحقيق دعواتهما، أنا لا أعرف ماذا أريد أن أُبقِى وماذا أريد أن أدع، هل أريد أن اتخلص من عقلى بالي؟ وهو أقرب إلىّ من عقلى؟ هل أنا أريد أن اطمئن وأرضى، أم أن أعرف و أمضى.

* * *

أخذت أمى تنسق الطعام على الطبلية فى سعادة لا تخفى، ثم جلست أمامى على بعد قليل لا تشاركنى الطعام، هذه عادتها من زمان، الأكل عورة، ولكنها تريد أن تطمئن على أنى أتيت على الدجاجة المحمرة حتى آخرها.

فى هذه المرة لم أجد عندى شهية تتناسب مع إصرارها على ألا تتركنى إلا وقد مسحت آثارها جميعا، حاولت أن اتحايل على أفكارى حتى أتفرغ لهذا

رجع إلىّ السؤال الأول "هل هذا هو مكاني؟ هل أجد هنا الحل؟" تطلعت فى وجوههم فى حذر فتبينت قفزات البسمات اللاذعة والتحدى، غمرونى بالأسئلة عن مصر وأحوال مصر، وكأن لى مصادرى الخاصة تزودنى بالمعلومات السرية، كان علىّ أن أجيب إجابات محددة، وألا أعتذر أو أؤجل تحت أى ظرف

ابتدأت أحس بالاختناق من كثرة الأسئلة وطلب التوصيات من شخص عاجز جاهل وحيد مثلى، لم أشعر أن أحدا شعر بى منذ وصولى إلا شلبيه السهلة، وأمى لبضعة لحظات، وأبى رغم عناده.

الواجب ولكنى لم أستطع، فى أول الأمر نظرت إلى الساعة فتبينت أنها لم تتعد السابعة مساء، ياطول ما ينتظرنى من سواد الليل، هجمت على الوليمة أملأ بطنى بها، أخذت ألتهمها التهاما بلا رحمة وكأنى لم أنصرف عنها منذ قليل آملا أن تتخمنى فتخدرنى فأنام.

جمعت أمى بقايا الافتراس من عظام مهمشة، فى سعادة لا تتناسب مع طيبتها ورقتها،

* * *

خرجت فى الصباح التالى محملا بالزيارة التى كادت تنقطع بعد انقطاعى عن البلدة، وجلست أنتظر قطار الدلتا فى ركن خلف المقهى المكون من بعض جذوع الشجر المغطاة بأعواد القش والقابع فى مكان ما بين بيت حضرة الناظر ودار خالتى أم عوض، انتهزت فرصة غياب القطار حيث لا موعد له وأخذت أرتشف الشاى الأسود واسترجع السؤال فى هدوء "هل أجد هنا الحل"؟

كانت الحمير والجمال تمر على محملة بالسماد إلى الحقل، وبالتراب إلى الحظائر، يقودها الأطفال والرجال أو تقود هى الأطفال والرجال حسب موقعهم من بعض من أمام أو خلف، ملأنى الإعجاب بهذا العمل الدؤوب الذى لا يتوقف ليسأل "لماذا"، "أو إلى أين"؟ هذا الداء الوبيل الذى يستشرى فى خلايا العقل مع انتشار القراءة والكتابة والتلويح بأحلام أرضية،

تقدم منى شاب أشعث أغبر يخبط على صندوق الأحذية، تبينت فيه "زينهم" الذى كان آخر عهدى به صبى نجار، جلس تحت قدمى دون استئذان وحيانى بترحيب حقيقى؟ ناولته قدمى فى استسلام وانتهزت الفرصة لأتبادل معه آخر حديث قبل أن أغادر القرية مهزوما تماما.

هل تركت الأسطى عبد الستار النجار يا زينهم !

– من زمان.

حتى فرصة التأمل الصامت لم يسمحوا لى بها، أستأذنت فى أول فرصة، وانصرفت موجعا بنظرات لا أعرف محتواها تفصيلا، ولكنها كانت كلها على حد إحساسى أحكاما، أحكاما، أحكاما تكاد تخترق ظهرى

لا بد أن للعقل فضلات مثل الجسم، ولا بد أن نعرف طريقا للتخلص من الأفكار الزائدة التى لا جدوى منها فى الحياة اليومية

– وكيف حاله هو؟

– مشى فى حب الله.

– كيف؟ حدِّثنِى؟

– حدث ما حدث بين يوم وليلة، أصبحنا فإذا به ينادى أخاه ويسلمه العدة، ويوصيه بالأولاد، ويملأ مخلاته بالخبز الجاف، ثم يخرج دون سلام، منذ ذلك الحين لا أحد يعرف عنه شيئا، وإن كان يظهر أحيانا بالبلدة لبضعة أيام دون مناسبة، أو فى مولد سيدى الشيخ عمارة، وقد كثر الكلام ياسعادة البيه.

قالها وغمز بعينيه يستدرجنى لمزيد من التساؤل؟

– خير يا زينهم، ..أى كلام؟

– الكلام كثير، فمن قائل إنه عشق "الغزية" التى تحضر أيام المولد، ومن قائل إنه واصلٌ ومن أهل الخطوة، ومن قائل إنه يدخل البيوت يساعد النساء العواقر على الحمل، أرزاق يا سعادة البيه!!!

– كان سيد العاقلين وأنت خير من تعرفه يا زينهم.

– أحوال يا سعادة البيه، يدبرها سيدك؟.

إذا كان تدبير سيدى هذا هو التدبير الأمثل الذى يغرينى به كل ما يدور حولى فلماذا تصبح خالتى شلبيه الهبلة "هبلة"؟ وترفض هؤلاء الأحياء لتعيش بين القبور، ولماذا يسير عم عبد الستار النجار فى حب الله؟ ولماذا يقتلون كل من يشذ عن المجموع دون حيثيات أو مذكرة تفسيرية؟

التفتُّ إلى "زينهم":

– وكيف حالك أنت يا زينهم.

أجاب وعيناه تلمع فى خبث الصياد حين تغمز سنارته.

– زفت كما ترى يا سعادة البيه، ربنا يتوب علينا، ...

– من ماذا يا زينهم؟

كيف لمثلى أن يعرف الأفكار الزائدة من الأفكار الضرورية؟ لماذا ترك لنا الحكم والاختيار فى محتوى العقل ولم يترك لنا الخيار فى مسائل الجسم، أكاد أجزم أننا لو كنا نخير فى مسألة وظائف الجسم والعقل ويسمح لنا بالتساؤل حولها بلا شروط إذن لتوقفت جميعها نتيجة لغرور الإنسان وسوء استعماله للحرية.

إما أن نوهب التفكير على قدر احتياجنا له أو قدرتنا عليه، وإما أن نوهب نظاما ما نفرز به فضلات أفكارنا

– من البلاوى والغلب، ياليتك تجد لى عملا فى مصر.

صرخت كالملدوغ.

– فى مصر؟؟!!

– أيوه فى مصر، ..مصر أم الدنيا، .. وهل هناك أحسن من مصر؟

حضر قطار الدلتا فى دلال، وساعدنى زينهم فى حمل الزيارة إليه.

أخذت أنظر من النافذة والقطار يبتعد فى دلال أيضا عن البلدة.

ماذا أرجع به مع زيارة أمى؟

أنا لا أعرف ماذا أريد أن أبقى وماذا أريد أن أدع، هل أريد أن اتخلص من عقلى بالي؟ وهو أقرب إلىّ من عقلى؟ هل أنا أريد أن اطمئن وأرضى، أم أن أعرف و أمضى

أنظر من النافذة ولا أستطيع، والقطار يزيد من سرعته التى لا تزيد، وأنا لا أستطيع أن أميز بين حيوان ونبات وجماد... وبين الناس.

* * *

وغداً "الفصل السابع":

"وبالناس المسرة "

(إليس هذا أفضل لمن يريد أن يتابعنا..؟!)

أنا أسف

الإثنيـــن 11-06-2018

العدد: 3936 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى(من الإبداع الخاص)

الفصل السابع: "الزيارة" رواية الواقعة

لم أكن أطمع وأنا ذاهب لأمى إلا أن أطمئن على حياتها أو موتها سيان، ما وجدت نفسى فيه من مواجهة لأصلى أغرانى أن أرجع إليه لعلى أرتاح حياة سهلة تلقائية، حياة تقدم لك أجوبة حاسمة تلغى الأسئلة الحائرة قبل أن تظهر، تسليم بالأمر الواقع وإصرار عليه وكأنه من صنعهم هم دون سواهم

مقدمة

نواصل ابتداء من اليوم نشر فصول رواية "الواقعة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا أمس مؤجلين مواصلة عرض ما تيسر من النقد المقارن بين "لحس العتب" لخيرى شلبى و"قنديل أم هاشم" ليحيى حقى.

وهذا هو الفصل السابع

*****

(رواية "الواقعة") (1)

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

الفصل السابع:

"وبالناس المسرة"

طوال الطريق أثناء عودتى وأنا أحس بشعور جديد بزحف علىّ حتى غمرنى بثقل لا عهد لى به، منذ نفخ فى الصور ووقعت الواقعة عرفت الضياع والألم والنشوة والسخرية والحيرة ولكنى لم أواجه بمثل هذا الشعور الجديد قبل ذلك، بمثل

هذه الصورة، شعور أعمق من الحزن وأخبث من اليأس، لم أكن أطمع وأنا ذاهب لأمى إلا أن أطمئن على حياتها أو موتها سيان، ما وجدت نفسى فيه من مواجهة لأصلى أغرانى أن أرجع إليه لعلى أرتاح حياة سهلة تلقائية، حياة تقدم لك أجوبة حاسمة تلغى الأسئلة الحائرة قبل أن تظهر، تسليم بالأمر الواقع وإصرار عليه وكأنه من صنعهم هم دون سواهم، ماذا يحدث لو أنى أصبحت إنسانا منهم أو حيوانا أو نباتا أو حتى شاهد قبر كان لابد ليتحقق ذلك أن ألغى وعيى بمصيرى وبطبيعتى، وتمنيت أن تكون لى كرة ثانية أرجع فيها إلى أصلى حتى ذرة التراب وأقدم تعهدا ممهورا بكل الضمانات أن أتوب توبة نصوحا ولا أحاول الخروج عن طوقى ثانية على شرط ألا أتذكر ما كان أبدا، لكن من أدرانى أنى لن أصاب بداء الحياة وأنا كتلة من طين سرعان ما تتجرأ فتدب فيها الحياة فأسير نفس المسيرة عبر كل السنين لأصل فى النهاية إلى نفس ضياعى.

تمنيت أن تكون لى كرة ثانية أرجع فيها إلى أصلى حتى ذرة التراب وأقدم تعهدا ممهورا بكل الضمانات أن أتوب توبة نصوحا ولا أحاول الخروج عن طوقى ثانية على شرط ألا أتذكر ما كان أبدا

لا لن أرجع إلى أصلى إلا إذا قُدِّمت لى الضمانات بعدم تكرار ما حدث، أما أن أذوب إلى ذرات تكفيرا عما كان ثم أنظر فإذا بجلدى يحددنى إنسانا مرة ثانية فهذا هو الجحيم ذاته، .. أذوب ذرات وأتجمع هيكلا لأذوب ذرات ثم أتجمع إلى ما لا نهاية لا وألف لا، يفتح الله.

حاولت أن أرجع إلى موقفى الساخر العابث الذى أنقذنى من الجنون والضياع، ولو فى الظاهر، ذلك الموقف الذى سمح لى أن أواصل سيرى طوال هذه الفترة بين الناس دون أن أكتشف أو أفضح لم أستطع، كلما خطر ببالى تعليق ساخر تذكرت نظرات والدى وغضبه فأنكمش فى خجل مفتقدا التحدى الذى كنت أحدثه به.

يزحف على كل وعيى هذا الشعور الجديد الثقيل الذى لم يعرفه أحد، حزن له شكل آخر، أذكر أننى شعرت بشىء يشبهه من عشرات السنين، تكاد رائحته تأتى من بعيد وكأنه هو ذلك الثقل الذى يكاد يوقف نبضات القلب، ينسحب إلى كيانى فى عصر أيام الجمع أيام المدرسة الإبتدائية حين أتذكر أن غدا هو السبت

منقوع الزفت اللزج بكل همه وغمه وقسوته، كيف تمضى الساعات حتى بداية الحصة الأولى من يوم السبت اللعين، كيف يجثم الموت على نفسى بلا أمل فى الخلاص بقتله أو بقيام القيامة، ثم ينزاح رويدا رويدا بعد الحصة الثالثة ليحل محله تسليم مقهور، ثم تبدأ النشوة تداعب مشاعرى عصر الأربعاء انتظارا لشمس الخميس المشرقة ليتوقف الزمن عصر الخميس حيث كل شىء مسموح به، لكن المصيبة الكبرى تعاود الظهور عصر الجمعة حيث أكتشف أن الزمن مازال يمضى، تمضى الأيام ويزداد وعيى بقدوم السبت قبل أوانه وتعود مشاعر الغم تزحف رويدا رويدا حتى تلغى كل بهجة الخميس وتصبح حقيقة "السبت" قائمة كالقدر فى كل وعيى طول أيام الأسبوع لأن أى يوم لابد أن يلحقه يوم "سبت"ما، ولو بعد حين، حتى يوم السبت ذاته كان – وما زال– له سبت تال.

يزحف على كل وعيى هذا الشعور الجديد الثقيل الذى لم يعرفه أحد، حزن له شكل آخر، أذكر أننى شعرت بشىء يشبهه من عشرات السنين، تكاد رائحته تأتى من بعيد وكأنه هو ذلك الثقل الذى يكاد يوقف نبضات القلب

يرهقنى وعيى بالزمن والأيام وأنا أستسلم لقهر القدر، ما فائدة الوعى بالأيام ما دامت نهايتى دائما سبتا حزينا مثل برميل النفط يغرق فيه الأطفال، مات شعور الحزن الزاحف حين مات الوعى بالزمن تحت وطأة اليأس والتسليم، فما الذى أرجعه إلىّ هكذا وأنا راجع من البلد؟ كيف بدأ؟ وكيف تطور، !! ليس هو لكن ثمة صلة.

أتذكر حديثى مع أبى فى قبره، ما زلت لا أستطيع الجزم أنه كان فى قبره إلا إذا استطعت الجزم أنى أنا كنت خارج القبر، كلتا الحقيقتين تتبادلان بلا يقين، الشى ء الذى استطيع الجزم به هو أننى لم أستطع أن أتخلص منه، بعد الزيارة ظلت كلماته تغرينى وتدعونى وتتحدانى وتهددنى وترعبنى فى آن واحد، بعد الوليمة الدسمة التى ساعدت فى هربى بالنوم الطويل صحوت لأجده ينتظرنى، هذا الشعور الثقيل المتضخم فى بلادة وكأنه يزحزح الهرم الأكبر ليجثم على وعيى أنجح أن أدفعه قليلا حين أتذكر أن الزيارة انتهت وأنى سأتخلص من آثار والدى وكلماته إلى الأبد لأكمل حياتى الخاصة ولو متفرجا ساخرا، وتمضى بضع

ساعات فوق الأرض إلا أن جحافل الحزن تعود زاحفة مرة ثانية ويزداد ثقلها تدريجيا حتى تجثم على صدرى بلا أمل فى فكاك، ثم تبلغ قمتها وأنا أقترب من بيتى.

ثقل رازخ على قلبى ثقل حقيقى لا أعرف كيف أسير به حيث يرزح على كل خلية فى كيانى، هل هذه هى النهاية؟ هل هذا جزائى؟ لقد تخلصت منه طفلا بإلغاء وعيى به وبغيره، ثم ها أنذا أواجهه ثانية بعد يقظتى اللعينة، ماذا فعلت لأنال كل هذا الجزاء، وكيف أكفر عن ذنبى الموهوم حتى الكلمات تتباطأ فى فكرى وكأنها قد قدت من صخر الجرانيت الأسوانى؟ أكون الفكرة وكأنى أنقش على الحجر، هل آن الأوان أن يتوقف عقلى ويتخلص من هذه التناقضات برمتها؟ أين سخريتى اللاذعة وموقفى المسرحى وكوكبى الخاص؟ أين كل هذه الأفكار التى صحبتنى وأنقذتنى شهورا طوالا حتى حسبت أنى أكتشف الحل السعيد وأنى أستطيع أن استمر هكذا إلى ما لا نهاية؟ ثقل ثقل ثقل، حتى نَفَسى يدخل إلى صدرى فى بطء وكأن للهواء وزن، ويخرج منه فى تراخ وكأنه يحتاج مروحة كهربية لطرده، ثقل ثقل ثقل، كل شى ء بطئ بلا موت ولا حياة ولا أمل ولا حتى يأس فعال.

مات الوعى بالزمن تحت وطأة اليأس والتسليم، فما الذى أرجعه إلىّ هكذا وأنا راجع من البلد؟ كيف بدأ؟ وكيف تطور، !! ليس هو لكن ثمة صلة.

فتحت البنت الباب فربت على خدها وكأنى أراها لأول مرة هل أشفق عليها مما أنا فيه؟ هل أودعها بلا عودة؟ هل أكفر عن ذنبى؟ أشرق وجهها بالبشر لهذه اللفتة غير المتوقعة دخلت أجر ورائى "الزيارة" حتى ركنتها فى ركن خلف الباب ومضيت أطمئن زوجتى على صحة أمى حتى لا أتعرض لما لا أطيقه الآن من استفسارات دورية وأنا فى هذه الحال سألت عن الأولاد وتسلمت الإجابة ممهورة بالتوصيات والصبر الجميل.

ذهبت زوجتى تعد الحمام كما تعودت بعد هذه الرحلات حيث أرجع عادة محملا بالأتربة والحشرات، ولكنها لا تدرى بما عدت هذه المرة، لم أعترض رغم

شعورى بأن هش ذبابة هو عبء فوق طاقتى كنت آمل أن ينزاح عن صدرى بعض اثقاله مع تراب البلدة وحشراتها، دخلت الحمام وبدلا من أن أستعمل الماء الدافى ء المعد وجدتنى أفتح الدش البارد لعلى أفيق بعض الشى ء نزلت على جسدى المياه كالثلج ارتجفت بعض الوقت ثم بدأت أتعود الماء، تسرى فى جسدى وعقلى يقظة خفية آمل أن تتزايد وتستمر، لم يستجب لى صنبور الدش وأنا أحاول إغلاقه فأخذ يلف بلا انقطاع .. تذكرت عم محفوظ .. واستقيظ فى وجدانى أمل بعيد سوف أستدعيه على الفور ليصلح الصنبور وأشياء أخرى إن أمكن.

* * *

دخلت عليه وقد انهمك فى عمله واضعا صندوقه الصاج بجواره ووجهه مشرق بضياء لا تخطئه عينىّ محتاج.

– مساء الخير يا عم محفوظ.

– مساء النور يا سعادة البيه.

– كيف حالك؟.

– رضا والحمد لله.

– كيف حال الأولاد يا عم محفوظ؟

– بخير والحمد لله.

كل شى ء رضا وخير والحمد لله كيف أفتح معه الحديث الآخر؟ ماذا يقول عنى ...؟ لن أتراجع على أى حال وليكن ما يكون.

– أريدك فى كلمتين يا عم محفوظ.

– تحت أمرك يا سعادة البيه.

– أفضل الذهاب إلى حجرتى حتى لا يسمعنا أحد.

تعجب الرجل ولكنه تبعنى فى صمت.

تمضى بضع ساعات فوق الأرض إلا أن جحافل الحزن تعود زاحفة مرة ثانية ويزداد ثقلها تدريجيا حتى تجثم على صدرى بلا أمل فى فكاك، ثم تبلغ قمتها وأنا أقترب من بيتى

جلست على الأريكة العربية وحاول أن يجلس على الكرسى المقابل فدعوته للجلوس بجوارى على الأريكة حتى أحس بالاقتراب منه، طال الصمت، بدا أنه لا ينوى أن يقطعه.

– أنا فى أزمة يا عم محفوظ وأعرف أنك رجل طيب وأطمع فى مساعدتك.

– أنا يا سعادة البيه؟ ربنا يستر عرضك.

هل يقفل على الطريق بهذه السرعة؟

– أزمة حقيقية يا عم محفوظ.

– أنا رجل على قدر حالى ولا أنسى أفضالك علىّ، "مصاغ" زوجتى هو كل ما أملك وهو تحت أمرك حتى تفك أزمتك، والله يسترنا ويسترك.

هذا الرجل، ... هذا الرجل: هذا الرجل، لم أستطع أن أتمالك نفسى ووجدت دموعى تنهار بلا مقدمات نظرت إلى الباب لأتأكد أنه مغلق، وانسابت دموعى أكثر فى صمت، انزعج الرجل أول الأمر ثم أخذ يربت علىّ بحنان بالغ وقد أشرق وجهه بنور لم أر مثله، كدت أميل على صدره وأجهش بصوت عال لولا خوفى من الآثار المحتملة خارج الحجرة.

– الدنيا بخير يا سعادة البيه، المؤمن مصاب.

كدت أقول له أنى لست مؤمنا ومع ذلك فأنا مصاب مصيبة سوداء ولكنى تراجعت ليس لمجرد خوفى منه أو عليه ولكن لأنى لم أكن واثقا هل أنا مؤمن أم لا، ... نظر إلى طويلا ومازالت الدموع تنهمر على خدى وكأنها تستغيث به أكثر، لمحت فى عينه دمعه تتدحرج فخجلت من نفسى وتذكرت بلا مناسبة نظرة والدى الحادة، توقفت عن البكاء وقد غمرتنى راحة لم أشعر بها منذ سنين.

– المسألة ليست مسألة نقود ياعم محفوظ.

بدت على وجهه ظلال الدهشة ولكنها لم تحجب النور المشرق من دمعة لم تنزل. قسمات وجهه الصبوح تحتوينى فى طياتها، أكملت حديثى بشجاعة أكثر.

دخلت الحمام وبدلا من أن أستعمل الماء الدافىء المعد وجدتنى أفتح الدش البارد لعلى أفيق بعض الشىء نزلت على جسدى المياه كالثلج ارتجفت بعض الوقت ثم بدأت أتعود الماء، تسرى فى جسدى وعقلى يقظة خفية آمل أن تتزايد وتستمر

– المسألة أنى لم أعد أعرف كيف أعيش، وأكاد أجزم أنى لا أستطيع الاستمرار،

قال لى فى يقين كامل...

– كفى الله الشر، إخز الشيطان واستعن بالله...

– كيف يا عم محفوظ، كيف أستعين بالله، ياليتنى أستطيع.

صمت الرجل وأخذ يفكر بجد، حمدت الله أنه لم يتماد فى نصائحة وإرشاداته، كان أقصى ما يمكن أن أتعرض له هو أن ينتهى الموقف ببعض الدعوات والأيات، ظل مطرقا يفكر فى هم حقيقى، أحسست أنه يفكر معى وأنه وصلته حكاية "كيف" هذه، شعرت أنه يعرف "كيف" ولكن تعوزه الكلمات، ساد الصمت المملوء بتبادل المشاعر فترة لا أعرف مداها وتمنيت أن نستمر هكذا إلى مالا نهاية، هذا هو غاية الوجود: أنا مع إنسان آخر نبضة بنبضة دون ألفاظ أو استعلاء ولا امتحان ولا نصيحة ولا علم، الآن أستطيع أن أموت دون ندم، كفكفت دموعى وتسربت ابتسامة هادئة إلى وجهى دون دعوة، أحسست أنى مثل طفل تأكد من أن أباه قد عفا عنه إلى الأبد، مازال عم محفوظ مطرق إلى الأرض وإن كان وجهه قد بدأ ينفرج عن رضا مشع وإشراق مضئ نظر إلى فى رحمة ورأى ابتسامتى البديعة فأشرق وجهه أكثر وكأنه دخل الجنة، قال فى يقين يكفى كل أهل الأرض.

لم أكن أتصور أن المسافة بين الناس يمكن أن تنمحى فى لحظات بلا خوف ولا حساب

– إن شاء الله.

اندفعت بلا تفكير أقبل يده فانزعج بلا حدود، وحاول أن يبتعد مستغفرا الله عدة مرات ولكنى صممت على تقبيلها، فقبل يدى بدوره.

عاد كل منا إلى موقعه، كنت حذرا فى تساؤل، وكان خجلا فى وداعة، الرضا السائد غلف كل المشاعر دون أن يحل محلها.

– لا تتركنى يا عم محفوظ.

صمت فى تقبل متواضع ولم يرد، أكملت أنا:

– أريد أن أزورك فى بيتك،

– تحصلنا ألف بركة، ربنا يخليك.

– ربنا يخليك أنت.

غلبه الخجل حتى لم يرفع عينه من الأرض ثم استأذن وانصرف بعد أن أخذت عنوانه.

***

لم أفهم ماذا حدث وكيف، لم أكن أتصور أن المسافة بين الناس يمكن أن تنمحى فى لحظات بلا خوف ولا حساب.، عم محفوظ يقبل يدى! يدى أنا! أنا أبكى على صدر حنانه؟ هل هى دعوات والدى أو رضا أمى بعد أن زرتها بعد غيبة طالت، هل آن الأوان لأمشى فى ضوء القمر... ثم تشرق الشمس؟ هل حدث ما حدث فعلا أو هو حلم عابر من أحلام الجوع والحرمان؟ ناديت أولادى وزوجتى واجتمعنا بسرعة جلوسا على السرير كما لم نجتمع منذ شهور أرسلنا البنت تشترى فولا سودانيا ساخنا، وأمضينا ليلة عامرة بالود والدفء والأمل...

جئت إليه ألتمس بركته فلم أجده إلا بعيدا عنى بقدر ما هو قريب من شىء مما فى داخلى، ولكن من أين له أن يرى داخلى؟ أنا لا أعرف داخلى، لن أخدع نفسى فما أنا إلا كومة قاذورات

***

أخذت أقطع الحارة إلى بيته وأنا متردد يراودنى الشك أننى سوف أكتشف أن ما حدث لم يكن إلا حلما، الحجارة التى رصفت بها الحارة متآكلة، بقايا الإنسان تملأ الطريق وحوانيت الخردة لم تغلق جميعها، وإن كان الصبية يجمعون قطع الحديد والتروس والصناديق من أمامها ليدخلوها إلى جوف المحل استعدادا للإغلاق، يحسبنى أصحاب الحوانيت زبونا يبحث عن قطعة غيار فيتلكأ الصبية فى جمع الأشياء ونقلها للداخل ولكنى أمضى فى طريقى أتطلع إلى أرقام البيوت التى اختفى أغلبها متبادلا معهم أحيانا بسمه اعتذار خجلة، سألت عن منزله ودلونى عليه بعد الدهشة، صعدت الدرج الحجرى المتآكل وأنا أدعو الله ألا أكتشف أنى كنت فى حلم، داخلنى خوف آخر: أن أفاجأ به فى بيته إنسانا آخر

من الذين يستعملون طيبتهم فى أوقات العمل الرسمية، استبعدت هذا الخاطر – طيب– ماذا لو وجدته متزمتا مع أهل بيته وراء الأسوار؟ كان ينبغى ألا أبالغ فى تصويره بالصورة التى أريدها حتى أتجنب المفاجآت.

فتحت لى الباب سيدة بشوشة بيضاء أقرب إلى الامتلاء، ترتدى قميص نوم صريح متسامح، تربط رأسها بمنديل به " ترتر" كبير الحجم مثل قسمات وجهها المنفرجة عن تلك الضحكة الموجهة فى غير تردد، الحمد لله، جاء صوته من الداخل فزادت طمأنينتى.

– مين يا زكية.

راحت الكلمات تزغرد فى حلقها.

– واحد بيه يسأل عنك يا أسطي.

تفضلتُ بناء على دعوتها الصريحة دون أن تنتظر الإذن من داخل، خفضت عينى بلا داع وأنا أمر خلال الدهليز الطويل وكان يغمرنى شعور بالامتنان والرضا ينتهى الدهليز بباب حجرة صغيرة فى آخره وباب حجرة أخرى على جانبه وكان عم محفوظ منهمكا فى إصلاح شى ء بين يديه تبينت فى ما بعد أنه راديو ترانزاستور (!!) رفع رأسه ليرى مَنِ الداخل وهمَّ بالوقوف حين رآنى ولكنى لحقته لأجلس بجواره على الأرض، أخذ يحاول أن ينقل المسند الذى وراء ظهره إلى فى إصرار، جلست وكأنى أستظل بالسرير الحديد ذى القوائم السوداء التى ترتفع حتى تكاد تلامس السقف.

جاءتنى أصوات كوم "العيال" من الحجرة الأخرى واستطعت أن أتبين وسط الضجة كلمات من كتاب المطالعة مختلطة بآيات قرآنية وسباب من واقع الحال دون تداخل ...

– أهلا وسهلا يا سعادة البيه زارنا النبى.

– إسمع يا عم محفوظ حتى أرتاح لا تقل لى يا سعادة البيه.

ربك غفور وهو عنى راض.

– من أدراك؟.

– طالما أنا راض عنه فهو راض عنى والحمد لله.

– أستغفر الله، ماذا أقول إذن.

– قل لى يا عبد السلام.

– يا خبر، ...!!!،

– ألا تحب راحتي.

سكت قليلا ثم نظر إلى وكأنه يحتضننى بوجهه ثم ضحك بصوت رنان وقال وكأنه اكتشف الحل،

– أقول لك يا سيدنا، .

انزعجت وتساءلت: إلى أى طريق يأخذنى؟

– ما هذا يا عم محفوظ.

– أنت سيدنا والله العظيم وسوف ترى ...

– أرى ماذا يا عم محفوظ، ... ماذا جرى.

– كنت أكرم الناس لما نزل الماء الطاهر من عينيك وهذه كرامة الصالحين.

يبدو أنى أخطأت الطريق ثمة خطأ قد حدث ولابد من الإسراع بتصحيحه .

– أنت لا تعرفنى يا عم محفوظ، وكل هذا الكلام يربكنى ويخجلنى أنا ما جئت هنا إلا لأطمئن أن بيتك فى متناولى، وأنك لن تتركى ..

قال بلا تردد:

– يوم الهنا يوم شرفتنا، أنت لا تعرف مقامك.

(مقامى ماذا يا رجل؟! هذا الكلام لا يمكن أن يستمر وإلا فأنا عرضة لتصديقه)

تمنيت أن أصدق ما يجرى بشكل ما، فلربما يوجد تحت أكوام القمامة الممتزجة بالنفط شىء طاهر.

– يا عم محفوظ كفى هذا، كتر خيرك، أخبرنى عن نفسك.

– أنا عال العال بحسك.

لابد من الإصرار، لن أدع الفرصة تفلت من يدى تحت وهم طهارتى السرية.

شىء فى داخلى يقترب فى تردد حتى كدت أصدق أننى "بركة"، ملكنى هدوء غامر ذكرنى بما عشته معه من قبل حتى عادت إلىّ نفس الصورة: "كأن طفلا تأكد من أن أباه قد عفا عنه إلى الأبد".

– جئت أحدثك عن أزمتى يا عم محفوظ.

– لا أزمة ولا غيره، هذا رضا رب العالمين، كل الناس الصالحين لابد لهم من أزمة وأزمات، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى حتى تتخلل الدموع لحيته، أنت لا تعرف نفسك فلا تحط من مقامك لأن الله كَرَّمك.

– لست على يقين من أنه كرمني.

– الله كرم بنى آدم يا رجل لا تكفر بالله.

لم أعد أطيق هذه المفاجآت، أين أنا؟ وأين هو؟ ماذا لو علم خبثى وأطماعى؟ ماذا لو علم نزواتى وعجزى هذه الأيام؟ لماذا يقطع علىّ الطريق هكذا؟ جئت إليه ألتمس بركته فلم أجده إلا بعيدا عنى بقدر ما هو قريب من شى ء مما فى داخلى، ولكن من أين له أن يرى داخلى؟ أنا لا أعرف داخلى، لن أخدع نفسى فما أنا إلا كومة قاذورات.

الأطفال يتقافزون حولى، زوجته تتحرك فى سهولة ويسر، ووجهها يمتلئ بشرا كلما راحت أو جاءت وكأنها تكتشف فى كل لحظة معنى جديداً للحياة.

لن أستسلم، سوف أدافع عن قذارتى، أو على الأقل عن عماىَ.

– يا عم محفوظ أرجوك أن تسمعنى وأن تقدر موقفى فما جئت هنا إلا لألتمس رضاك وأتعلم منك .

– ما هذا الكلام؟ لماذا لا تنظر إلى نفسك؟.

– المصيبة بدأت حين نظرت إلى نفسى.

– إحساسى لا يكذب لابد أنك لم ترها جيدا.

– أرجوك إسمعنى ...

بدا عليه الرفض ومع ذلك استمر فى ابتسامته المشرقة، قررت أن ألقى عليه ما يفيقه، حتى أتمكن من إكمال الحديث كما أريد.

– أنا لا أصلى يا عم محفوظ .

صمت قليلا ثم قال:

تمرنى ما شعرت معه أن كل خلية من خلاياى قد استقرت فى موضعها، ومع ذلك فإن الأفكار ظلت تلاحقنى: هل يكون هذا هو الحل؟ هل نعيش لنربى العيال؟ كل العيال، فيملؤون الدنيا خيرا وبركة؟ هل نجد معنى للحياة حين نجد من يشعر بنا دون أن نخافه؟

– .. هذا شأنك معه.

(لا أكاد أعرف معنى ما يقول)

– أخشى أن تكون قد أسأت فهمى.

– قلبى أحبَّك ولا أعرف غير ما أقول.

(أصرّر على التحدى سوف أتجاهل كل ما فات) أسأله مباشرة:

– لماذا تعيش يا عم محفوظ.

قال دون تردد:

– العيال أحباب الله ونحن نكسب ثوابا فى تربيتهم.

تذكرت "لمعى" و"جميل" أولاد نصحى افندى.

– كيف نربيهم، ولماذا؟

– حتى يملؤوا الأرض خيرا وبركة.

كيف يحمينى يقينى من عالم مجهول وأنا عرضه لنهش الصقور والذئاب فى كل موضع كل ليلة؟

لن أصل إلى شى ء حتى لو حكيت له عن مقبرة "وادى الملوك" حيث يقيم نصحى وزوجته وأولادهما، أحسست أنى نسيت نفسى وكأننى أناقش الأستاذ غريب، قلت وقد بدأ الغيظ يتراكم داخلى:

– ولماذا يعيش من ليس عنده أطفال يا عم محفوظ.

– الأطفال ملء الأرض وأنت سيد العارفين.

لن أصل إلى شيء علىّ أن أحترم كل ما يجرى دون محاولة فهم، حاولت أن ألغى ما حدث ويحدث، لم أستطع بأى درجة، فقد هزنى كل حرف نطقه، لم أنجح فى استجلاب الذهول أو النسيان، حاولت تشويه الموقف فتذكرت بعض ما تعلمته من نصحى افندى، فلابد أن هذا الرجل يرى كل الناس مثله لا أكثر، لماذا لا يرى ضياعى وقذارتى؟ لعل له شيخا واصلا من أهل الله علمه هذا، هذا رجل هارب والسلام، لم ينجح كل ذلك أن يجعل وجهه أقل نورا وإشراقا هل يكون هذا هو الطريق.

تذكرت أبى فجأة، ...

– هل تمسك "وِردا" يا عم محفوظ.

– لماذا الورد.

– لتذكر الله.

– أنا أذكره ليل نهار، ما حاجتى للورد .

زادت حيرتى وتذكرت والدى وهو يتلو ورده اثنى عشرة ساعة فى اليوم طوال أربعين عاما، لم يغادر العبوس وجهه إلا لحظات معدودة، أين هو من كل هذا البِشْر على وجه عم محفوظ؟ ولماذا لم يعرف والدى هذا الطريق رغم طول تسبيحه؟ حتى حين ظهر لى من القبر كان مازال عابسا يتلو ورده الذى حجبه عن الناس، وكأن ما قرأه فى الدنيا لم يكفه فكان عليه أن يكمله فى الآخرة، كأن عليه أن ينقل عداد المسبحة إلى مالا نهاية قبل السماح له بدخول باب الرحمة، حيرتنى يا عم محفوظ الله يسامحك. من أين آتيك وكيف أفهمك.

لقد ذهبت إلى أطباء وقالوا لى إنى مريض.
– القلب يمرض إذا نسى ذكره، وأنت لا تنسى ذكره، .. وعلى الطبيب أن يلزم اختصاصه

– ليس لك ورد يا عم محفوظ فهل لك شيخ.

– رد بإصرار:

– قل شاء الله يا أهل الله.

– أعنى هل أخذت العهد على شيخ طريقة، .. هل تسلك مع السالكين.

– العهد عهد الله، ماذا جرى يا سيدى البيه؟ لماذا تصر على وصل العبد والله أقرب إليك من نفسك...

– من نفسى أنا أم من نفسك أنت، لا تظن كل الناس مثلك يا عم محفوظ.

– مثلى ماذا يا سيدى؟ ليس كمثله شى ء يا رجل، لا تكثر من التفكير، إعرف نفسك، ولا تقلل من قيمتك.

إعرف نفسك إعرف نفسك ماذا جرى لك يا عم محفوظ يا ليتنى عرفتها، إذن لما جئت إليك، لن يخدعنى كرمك وإلقاء البركة علىّ دون حساب، لابد أن أعرفك أنت أولا حتى أعرف نفسى .. لن أدعك تهرب منى يا رجل.

– وهل تخاف النار يا عم محفوظ.

– لماذا؟.

– نار الله للعصاة يا عم محفوظ

– وأنا مالى يا سيدنا؟

– لم ترتكب معصية أبدا.

– ربك غفور وهو عنى راض.

– من أدراك؟.

– طالما أنا راض عنه فهو راض عنى والحمد لله.

سكت بعد يأس حقيقى من أن أهزه حتى يشاركنى أى مما أنتظره منه، أطرقت إلى الأرض وساد الصمت فترة نظرت فيها إلى نفسى؟ هل أصدق أن فىّ خيرا ما؟ أين كان مختفيا قبل ذلك؟ وأين هو الآن؟ هل من حقى أن أشعر به فعلا؟ وماذا لو شعرت به فصفعنى والدى أو بصق فى وجهى؟ هل يحمينى عم محفوظ بحسن نيته؟ يقينه هكذا يزعجنى ولا أعرف كيف أتخلص منه أو أشك فيه،

الناس لا يكونون شرا إلا إذا ابتعدوا عن أنفسهم، عن خلقة ربهم، الناس الذين خلقهم الله على شاكلته هم الناس، وأنت سيد العارفين

قطع علىَّ تفكيرى واضعا يده على كتفى فأحسست برعشة تتملكنى، صعبت على نفسى، قال فى حنان واضح وصدق لم أستطع أن أتجاهله:

– لماذا تشغل نفسك بكل هذه الأمور وأنت الخير والبركة، أنا أحبك ورأس سيدنا الحسين.

لم أستطع الاحتمال وأجهشت بالبكاء حتى علا صوتى، أقبل علىَّ يحيط بذارعه كتفى البعيد دون تردد، مال على يدى التى استراحت على ركبته يقبلها وأنا فى استسلام ذاهل، شى ء فى داخلى يقترب فى تردد حتى كدت أصدق أننى "بركة"، ملكنى هدوء غامر ذكرنى بما عشته معه من قبل حتى عادت إلىّ نفس الصورة: "كأن طفلا تأكد من أن أباه قد عفا عنه إلى الأبد"،

حضرت زوجته تحمل أكواب القرفة ولم تفارقها الابتسامة التى استقبلتنى بها، يبدو أنها انتظرت حتى انتهى صوت النشيج الذى لم أجد حرجا فى أن أعلنه فى هذا المكان حتى لو وصل إلى أسماعها، هذا عكس ما شعرت به فى بيتى مع زوجتى، أخذت أحتسى كوب القرفة رشفة رشفة وأنا أتساءل: هل يكون علاجى بالحضور إلى هنا، أتلقى كل ما لا يوصف هكذا، كلما تعقدت الأمور.

نظرت إلى زكية ورأيتها جميلة جمالا آخر لم أره فى امرأة طول حياتى، نظرت هى إلى بود حقيقى وقالت فى إصرار.

– والنبى تدعو لى يا عم البيه.

قلت لها فى تسليم مضحك.

– ربنا يكرمنا جميعا، .....

غمرنى ما شعرت معه أن كل خلية من خلاياى قد استقرت فى موضعها، ومع ذلك فإن الأفكار ظلت تلاحقنى: هل يكون هذا هو الحل؟ هل نعيش لنربى العيال؟ كل العيال، فيملؤون الدنيا خيرا وبركة؟ هل نجد معنى للحياة حين نجد من يشعر بنا دون أن نخاف؟ إذا كان عم محفوظ قادرا أن يعيش كل هذا اليقين فمن أين لى بمثله؟ كيف أضمن بقاءه ولو بضع ساعات دون فكر يفسده أو يؤكده فيشوهه؟ كيف أتجنب الهجوم من كل ثغرة سواء كانت فكرة فى عقل غريب أم تحليل فى عقل نصحى أم نظرة من عين زوجتى أم تعليق من أهل قريتى؟ كيف يحمينى يقينى من عالم مجهول وأنا عرضه لنهش الصقور والذئاب فى كل موضع كل ليلة؟ إذا كان عم محفوظ قد وصل إلى هذا اليقين لسهولة حياته أو نقاء فطرته فكيف أستقر أنا عليه وأنا على قمة بركان لا يهدأ إلا ليعاود القذف بحممه فى كل اتجاه بلا هدف؟ عم محفوظ لم يمرض ولم يذهب إلى أطباء ولم يسمع نصحى أفندى، ولم ير خيالا فى المقابر.

قلت أسأله فى آخر جولة ...

فضل الله، .. الحمد لله...!!! كله من فضل العلم والمعرفة.

نسيت نفسى وقررت ألا أكف عن إغاظته جزاءا وفاقا لما مارس فىّ من "تحليل" تحملته طوال هذه المدة

– هل أنا مريض يا عم محفوظ؟

حمدت الله أنه لم يبادر باتهامى بالبركة والطهارة مثل كل مرة.

قال بعد تفكير:

– إيش عرفنى؟ لماذا تغلب نفسك بكل هذه الأسئلة.

– لقد ذهبت إلى أطباء وقالوا لى إنى مريض.

– القلب يمرض إذا نسى ذكره، وأنت لا تنسى ذكره، .. وعلى الطبيب أن يلزم اختصاصه.

ها هو يعاود اتهامى بالإيمان والبركة، لم أحاول هذه المرة أن أعاود ما سبق أن حاولت تذكره حول فسادى وعصيانى فواصل عم محفوظ كلامه:

– وسوس لى الشيطان مرة فعكفنى عن الناس والعمل أكثر من شهرين، ثم أنعم الله على برحمته فاستعنت بالناس على الشيطان فى نفسى، فأصبح يخاف منى ومنهم، .

ضحك من أعماقه حتى اهتزت أركان الحجرة،

قلت فى خبث:

– الآية ليست هكذا ياعم محفوظ.

– أستغفر الله العظيم.

– تعوذ بالناس من شر الوسواس الخناس.

– لا فرق بين الناس ورب الناس.

– الناس شر يا عم محفوظ.

– يا نهار أسود، ولا مؤاخذة الناس لا يكونون شرا إلا إذا ابتعدوا عن أنفسهم، عن خلقة ربهم، الناس الذين خلقهم الله على شاكلته هم الناس، وأنت سيد العارفين،

فرحت أنى استدرجته لهذه الغضبة رحت أتساءل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا يترك عبد الستار النجار الناس فى بلدنا ليمشى فى حب الله؟ ولماذا تترك خالتى

طبعا، .. ولكن العلم والمعرفة من فضل الله.

قال فى انزعاج أكبر:

– أنت تمزح، ما هكذا يقول التحليل، ألم تناقش هذا الموضوع مع الاستاذ المحلل.

شلبيه الناس الأحياء إلى المقابر لتأتس بالموتى؟ ولماذا كانوا ينهشون لحمى بمجرد أن أغفل ولو بضعة ثوان؟ أليس ناس بلدنا هم أقرب الناس إلى ما يقول؟ لابد أن فى الأمر سرا ولن أستطيع الحصول عليه منه الآن، وحتى إذا حصلت عليه فلن آمن إليه مادمت لا أعرف كيف يجى ء وكيف يذهب.

لم أستطع أن أتخلص من السكينة التى غمرتنى بالرغم منى، خفت منها، فترحزت قليلا، لكن ما بقى كان يكفى.

***

ذهبت إلى المكتب فى اليوم التالى بعد انتهاء الإجازة العارضة وما زالت الراحة تملؤ وجدانى رغم أن فكرى لم يكف على المناورة، استقبلنى الأستاذ نصحى بالترحاب حتى بدا الشوق فى عينيه، جزعت من هذا الاستقبال الحار إذ لم يعد عندى أى رغبة أو قدرة على مواصلة الحديث معه بأى صورة ولا لأى هدف.

لماذا تنزعج من ذكر الله هكذا يا أستاذ نصحى.

– هذه أوهام نضحك بها على أنفسنا حين لا نعرف أنفسنا.

– وماذا يمنع أن نعرف أنفسنا ونعرف الله معا؟

اعتذرت له عن استدراجى للكلام بانشغالى بمرض أمى فلم يرتدع، ادعيت أن صاحبه نصحنى بأن أكف عن الكلام والتحليل والتفسير بعيداعن العيادة، نزل عليه هذا التحذير كالصاعقة إذ يبدو أنى كنت بالنسبة له "لقطة" يمارس فيّ هواياته الخاصة، بدا الشك فى عينيه وكاد يرفض، إلا أنه رضخ أخيرا بحماس كاذب.

– هذا هو الصواب بعينه وهو يدل على أنك وصلت إلى مرحلة متقدمة من العلاج،

– الحمد لله، كله من فضله.

– من فضل من؟.

خطر لى خاطر أن أتمادى معه هذه المرة بطريقة أخرى وكأنى ألعب، وكأنها تحية أهديها لعم محفوظ، قلت:

– من فضل الله.

حاول أن يخفى انزعاجه أو خيبة أمله فىّ، ولكنه لم يستطع الصمت فرد قائلا:

– هذه ألفاظ تعودنا عليها ومن الصعب التخلص منها، معك عذرك.

أعجبتنى اللعبة حتى رحت أبحث عن ذلك الجزء الذى زعم عم محفوظ أنه رآه فى بالرغم منى لعله يساعدنى فى إكمال الدور، قلت فى خبث:

– عذرى؟ عن آية ألفاظ تتحدث، .. يا نصحى افندى .

– فضل الله، .. الحمد لله...!!! كله من فضل العلم والمعرفة .

نسيت نفسى وقررت ألا أكف عن إغاظته جزاءا وفاقا لما مارس فىّ من "تحليل" تحملته طوال هذه المدة، قلت متحديا بلا اقتناع:

– طبعا، .. ولكن العلم والمعرفة من فضل الله.

قال فى انزعاج أكبر:

– أنت تمزح، ما هكذا يقول التحليل، ألم تناقش هذا الموضوع مع الاستاذ المحلل.

خشيت أن يستدرجنى إلى لغة التحليل مرة ثانية، فكرت فى الانسحاب، ولكنى كنت قد استغرقت فى اللعبة فاستدرجته أنا:

– لماذا تنزعج من ذكر الله هكذا يا أستاذ نصحى.

– هذه أوهام نضحك بها على أنفسنا حين لا نعرف أنفسنا.

– وماذا يمنع أن نعرف أنفسنا ونعرف الله معا؟

قال وكأنه يخطب:

– هذه خدعة التسليم للخرافة، هذا جهل لا يتناسب مع العصر.

زادت رغبتى فى إشعال حماسه الخائف فقلت بلا تفكير وكأنى أكمل كلامه فى سخرية أولاد البلد حين يدخلون لبعضهم "قافية":

قال وكأنه يخطب:
– هذه خدعة التسليم للخرافة، هذا جهل لا يتناسب مع العصر

– والعصر، إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا، ...

كاد يفقد وعيه، أحسست فى عينيه بالقاتل يطل فى إصرار حتى اختفت رقته الدمثة، وعجبت من حاله لأنى أراه لأول مرة بهذا الرعب والتشنج رغم تظاهره بالمعرفة العلمية التى تفسر له كل الأشياء، قال يحاول أن يلغى كل ما سمعه وأن يدارى خيبة أمله فى فى نفس الوقت.

– أنت تمزح.

انسحبت فى اللحظة المناسبة وإن لم تخل لهجتى من سخرية لم يلحظها.

– طبعا.

انصرف عنى فى أسف علىّ، وربما اختلط أسفه بشىء من الاحتقار لم يخففه زعمى أو اعترافى بأنى أمزح، تبدو أن خسارته فىّ كمجال لممارسة هوايته كادت تخل بتوازنه.

عدت إلى عملى وأنا أتساءل هل كان ردى عليه مجرد لعبة ورغبة فى إغاظته أم أنه خرج من ذلك الجزء الخفى الذى يزعم عم محفوظ أنه أنا، هل أنا مؤمن رغم أنفى ..

أقبلت على عملى فى هدوء وثقة لم أعهدهما فى نفسى منذ زمن طويل.

ترى إلى متى يستمر هذا الحال؟.

***

اقترب منى أسعد افندى كميل دون مناسبة فقطع على استغراقى فى العمل وسكونى الداخلى معا، .. ومع ذلك أحسست برغبة فى، أو قدرة على الحديث معه.

– أستاذ عبد السلام: سعيدة،

– صباح الفل.

– أنا ألاحظ علاقتك بالأستاذ نصحى منذ فترة وأحب أن أحدثك على انفراد.

العصر، إن الإنسان لفى خسر
إلا الذين آمنوا، ...
كاد يفقد وعيه، أحسست
فى عينيه بالقاتل يطل فى
إصرار حتى اختفت رقته
الدمثة، وعجبت من حاله
لأنى أراه لأول مرة بهذا
الرعب والتشنج رغم تظاهره
بالمعرفة العلمية التى تفسر
له كل الأشياء

– فى ماذا يا كميل افندى؟.

– أنا أعرف نصحى أكثر منك، .. وقد مر بظروف لا تعرفها.

ترددت فى السماح ولم أعلن الرفض صراحة لكنه التقطه ومع ذلك لم يردعه ذلك، استمر فى إصراره وهو يتلفت ليتأكد أن أحدا لا يسمعنا أكمل هامسا:

– هو رجل ملحد أفسدته عقده النفسية وقد سمعت طرفا من حديثكما منذ قليل، وأعجبت بقوة إيمانك.

– قوة إيمانى .! أنا.

– لابد أن نحارب الملحدين فى كل مكان.

– نحارب مَنْ يا أسعد افندى، .. ماذا تقول؟

– الملحدين، ..

– وكيف نعرفهم حتى نحاربهم؟ كيف نميزهم يا أسعد افندى؟

قلتها وكأنى خائف على نفسى، تعجب أسعد افندى من سؤالى وظهرت فى عينيه رغبة وعظية أكيدة أثارت فى نفسى الظنون والحذر، قال فى لهجة لا تخلو من استغراب:

– الملحد هو الملحد، .. يا أخى عجايب عليك.

الوقاية واجبة ضد الوعظ والإرشاد بالرغم من كل شى ء فأنا لم أحدد موقفى النهائى، كنت دائما أخاف من التسليم للإلحاد خوفى من الإيمان، قررت أن أنهى الموقف بسرعة خشية أن ينتهى بتصنيفى قبل الأوان، قلت فى بله فاتر:

– الملحد هو الذى لا يؤمن بالله أليس كذلك.

قال فى سعادة وكأنى أفتيت فى معضلة جديدة يبدو أنه استعاد ثقته بى.

– طبعا كل شرور هذه الأرض هى نتيجة لغضب الله علينا.

من أين ظهر لى فجأة هذا الواعظ فى هذا الوقت بالذات لقد رأى عم محفوظ شيئا فى داخلى لا أعرفه وقبل أن أتحسس طريقى إليه قفز لى هذا الخطيب

لابد أن نحارب الملحدين فى كل مكان.
– نحارب مَنْ يا أسعد افندى، .. ماذا تقول؟
– الملحدين، ..
– وكيف نعرفهم حتى نحاربهم؟ كيف نميزهم يا أسعد افندى؟

المتحمس، لماذا لا يدعنى لفرصتى الجديدة؟ هل كتب على أن يعالجنى أو يهدينى كل هواة العالم؟ تفكيرٌ أبى أن يتركنى وكأنه يخاف أن أستسلم لسكينتى المتسحبة.

– وما العمل يا أسعد أفندى؟.

– الرجوع إلى الله، ..

ما أسهل الكلام وما أخفى الطريق سألته السؤال الخالد باهتمام بارد رغم مخاوف الجدل:

– كيف؟.

قال كأنه وجد ضالته:

– أنا أدعوك لزيادة دير فى الصحراء أتردد عليه عند الشدائد، وسوف تجد فيه الهدوء والمعرفة معا.

قلت وأنا أتذكر حارة عم محفوظ المظلمة ورائحة بيته الرطبة:

– فى الصحراء.

– نعم فى الصحراء.

– ولماذا فى الصحراء.

– هناك حيث الطبيعة صامتة قوية تظهر الحقائق، ويتوارى الشك هناك حين يختلط الأزرق بالأصفر تهبط رحمة الرب على الأرض، فتغمرك بلا حساب.

ابتسمت دون شفقة، حاولت أن أفهمه وجهة نظرى ومخاوفى من أننى سوف أرجع إلى الطين والتراب والأتوبيسات والمكتب حيث يختلط الأسود والأبيض ليخرج منه هذا البخار المغبر الرمادى الثقيل الأملس فيجثم فوق صدرى بلا حل، أحسست أننى أبتعد عنه، أو أنه لا يسمعنى، ندمت على أنى تماديت معه فى الحديث، ومع ذلك حفزنى حب الاستطلاع ورغبتى فى تأكدى من مزاعم عم محفوظ أو نفيها بأسرع ما يمكن أن أغريه بالمضى فى وعظه وإرشاده، مع أن خوفا انتحاريا كان يدفعنى للهرب من الراحة واليقين، أيا كان المصدر، استمر أسعد أفندى وكأنه لم يسمع حرفا.

الملحد هو الذى لا يؤمن بالله أليس كذلك.

قال فى سعادة وكأنى أفتيت فى معضلة جديدة يبدو أنه استعاد ثقته بى.

– طبعا كل شرور هذه الأرض هى نتيجة لغضب الله علينا

– أنت تعقد الأمورعلى نفسك يبدو أن طول عشرتك للأستاذ نصحى قد علمتك التفلسف، أنا أخشى عليك.

واصلت اللعبة برغبة أكيدة فى الهرب بعيدا عما لوح لى به عم محفوظ، كنت أحس أن عم محفوظ ربما يكون قد سرقنى إلى منطقة منى دون أن يستأذننى.

– وهل يوجد هناك، فى الصحراء ناس من أمثالى.

– الناس يزورون الدير يوميا، والصلوات تقام باستمرار والقداس لا ينقطع.

– ولكنى مسلم.

– المسلمون الذين يزورونه أكثر من المسيحيين، رحمة الرب تعم الجميع .

بدأت شكوكى القديمة تعوق فكرى وتحول دون التمادى فى المحاورة، هل هى دعوة تبشيرية؟ هل هو استدراج نحو مصلحة شخصية؟ أسعد أفندى مرؤوسى ونصحى أفندى رئيسى يتنافسان فى علاجى بنفس التعصب والحماس. حين تستقر العقائد يتشنج اليقين وتدمغ الفتاوى، استغرقت فى تفكيرى حتى قطع أسعد الصمت بسؤاله:

– هيه ماذا تقول.

تذكرت رغبتى فى التخلص من آثار زيارة عم محفوظ فتحمست وقررت أن أمضى فى هذه اللعبة الجديدة، ماذا يضيرنى لو مضيت معه متفرجا، لعل ذلك ينقذنى من أثار إغارة نصحى أفندى، وحدْس عم محفوظ معاً.

قلت له فى غموض متعمد:

– لقد بحثت عنه فى الخلاء بين المقابر ولم أجده، ثم تخايل لى بعد ذلك واحدا من الناس البسطاء ولولا إصراره على أنى أنا شخصيا بركة، لحسبته حل اللغز،

نظر إلى مذهولا وكأنى لا أتكلم العربية ففرحت فى نفسى ، سأل بانزعاج مترقب.

ما أسهل الكلام وما أخفى الطريق سألته السؤال الخالد باهتمام بارد رغم محاولة الجدل:

– كيف؟.

قال كأنه وجد ضالته:

– أنا أدعوك لزيارة دير فى الصحراء أتردد عليه عند الشدائد، وسوف تجد فيه الهدوء والمعرفة معا

– هه؟ ماذا تقول يا أستاذ عبد السلام؟

تراجعت بسرعة هذه المرة، كانت الرياح المتربة الثقيلة تعاود الهبوب على عقلى كالعاصفة:

–... الخلاء يرعبنى وأنا لا أجد راحتى إلا بين الناس، زدنى إيضاحا.

– أرواحنا تحتاج إلى الغسيل بين الحين والحين،

لم أتمالك نفسى وعدت إلى طعنه حتى يدعني:

– بلا أدنى شك، .. ولكنى أفضل الحمام التركى حيث البخار والناس والدفء والصابون أبو ريحة.

بدا واضحا أنى خيبت أمله بتطاولى فى السخرية فحاولت أن أرشوه وأسكته فى نفس الوقت، أكملت:

– وبالناس المسرة يا أخى ..

أشرق وجهه فى غباء حتى انفرجت أساريره وكأنه قد هدانى أخيرا إلى آية من كتابه، وفرحت بالخلاص.

***

أخذت أصعد الدرج وأنا أتراوح بين راحة أول أمس الغامضة وثقل رياح خماسين الأفكار والجدل، ثم فجأة تصفو سمائى دون مبرر.

أنا أسير فى طريق لم أسع إليه عن قصد، منذ قالها أبى فى المقابر: "ترجع إليه دون تردد" والمصادفات تقودنى إلى بدائل لم تكن فى حسبانى يوما، هل هى مصادفات فعلا؟ أطرق بابا فلا يفتح وينفتح على باب آخر لم أطرقه، لكننى حين أدخل منه لا أجد شيئا وراءه إلا الفراغ يلوح لى فى عينى عم محفوظ فأنظر فى نفسى أبحث عما حركه داخلى بيقين لم أستطع إنكاره فأجد أسعد أفندى قابعا ينتظرنى ليصحبنى إلى الطريق الصحراوى، ثم تهب رياح خماسينية فتكاد تعصف بكل شئ.

بدأت شكوكى القديمة تعوق فكرى وتحول دون التمادى فى المحاورة، هل هى دعوة تبشيرية؟ هل هو استدراج نحو مصلحة شخصية؟

سمعت وقع أقدام خلفى وعرفت صاحبها فتباطأت حتى لحقت بى تبادلنا التحية بشوق فاتر تختلف أسبابه عند كل منا، اقتربنا معا من بابى فدعوت نفسى لا صطحابه دون استئذان لأشرب كوبا من الحلبة الحصا، أضمرت أن أقتحمه دون تردد لأعرف موقعه منه، بدا أنه التقط نيتى لكن نظرتى المتصنعة الود لم تسمح له بالتراجع فاتجهنا إلى شقته مباشرة وهو يتمتم بما لم أتبينه وإن كنت تصورته يقول إنه لا يخشى شيئا أو أن هناك من ينتظره، لست متأكدا.

طرق الباب فتعجبت لأنه لم يستعمل مفتاحه مثل كل مرة، من يا ترى بالداخل؟ أنا لم أعهد عنده أحدا قط، فتحتْ لنا وبدت كأنها لم تستيقظ بعد، ومع ذلك استقبلتنا فى ترحاب ناعم رغم آثار النعاس خُيِّلَ إلى كأنها تعرفنى من قديم أخذت تسوى شعرها الأشعث وتدعك عينيها وتكاد تتمطى، قطعت كل ذلك بضحكة قوية وكأنها قررت أن تصحو أخيرا لتكتشف الدنيا فى شخصى لم تبد على غريب أية مشاعر وكأننا لسنا على باب بيته، قدمنا الأستاذ غريب لبعضنا البعض بإيجاز شديد، مجرد ذكر أسماء، ثم ذهب إلى المطبخ مباشرة وكأن الأمر لا يعنيه، ضحكت المرأة مرة ثانية وخيل إلى أنها غمزت لى بعين واحدة غمزة لم أفهمها، دخلت إلى حجرة النوم دون استئذان ثم عادت بعد قليل وقد جمعت شعرها تحت منديل رحب، جلست بجوارى مباشرة فى هدوء حاسم، سألتنى دون تردد:

هل شغلتك مشكلة " الله" يا غريب.

نظر إلى فى ريبة وربما فى استهانة

-..... صاحبه؟.

- لا.

دهشت للإجابة لحظة.

- حضرتك يعنى لا مؤاخذة من، أقصد يعنى ....

كدت أتذكر لحظة بداية الزلزال - نفس السؤال - يلقى بشكل آخر - ضحكت وأجبت وكأنى أجيب الأخرى كاتبة تحصيل إيصالات الكهرباء.

سوف أحج إلى بيته بعد أن أتوب على شرط أن أكون قد انتهيت من بناء الدور الثانى حتى آكل من إيجاره، ... كل طوبة فيه بحبة من عرق هذا الجسد

– أنا عبد السلام المشد .

ضحكت حتى خيل إلى أنها لن تكف عن الضحك وكأن مجرد ذكر اسمى يدعو إلى ذلك:

– تشرفنا، ...

اضطررت أن أكمل دون دعوة:

– جار الأستاذ غريب، أنا أسكن هذه الشقة المقابلة.

– أنت زوج هذه السيدة التى كانت بالشرفة.

– تقريبا ..

– تقريبا أو أحيانا، .. انتبه فالفرق مهم.

– أنا زوجها والسلام، وإن كنت الآن لا أعرف لهذه الكلمة معنى ...

– يبدو أنك تتفلسف مثل صاحبك، أنا أحاول أن أتَوّبَه عن هذا، .. والعقبى لك

لم أفهم ماذا تعنى تحديدا أحسست بانقباض حين تذكرت الهدف الأصلى من الزيارة أردت ألا أفوت الفرصة.

– ليس تماما نادرا ما نلتقى، وقلما نتبادل الآراء إذا التقينا.

قالت وقد أشارت بيدها محذرة .

– يبدو أن تبادل الآراء تمنع تبادل أشياء أخرى أهم.

منعت نفسى من أن أتمادى فى الشك إلا أنى جزعت من لهجتها على أى حال.

حضر غريب وكان الصمت قد ساد إلا من طرقعة لبانة تلوكها فى فمها تحاول أن تخفى بها مشاعرها الأخرى التى أحسست فيها بطيبة حقيقية، لم تنجح فى التنكر لها.

جلس غريب يفرغ الحلبة فى الأكواب ولم أتردد فى فتح الحديث الذى جئت من أجله كنت قد قررت من البداية ألا أؤجله بعد أن فوجئت أنه ليس وحده، قلت وكأننا وحدنا، وكأننى أكمل حديثا سابقا مع أننى لم أفتحه أبدا، قلت فجأة.

– هل شغلتك مشكلة " الله" يا غريب.

نظر إلى فى ريبة وربما فى استهانة ولكن " صفية" انبرت وكأن السؤال موجه لها قائلة:

– سوف أحج إلى بيته بعد أن أتوب على شرط أن أكون قد انتهيت من بناء الدور الثانى حتى آكل من إيجاره، ... كل طوبه فيه بحبة من عرق هذا الجسد،

لم يرد الأستاذ غريب كما لم يعترض ولا بتعبير وجهه، يبدو أنه أراد أن يترك النقاش يستمر بينى وبينها حتى يلتقط هو أنفاسه ويستعد بالرد، أو أنه كان قد قررالعزوف عن الرد تماما.

ماذا تقول فى وجود الله يا غريب .

قال بعد أن أدرك إصرارى العنيد:

– هذه مسألة انتهيت منها من زمان، وهى لا تستأهل أن أضيع فيها دقيقة بعد ذلك

قلت لها:

– خيل إلى فى أحد مراحل مرضى أنى دخلت الجنة فلا حاجة للانتظار.

لم أنتبه إلى أننى أعلن سرا دون داع إلا حين قالت المرأة فى دهشة.

– مرضك كفى الله، الشر أنت مثل الحصان، تستطيع أن تجر عربة كارو محملة بالنساء الذاهبات إلى القرافة، ولا تعتق واحدة منهن.

حاولت أن أرضيها ببسمة شكر حاسمة، واستدرت إلى غريب ألح فى السؤال،

– ماذا تقول فى وجود الله يا غريب .

قال بعد أن أدرك إصرارى العنيد:

– هذه مسألة انتهيت منها من زمان، وهى لا تستأهل أن أضيع فيها دقيقة بعد ذلك،

– ماذا تعني؟

– لا تضيع وقتك، وابحث عن الحقيقة.

– خيل إلى فى الأيام الأخيرة أن البحث عن الحقيقة أصعب من البحث عن الله،

– الحياة لا تقاس بالأسهل والأصعب، ولكن بالأنفع والأهم.

– الأنفع، ... الأنفع لمن، ..؟ ومن الذى يحدد المهم من الأهم؟.

– الأنفع للناس،

ما أخبث الألفاظ! كل الكلام متشابه و لا أحد يعرف ماذا يعنى.

– كيف؟.

أطرق طويلا ثم قال:

– هذا ما أحاول البحث عنه.

– أين.

– هنا، ..

وأشار إلى مكتبته المكتظة بالكتب كيفما اتفق.

– الحقيقة...؟ والله...؟ وما ينفع الناس؟ نجد كل ذلك بين صفحات الكتب!!! هل تصدق نفسك يا غريب.

انتظر مدة أطول وكأنه يراجع نفسه بلا يقين:

– لابد أن نبدأ من هنا.

قالت صفية التى كانت تتابع المناقشة باهتمام وشغف لا تفسير لهما وقد علت وجهها نفس البسمة التى تصاعدت إلى ضحكتها القوية:

–... يا جماعة لابد أن نبدأ من هنا.

وأشارت إلى موضع ما.

* * *

انتظروا "الفصل الثامن" السبت القادم

"رق الحبيب "

الحياة لا تقاس بالأسهل والأصعب، ولكن بالأنفع والأهم.

– الأنفع، ... الأنفع لمن، ..؟ ومن الذى يحدد المهم من الأهم؟.

– الأنفع للناس

السبـــت 16-06-2018

العدد: 3942 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثامن: "رق الحبيب" رواية "الواقعة"

أنا أعيش هذه الأيام كالإناء المشروخ من الداخل، أخاف أن يمتد الشرخ إلى الخارج فى أى لحظة فيتهشم الإناء تماما، جرعة من سائل ساخن، أو تلميحة جارحة، أو احتكاك بالأتوبيس أى من ذلك كفيل أن يجعلنى أنتكس فورا وأن أفضح على الملأ.

مقدمة

نواصل نشر فصول رواية "الواقعة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/ الأحد/ الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل الثامن

*****

(رواية "الواقعة") (1)

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

الفصل الثامن:

"رق الحبيب"

قبل أن أبدأ عملى بشكل جدى، ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة، أرسل لى المدير يستدعينى على غير توقع، ملفاتى قد خلت من التأشيرات الحمراء منذ زمن، وأحوالى الظاهرة لا يبدو عليها تغيير إدارى، ليس بينى وبينه علاقة خاصة، فماذا هناك، .؟ ذهبت إليه وأنا أدعو بالستر، لست فى حالة تسمح لى بالتساؤلات التى توردنى حقول الألغام المليئة بحسابات ليس لها آخر، أنا أعيش هذه الأيام كالإناء المشروخ من الداخل، أخاف أن يمتد الشرخ إلى الخارج فى أى لحظة فيتهشم الإناء تماما، جرعة من سائل ساخن، أو تلميحة جارحة،

أو احتكاك بالأتوبيس أى من ذلك كفيل أن يجعلنى أنتكس فورا وأن أفضح على الملأ.

ماذا يريد منى المدير شخصيا؟ ربك يستر .

دخلت عليه مترددا ولم أحاول أن أسبق الأحداث، وهو لم يمهلنى، فقد قام من على مكتبة واستقبلنى فى منتصف الحجرة حتى كاد يغشى على من هول المفاجأة، كان وجهه صارما كالعادة، إلا أنه بدا لى إنسانا أطيب مائة مرة مما كنت أحسب، لا بد أن وراء هذا الوجه الصارم قلب مثل قلوب الناس الأصلية قبل أن يصبحوا مديرين، اكتملت لما دعانى للجلوس على الأريكة وجلس بجوارى – أخذ قلبى يخفق بسرعة هائلة من المفاجأة والحذر معا دارت بخاطرى شتى الظنون، ماذا يريد منى فى هذا اليوم المختلف؟ أنا بى ما يكفينى، ماذا صنعت على وجه التحديد؟ وماذا لم أصنع على وجه التحديد، .....؟

لعلى أحتاج للحزن الآن أكثر من أى وقت مضى فهو أقرب إلى مقتضى الحال

– أستاذ عبد السلام أنت رجل مؤمن.

يا نهار اسود، من أين بلغه الحوار الدائر فى رأسى، هل أفشى أحدهم السر؟! هو الأستاذ نصحى ليس غيره، هذه نتيجة من يسلم نفسه للهواة لعلاجه أو هدايته، أو لعله أسعد افندى يرد الإهانة التى لحقته بالاستخفاف بدعوته للدير ألم يقل لى لابد من حرب الملحدين، لابد أن سيادة المدير قد علم ما بى، وها أنذا أمثل أمام محكمة التفيش، ماله سيادة المدير ومالى إن كنت مؤمنا أو كافرا؟ ملفاتى سليمة وأوراق تعيينى مثبت فيها أنى مسلم، حضورى منتظم فى الأيام الأخيرة، هذا كل ما عندى له، أما حكاية "الإيمان" هذه فهى من شئونى الخاصة، وحتى هذه الحكاية لم أقصر فيها فأنا دائم البحث "عنه" فى كل مكان، حتى الست صفية التى قابلتها عند غريب افندى تشهد بذلك، سوف أتمادى

معه على قدر السؤال حتى تمر هذه المسألة بسلام.

– الحمد لله، .. يا سعادة البيه.

– هذا ما أعلمه فيك، لذلك قررت أن أواجهك بنفسى.

يواجهنى بنفسه؟ لا بد أنه أصدر قرارا خطيرا يحتاج أن يتنازل إلى هذه الدرجة وأن يطمئن على إيمانى قبل أن يلقيه فى وجهى، شىء يتعلق بمستقبلى بلا شك، تذكرت تهديد الأستاذ نصحى الذى تحايلت عليه، يا ليتنى أطعت كلام الأستاذ نصحى؟ وبعت حلى زوجتى لأعالج بانتظام عند صاحبه حتى لو انتهيت إلى السكنى فى إحدى المدافن العصرية فى وادى الملوك مثله، ربما كنت رحمت نفسى من كل هذا الذى يجرى، واجهنى بنفسك وخلصنى يا سعادة البك، هاتها والرزق على الله، أليس هذا دليل الإيمان،

" ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت اقابله".

" هنيت فؤادى على نصيبى بالقرب منه".

– أمرك يا سعادة البيه.

وضع يده على كتفى حتى كدت أرتجف، يبدو أن المسألة لم تصل إلى الفصل، ربما بلغه مرضى فأراد هو الآخر أن يتطوع بعلاجى، أو ربما تطورت حالتى حتى يلزمنى معالج بدرجة مدير عام، من أدرانى ماذا قال له الأستاذ نصحى أو أسعد افندى بعد أن كفرت بإيمانهما معا؟ قال فى هدوء:

– لن أطيل عليك، البقية فى حياتك، والدتك تعيش أنت، جاءنى تليفون الآن لأبلغك، ثم انقطعت المكالمة، أنا آسف، .. شد حيلك، البقاء لله.

قالها وقام واقفا فى شهامة وهو يشد على يدى فى أسى صادق حتى حسبته سيبكى، حاولت أن أبحث فى داخلى عن التفاعل التلقائى فى مثل هذه الأحوال فلم يسعفنى شئ، كأن مشاعرى كلها قد اختفت بشكل جماعى، حاولت حتى أن أتذكر ما ينبغى أن يقال لأرد به فى مثل هذه الظروف حتى أظهر أمام الناس طبيعيا فلم أتذكر شيئا، طافت بعقلى مواقف مختلفة لم أستطع أن أنتقى منها المناسب، صراخ؟ بكاء؟ ؟ إغماء؟ لطم؟ لا أقدر على شىء من ذلك، ماذا

يقولون؟ لابد أن يبدو على أى تغيير أو تأثر، يقال إن شدة الحزن تجفف الدموع لهول الخطب، هذا هو الحل: أتمادى فى البلادة وليكن ذهولى القائم هو التفاعل المفضل، وهو السبيل إلى الستر.

انتبهت ليد المدير فى يدى، أكملت السلام، نظرت إلى الأرض وتمتمت ببضعة كلمات وهممت بالانصراف، أمسك بى وعاد فوضع يده على كتفى ولم أعد أسمع ما يقول، قدرت أنها مجموعة ألفاظ للتعبير عن المواساة أو للتشجيع، لكنها انتهت وهو يضع يده فى جيبه ويخرج حافظته ويعرض على نقودا تتعلق بالمصاريف و"الخَرْجَة" وأشياء من هذا القبيل، اعتذرت بشدة وخرجت شاكرا من قلبى فعلا، لم أكن أتصور أن هذا المنصب يمكن أن يشغله من يحمل كل هذه الرقة.

مضيت إلى مكتبى أجمع أوراقى ومازال عقلى فارغا تماما، جاءنى الأستاذ نصحى يسألنى عن نتيجة المقابلة لمّا رآنى صامتا أجمع أوراقى وأضعها فى الدرج، نظرت إلى وجهه بنفور، وفجأة أحسست أن عقْلَىّ قد استيقظا معا يريد كل منهما أن يجيب عليه مثل أيام زمان، رعبت من هول المفاجأة، هل هذا وقته؟ هل أمضى فى ذهول حزين منذ عدت من زيارتها حتى الآن، ثم إذا جاء وقت الحزن بحق انقسمت هكذا من جديد؟

انطلق عقلى الساخر يحاول أن يرسم الناس وينطلق فى سبابه؟ حياتى بالمقلوب، يظهر الحزن حين أطمع فى البهجة، ويختفى حين ينبغى أن أحزن، ماذا أنا فاعل الآن؟ الحصانان يتسابقان للرد على نصحى افندى، من ذا منهما سيعامل الناس فى البلدة؟ وكيف سَتَمُرّ ليلة المأتم وأنا هكذا؟ وماذا أفعل حين أجد نفسى قد انفصلت عن كل شئ، وركبت كوكبى الخاص، وأمسكت بمنظارى أرقب حركة النمل الآدمى على الكرة الأرضية؟

انتبهت إلى صوت نصحى يكرر:

انقضت أيام الحزن حتى الأربعين، زوجتى ترعانى بطريقة جديدة لعلها قصدت أن تعوضنى بها فقد أمى، لم أتقبل الموقف ببساطة بل زدت حذرا وتوجسا، كان كل همى ألا تلاحظ علىّ التبلد الشامل

– خير يا أستاذ عبد السلام؟

بدأت أرد على موجتين مثل زمان

– والدتى تعيش أنت.

(قال عقل بالى:"العقبى لك")

قال فى تأثر سطحى على قدر ما يعرف، إذ يبدو أنه نسى التأثر الحقيقى من كثرة ملازمته لمدفنه العصرى، وممارسته هواية التحليل.

البقية فى حياتك.

– حياتك الباقية.

(قال عقل بالى:" ليس معى فكة، خل الباقى لك")

– أنت خير من يقابل "قضاء الله" بشجاعة.

– شكرا، الحمد لله على قضائه، لله ما أخذ، وله ما أبقى.

(قال عقل بالى: "واقعتك مثل الطين، إياك أن تظن أن هذا من ضمن العلاج").

أقبل علىّ بقية الموظفين فى حماس وأسى يأخذون بخاطرى وأنا أتفرس فى وجوههم من بعيد وأرد عليهم الردود المعهودة، عرض أكثر من واحد خدماته المالية، وأخذ أحدهم تفاصيل عائلتى وأقربائى حتى يقومون بكتابة النعى، كنت أرد بطريقة جوفاء غير أنهم أخذوا كل المعلومات اللازمة دون تلكؤ، عارضت بشدة أن يصحبنى أحدهم مبديا مختلف الأعذار، مخفيا خوفى من الفضيحة، شكرتهم ووعدتهم بإبلاغهم ما نقص من تفاصيل فيما بعد.

أخذت تاكسى إلى المنزل وأنا فى اشد حالات الرعب من عودة اللعبة الداخلية فى وقت أنا أحوج ما أكون فيه إلى أن أنضم إلى بعضى، أنا لا أعرف متى تبدأ هذه اللعبة ومتى تنتهى، أنشق بلا تمهيد، وألتحم بلا مناسبة، وحين أنشق تتراقص الدنيا أمامى بلا معنى، وحين ألتحم يركبنى الهم بلا حدود، باستثناء تلك اللحظات الرائعة التى أحَّس بى فيها عم محفوظ، فأنا ضائع بين الحالين، لعلى

لست أدرى لماذا أصرت هذه الليلة أن يظل نور"الأباجورة" مضاءا كل الوقت وقد اعتدنا إطفاءه، كنت كلما نظرت إلى وجهها وهو يشرق بالرغبة ويزداد جمالا خفق قلبى رهبة وخوفا، أشعر أن بها شيئا جديدا صريحا واعيا

أحتاج للحزن الآن أكثر من أى وقت مضى فهو أقرب إلى مقتضى الحال، الأمر ليس بيدى، ماذا أفعل أنا الآن بهذه المسخرة؟ أريد أن ألحم داخلى ولو بمكواة الأكسجين الآن على الأقل، ويا حبذا إلى الأبد.

حاولت أن أتذكر عطفها وحنانها وأفضالها، استرجعت مشيتها وجلستها ويوم أن ذهبت إليها مؤخرا، وسعدتْ بى بعد عتاب صامت حنون، حاولت أن أجعل ذلك مجلبة لذرة من الأسى والحزن، ولكن المشاعر كلها كانت تغوص منى داخل جب مظلم بلا قاع.

وصلت إلى المنزل فوجدت زوجتى قد ارتدت رداء أسود وأعدت العدة للسفر بلا إبطاء، لابد أنهم أبلغوها فى نفس الوقت، داخلتنى درجة من الطمأنينة حين تذكرت أنها ستصحبنى إلى هناك، ربما بذلك لا أضطر لتصرف شاذ يفضحنى تحت ضغط الوحدة والإرهاق، استأجرت عربة خاصة ولم يبق إلا أن أركب، ..

قلت لها:

– البقية فى حياتك.

– حسك فى الدنيا.

حلوة هذه اللعبة، كل حركة محسوبة ولها رد محسوب، مثل افتتاحيات الشطرنج، إلا أن الدور ينتهى فى الشطرنج بموت الملك، لكن هذا الدور يبدأ بموت الملكة، ما كل هذه الافتتاحيات المبتورة بلا أدنى حركة واعدة.

قال السائق:

– هذه حال الدنيا.

–.... الدوام لله.

... مثل افتتاحية نابليون، لو عرف السائق الخدعة فسوف أُبَيِّتُ الطابية فى النقلة القادمة، حافظ أنا كل اللعب، دون تعلم، يولد الطفل وهو حافظ لعبة الموت، قبل أن يتعلم الرضاعة يلقنوه آداب النهاية، وهو سرعان ما يكف عن الضحك، فلا تبقى إلا السخرية والقتل!! "

وقع المحظور وانفصل جزء من جسمى عن إرادتى، أخذ العرق يتصبب منى بشكل ظاهر، أطفأت النور أملا فى إحياء الموتى بتعاويذ الظلام، ولكن دون جدوى، بدأت أرتجف بعنف

قلت له (لعقل بالي): بالذمة هل هذا وقت الفلسفة واختراع النظريات الجديدة؟ أواجه غربتى ووحدتى وشذوذى فى أدق مناسبة تحتاج إلى المجاملة والحديث اللبق، نظرت إلى وجهى فى مرآة السيارة خشية أن يظهر عليه ما بداخله، حاولت أن أنْهَى عقل بالى حين تصورت أن أحدا فى السيارة يمكن أن يسمع همسه، ولكنه انطلق يغنى متحديا:

" رق الحبيب وواعدنى يوم".

" وكانْ له مدة غايب عني".

كدت أقفز من السيارة خوفا واحتجاجا معا، هل وصلت الأمور إلى حد الغناء؟ ألا تكفى المسخرة الحشاشة التى لا تتوقف؟ جعلت أحايله بشتى الطرق وأنا خجلان منه حتى كدت أذوب من فرط شعورى بالذنب، ولكنى خفت أن يتمادى فى العناد حتى يفضحنى عمدا فسمحت له بمواصلة الغناء صامتا، نظرت إلى وجه زوجتى فوجدته كما هو، حمدت الله.

أصبح كل همى أن تمر هذه المناسبة بسلام.

حين وصلنا البلدة وجدت كل شيء معدا، ما أروع التعاون بين هؤلاء الناس، أخبرونى بأنها كانت قد أعدت كل شيء قبل وفاتها: الكفن، مصاريف الجنازة، بقشيش صبيات المغسلة، تسلمت أماناتها من ابن أختها عبد ربه، اتجهت إلىّ النظرات وكأنه ينبغى أن أعمل شيئا محددا، واقف أنا وسطهم كاللوح دون حراك، همس لى عبد ربه إن كنت أريد أن ألقى عليها النظرة الأخيرة حيث الجميع ينتظرون قدومى لإتمام الإجراءات، ملكنى الرعب وأنا أتمنى ألا يكون هذا فرض حتمى، فهمت من وجوههم أن الكل قد انتظر هذه اللحظة على أساس أنه لا بد أن تكون هذه هى رغبتى، خاصة وأنى الابن الوحيد الموجود، أختى مع زوجها فى الصعيد ولن تحضر قبل المساء وأخى فى ليبيا وقد لا يحضر أصلا، لا مفر من أن أفعل ما توقعوه – على الأقل بالنيابة عن إخوتى – دخلت وأنا أكاد

أدركت هى أن الأمر أصبح خارج قدرتى، أخذت تهدئ من روعى وتؤكد لى، وهى غير متأكدة، أنها حالة عارضة، وأن هذا الأمر هو آخر ما يهمها لأنها لا ترجوا إلا صحتى وسعادتى

أرتعد حتى تعثرت، كشفوا وجهها فوجدته لم يتغير عن آخر زيارة باستثناء زيادة طفيفة فى الشحوب، خيل إلى فجأة أنها تبتسم لى، انفجرت فى البكاء بغير حزن، بكاء كصياح طفل قرصه الجوع لما تأخرت الرضعة، وما إن أحسست أن الأيدى تمسك بى حتى اندفعت أقبلها فى وجهها ويديها والدموع تغمر وجهى وتبللها، لم أكن متأكدا من الذى يبكى، لم يكن ذلك الطفل، ولم أكن أنا، كان يغمرنى فى نفس الوقت شعور بالاحتجاج بأنها ذهبت قبل أن تجئ، لم أفهم.

تكاثرت الأيدى علىّ حتى أبعدونى، وبدأت أميز الصيحات حولى " وحِدِ الله" "الله أكبر" "أذكر ربك واستغفر" وتعالى "صوات" النسوة فى صحن الدار.

* * *

استرخيت على الكرسى الذى وضعونى فيه، مسح بعضهم دموعى، هذا شىء لم يحدث لى فى حياتها، لا أذكر أنى قبلتها هكذا أبدا، فجأة عادت نفس الأغنية تتردد فى عقلى.

" ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت اقابله".

" هنيت فؤادى على نصيبى بالقرب منه".

كدت أقوم كالملدوغ خشية أن يسمعنى أحد، منعونى برفق حازم، حاولت أن أذهب ناحيتها مرة ثانية، فتجمع علىّ أربعة رجال أشداء ينظرون إلىّ بشفقة وتقدير، تطلعت فى وجوههم فرجحت أن ما فعلته قد قوبل بالاستحسان رغم المنع الحازم، يبدو أن ذلك كله يعتبر من مظاهر الحزن العميق، صافحت سمعى بعض التعليقات التى أكدت لى ذلك، "ابن حلال" "كان قلبها حاسس"، " نادته فى المنام"، "ماتت وهى عنه راضية".

كانت هذه الكلمات تصل إلىّ فتطمئننى أن تصرفى مازال حتى الآن فى عداد المعقول، بل يبدو أنى تفوقت عما ينتظرون، أخذت أجتر كلمتهم الأخيرة أنها "ماتت وهى عنى راضية"، رحت أسترجع البسمة التى لمحتها على وجهها، فيغمرنى سكونٌ غريب

رغم ذلك الفشل المعلن الذى لا جدال فيه، استيقظت فىّ كل المشاعر الشبقية العنيفة التى كانت قد اختفت مع ما اختفى من مخزون ذاكرتى، تأتينى هذه المشاعر الشبقية فى نوبات متقطعة لا أعرف بدايتها أو نهايتها

* * *

مضت الدفنة وليلة المأتم والأيدى تتناولنى من المقابر إلى الدوار، ومن هذا الكرسى إلى ذاك، وما علىّ إلا أن أقوم واقفا إثر كل فترة تلاوة، عن يمينى عبد ربه وعن يسارى ابن عمها سيد أحمد الباز، نسلم على الذاهبين متمتمين بتلك الكلمات التى تبينت أنى أحفظها عن ظهر قلب، حين انتهى كل شىء وذهبت إلى الدار وجدت خالتى أم عطية فى انتظارى، انتحت بى جانبا وناولتنى قطعة قماش ثقيلة الوزن وقالت فى همس بصوتها الذى مازال مبحوحا من كثرة النواح:

– أوصتنى المرحومة أن أعطيك هذه الأمانة فى السر.

أخذتها بتردد ولم أنبس.

أكملت أم عطية حديثها وهى تناولنى مثلث صغير مغطى بالقماش أيضا.

– وهذا الحجاب أيضا، كانت قد عملته لك بعد الزيارة الأخيرة، وقد أخذت "أَتركَ" دون أن تدرى، وهى توصيك أن تحرص أن يظل الحجاب لصيقا لملابسك الداخلية –ولا مؤاخذة– حتى يفك الله ضيقك.

لا أذكر أنى حدثتها عن ضيقى ولا عن أى شئ، ماتت وهى تعرف ما بي!! ماتت وهى راضية عنى، وهى تدعو لى.

حمدت الله واستغرقت فى نوم هادئ والحجاب تحت جنبى حتى مطلع الشمس.

* * *

انقضت أيام الحزن حتى الأربعين، زوجتى ترعانى بطريقة جديدة لعلها قصدت أن تعوضنى بها فقد أمى، لم أتقبل الموقف ببساطة بل زدت حذرا وتوجسا، كان كل همى ألا تلاحظ علىّ التبلد الشامل، فاضطررت إلى تقبل هذه الرعاية المفرطة بحذر دون رفض علنى، لم أشعر أنها تستطيع أن تعوضنى عن حنان أمى فأنا لا أعرفه أصلا، وهى لا تملكه أيضا.

ما أن يحل الليل حتى أكتشف أن سلاح رجولتى خال من الذخيرة، كيف ازدادت زوجتى جمالا وحيوية حتى اكتملت زينتها ونبضت بحضورها الجديد، الذى بدا وكأنه يزيد من عجزى حتى اليأس

ظللت اتساءل: ماذا تريد هذه المرأة هذه الأيام؟

لم تقف الأمور عند هذا الحد، ما كاد الأربعين يمضى حتى أخذ اقترابها منى يأخذ شكلا حسيا أربكنى فى أول الأمر، ثم أرعبنى لما فكرت فى معاودة جهاد السرير، كنت قد اعتدت أن أنام معها بلغة صامتة، كنا نوفق أن نتفاهم بها فى أغلب الأحيان، وحتى الفترة العصيبة التى مرت بى فى تلك الأيام التى كدت أفضح فيها أثناء الليل كان ذكائى يحول بينى وبين إعلان الفشل، كنت أتجنب أى اختبار حقيقى فألتمس العذر حتى أسهى نفسى وأعملها من وراء وجدانى وجه الصباح، اختلف الأمر الآن: أحس أنى مقبل على أيام عصيبة لا أعرف إلى أين سوف تذهب بى.

– مالك يا عبد السلام؟

قالتها هذه المرة بطريقة أخرى، خيل إلى أنها أقرب إلى الاتهام، فأحسست أن مصيرى قد اقترب تحديده، ولا فائدة من التأجيل.

– خيرا إن شاء الله.

– هل مازالت المرحومة مؤثرة فيك إلى هذا الحد؟

– الأعمار بيد الله، .. والحى أبقى من الميت.

– لكل شىء نهاية، كفانا حزنا حتى نرحمها فى قبرها.

أيقنت أن علىّ أن أرد عليها هذه الليلة بالذات ردا عمليا، كان العشاء معدا بطريقة صريحة، وقد خلعتْ ملابس الحداد بعد الأربعين وبدت لى جميلة فعلا كما قالت الست صفية ذلك اليوم، أحسست برغبة فيها ففرحت بذلك وتوقعت أن تنمحى شكوشى وشكوكها بعد دقائق.

لست أدرى لماذا أصرت هذه الليلة أن يظل نور"الأباجورة" مضاءا كل الوقت وقد اعتدنا إطفاءه، كنت كلما نظرت إلى وجهها وهو يشرق بالرغبة ويزداد جمالا خفق قلبى رهبة وخوفا، أشعر أن بها شيئا جديدا صريحا واعيا، لمست وجهها

خيل إلى أن هذا الجزء من جسدى يتحداني قصدا، أنه استقل عنى مثل عقلى الآخر، أنه يريد أن يعمل لحسابه، أو يشهر بى، لو أنه مات طول الوقت لا سترحت وبحثت عن تفسير طبى، إلا أنه كان يزعجنى فى الأتوبيسات والأماكن العامة بيقظة لا مبرر لها، ثم يموت بلا حراك عند الحاجة إلى خدماته

بيدى لأتأكد من أن الأمر ممكن فإذا بى كأنى أتعرف عليها لأول مرة، لم أصدق أن هذه المرأة بلحمها ودمها ورغبتها هى زوجتى حقيقة وواقعا، تعجَّبتُ أننى أنا شخصيا أنجبت منها أولادا، اقتربت منها بشهوة لا تخفى، حاولت أن أقبلها فى شفتيها ولكن خيل إلى أن ملامحها تتغير، تراجعت خائفا من مجهول، لا مفر من التقدم وليكن ما يكون، فجأة رأيت وجه الحاجة فتحية والدة أمانى يحل محل وجهها، انتفضت كالملدوغ وأحسست ببلل لزج يملأ وجهى حتى أخذت أتحسسه لأتأكد أنه خال من البصاق.

وقع المحظور وانفصل جزء من جسمى عن إرادتى، أخذ العرق يتصبب منى بشكل ظاهر، أطفأت النور أملا فى إحياء الموتى بتعاويذ الظلام، ولكن دون جدوى، بدأت أرتجف بعنف، أدركت هى أن الأمر أصبح خارج قدرتى، أخذت تهدئ من روعى وتؤكد لى، وهى غير متأكدة، أنها حالة عارضة، وأن هذا الأمر هو آخر ما يهمها لأنها لا ترجوا إلا صحتى وسعادتى.

* * *

عادت إلى ذاكرتى كل تلك الفترة التى كانت قد اختفت فى مكان ما بين طياتها الأبعد، حين انفصل عقلى إلى عقلين استطعت أن أتغلب على الموقف بالصبر والحوار والتحايل والسخرية حتى مضيت فى سردابى السحرى دون أن يلحظنى أحد، اختلفت المسألة الآن، انفصل جسمى عنى علنا وأمام شهود ممن "يهمهم الأمر"، رغم ذلك الفشل المعلن الذى لا جدال فيه، استيقظت فىّ كل المشاعر الشبقية العنيفة التى كانت قد اختفت مع ما اختفى من مخزون ذاكرتى، تأتينى هذه المشاعر الشبقية فى نوبات متقطعة لا أعرف بدايتها أو نهايتها، حتى أننى فكرت أن أزور الحاجة فتحية وابنتها "أنا وعقل بالى" معا، أنا بنية الاعتذار، وهو ونصيبه حسب مقتضى الحال.

لم تنفعنى هذه المشاعر التى كانت تغمرنى أحيانا أثناء النهار، ثم ما أن يحل الليل حتى أكتشف أن سلاح رجولتى خال من الذخيرة، كيف ازدادت زوجتى

أتمنى لو كان هناك علاجا سريا يأخذ كل مالى مقابل أن أستعيد رجولتى، يخطر ببالى تحذير هام ينبهنى بأننى حتى لو استعدت رجولتى، فكيف سأجمع بقية أجزائى إلى بعضها البعض

جمالا وحيوية حتى اكتملت زينتها ونبضت بحضورها الجديد، الذى بدا وكأنه يزيد من عجزى حتى اليأس، حاولت أن أتجنب المواجهة ولو إلى حين بأن أنام وحدى على الكنبة العربى لولا أنى أحسست أن هذه الخطوة هى بمثابة "إعلان شرعى" لوفاة جزء منى، قدّرت أن هذا سابق لأوانه.

خيل إلى أن هذا الجزء من جسدى يتحدانى قصدا، أنه استقل عنى مثل عقلى الآخر، أنه يريد أن يعمل لحسابه، أو يشهر بى، لو أنه مات طول الوقت لا سترحت وبحثت عن تفسير طبى، إلا أنه كان يزعجنى فى الأتوبيسات والأماكن العامة بيقظة لا مبرر لها، ثم يموت بلا حراك عند الحاجة إلى خدماته، المصيبة الأكبر أن الرغبة لم تكن ترحمنى ليلا أو نهارا، الأمر الوحيد الذى تحسن هو أنى لم أعد أحس بآثار بصقة الحاجة فتحية كما كان الحال فى البداية.

من يا ترى يستطيع عونى هذه المرة؟

خجلت حين خطر ببالى عم محفوظ، فعلى قدر حاجتى له كان خوفى منه، خيل إلى أنه لما حضر للعزاء التقط حرجى، وعاهدت أعيننا بعضها بعضا ألا نلتقى حتى يحدث شىء جديد، أحسست برقته وصدق حسه حين بدأ يرسل صبيه بدلا منه، ولكنه لا ينسى أن يرسل لى السلام، فأرد بالشكر والدعاء، على الرغم من ذلك كان هو الذى خطر على بالى أول ما فكرت فى العون فى هذه المسألة، وأرجع أقول ماله هو بهذا الشأن بالذات، ثم كيف أقابله بعد ذلك لو عرف سرى الخاص.

نصحى افندي؟ أبدا، حافظ أنا عن ظهر قلب ما يمكن أن يقوله فى مثل هذه الأحوال، سوف يُسَمّح لى أساطيره الإغريقية، وما أسهل أن يربط بين قبلتى لجثة أمى و زيارتى لقبر أبى وهات يا تحليل وأنا أتفرج، تقمصته وحاولت أن أحلها بهذا التفسير وأن أربط بين الأحداث ربطا مسلسلا تعلمت بعضه من كثرة ما ردده الأستاذ نصحى حتى خيل إلى ذات ليلة أننى وصلت إلى تفسير لا بد

ذات يوم، وكنت فى الحمام، عاودتنى أحلام المراهقة حتى تعجبت ليقظة هذا الميت وهو يغرينى بمعاودة العادة القديمة، تعجبت للذة التى صحبتها رغم الخِزْى والصغار اللذين أحسست بهما بعدها

أن يختبر، فى المساء أخرج لى صاحب الشأن لسانه بلا رحمة، حين كنت أستحضر صورة أبى لأعطيه دور المنافس المغوار كنت أجده جالسا يتمتم بورده ويهز جسمه تلك الهزات الرتيبة التى لا تتوقف إلا لينقل عداد مسبحته، وكان يبدو لى على هذه الصورة زاهدا فى الملك والملكة معا، أهكذا يا عم صبحى تقلقل الرجل فى تربته؟

فكرت أن أذهب لأخصائى الأعصاب، إلا أن أعصاب هذا الجزء الميت ليس فى متانتها شك، ولكن فى غير أوقات العمل الرسمية.

ذات مرة، راودنى الشك فى طبيعة الحجاب الذى تركته أمى مع خالتى أم عطية، كدت أتهم الحجاب بالقتل، لكنى سرعان ما طردت الفكرة لما لم أجد لها سببا وجيها يبرر سوء النية برغم علاقة المرحومة الباردة بزوجتى، والعكس صحيح، ومع ذلك فقد خلعته بضع ليال وتركته فى المكتب، ولكن بلا نتيجة.

تزيد الأزمة حدة فأتذكر لفة أمى الأخرى التى اخفيتها فى مكان سرى بالبيت بما تحوى من حلى ونقود، أتمنى لو كان هناك علاجا سريا يأخذ كل مالى مقابل أن أستعيد رجولتى، يخطر ببالى تحذير هام ينبهنى بأننى حتى لو استعدت رجولتى، فكيف سأجمع بقية أجزائى إلى بعضها البعض، يذكرنى هذا بالأيام الأولى التى كنت أهيم فيها على وجهى رغم قيامى بالنشاط الرجولى على الوجه الأكمل، تمنيت أن ترجع تلك الانقسامات السرية فهى ستر وغطاء أفضل من هذا الاستقلال الذاتى الآبِق، بدأت أتجنب لقاء زوجتى، وأحسب لغضبها ونظراتها ألف حساب، صرت أسئ تأويل أى اختلاف بينى وبينها، ضاقت بى الدائرة حتى قررت أن أستعين برأى الأستاذ غريب من طرف خفى، مازلت أذكر تلميح صفية ضيفته الخاصة من أن تبادل الآراء قد يعوق تبادل أشياء أخرى، عودنى غريب أنه سبَّاق إلى المصائب، فلا بد أن عنده خبرة "مجرب" على أقل تقدير،

– أهلا يا عبد السلام، أين أنت منذ وفاة المرحومة.

– لاأحب أن أشغل وقتك دون مبرر.

– وهل وجدت المبرر، أم وجدت الله؟

ذعرت من هذه السخرية حتى كدت أعدل عن الحديث معه.

– لقد تعبت من هذا البحث كما تذكرت كيف نبهتنى أنه بحث بلا جدوى، ثم إنه فُرِضت علىّ مشاكل عاجلة تتعلق بأشياء ملموسة.

– الأشياء الملموسة هى الحقيقة المحسوسة، وكل ما عدا ذلك باطل وقبض الريح.

قلت له مغيرا الموضوع، فاكتشفت أننى أدخل إلى غريب من باب آخر:

– جئت أسألك هل مازالت صفية تزورك أحيانا؟

امتقع وجهه وبدا كأنه لم يتوقع السؤال:

– ولماذا السؤال؟ .

– تخطر على بالى بين والحين، كان فى وجهها طيبة، وفى قلبها ألم لا ينسى، رغم وقاحتها المصطنعة،

اطمأن غريب فجأة، وكأن معركةً مـا انتهت قبل أن تبدأ:

– لم أرها منذ زمن، هى تحضر عادة دون طلب منى، ولا استئذان.

قلت وكأنى أفتح جبهة جديدة:

– هل تحضر لتزَوِّدُك بالثقافة كلما أحسست بالجهل الحاد؟

تجاوز غريب سخريتى بطيبة لم أتوقعها قائلا.

– المجتمع هو المسئول عن هذه الضحايا، ..

(عاد يستفزنى بحكمته الزائفة، اشتعلت النار دون قصد منى)

– وهل نجحت فى المساهمة فى رفع الظلم عن الضحايا.

حمل الأمر محمل الجد وأجاب بحماسه الفاتر:

– لا سبيل إلا بعد العثور على نظرية شاملة.

– فى المادة ما يكفى للتظير الشامل، أليس هذا رأيك؟

– لم يعد يكفينى ذلك بعد ما قرأت أكثر، مازال التطبيق هو مشكلة المشاكل.

– أخشى أن تمضى حياتك هنا بين الكتب، لا يدرى بك أحد، ولا تدرى بأحد.

– هذا أفضل من الخداع والتضليل.

– ألا تساهم أنت فى زيادة عدد الضحايا بهذا الانسحاب المزركش؟

بدأ تحفزه وهو يهم أن يرد لى الصفعة حتى خفت، ولكنه تراجع قائلا:

– لست فى حل أن أسألك وماذا فعلت أنت، لأنى أتحمل مسئولية انسحابى وحدى بغض النظر عن موقفك.

أدركت أننا ندور فى نفس الحلقة التى بدأناها منذ شهور، فلا هو ينوى أن يسمع، ولا أنا أفعل شيئا غير الاختباء وراء هذه المشاعر المتناقضة التى يسميها الأطباء من باب الرأفة بالبشر بأسماء مرضية رشيقة، رجعت إلى الموضوع الأصلى من طرف خفى:

– لم لا تتزوج يا غريب؟

امتقع وجهه أكثر وحسب أنى قبلت لعبة المعايرة، لم يجبنى إجابته الساخرة الأولى.. " هل عندك عروسة" ولكنه قذف إلىّ بالكرة:

– وهل أنت سعيد فى زواجك؟

تمالكت نفسى وعدلت نهائيا عن طلب مشورته،

– أجد من يرعانى على كل حال.

– أنا لا أحتاج لمن يرعانى، أنا كفيل بنفسى.

لم أجد مجالا لإطالة الحديث، فانصرفت شاكرا.

يا ترى هل مات عنده أيضا هذا الجزء العنيد؟

هذا أمرلا يمكن السكوت عليه.

* * *

أخذت أفكر طول الوقت فى مخرج من هذا المأزق حتى روادتنى فكرة الطلاق، بدأت لا أطيق رؤيتها، أكره جمالها وحيويتها، ساورتنى الظنون أحيانا رغم ثقتى بها: كيف تصبر أكثر على هذه الحال؟

ذات يوم، وكنت فى الحمام، عاودتنى أحلام المراهقة حتى تعجبت ليقظة هذا الميت وهو يغرينى بمعاودة العادة القديمة، تعجبت للذة التى صحبتها رغم الخِزْى والصغار اللذين أحسست بهما بعدها، اختفى هذا الشعور اللاحق بالتعود على هذا السبيل الجديد، خطر ببالى مرة أن أدخل الحمام قبل الاختبار الحقيقى أثناء الليل، استعدادا واكتسابا للثقة، ولكن الأمر كان ينتهى قبل أن أصل إلى باب حجرة النوم.

لا أستطيع أن أصف هذه الخبرة الغريبة التى عملتها دون مشورة أحد حين ذهبت إلى أخصائى التناسلية، بالرغم من تأكيده لى أن أعضائى سليمة إلا أنه نصحنى بجلسات كهربية تدفئ مقعدتى وتدليك عجيب الشكل، مازلت أخجل كلما استعدت ذكرى تلك الجلسات، كنت شديد النفور منها طول الوقت، خاصة أنها كانت بلا جدوى من البداية، لماذا واصلت الانتظام فيها، داخلنى شك خفى لم أحاول توضيحه لنفسي؟

سألته بعد أن انتهاء الجلسات إلى لا شئ:

– والآن ما العمل؟

– قلت لك من البداية أن أعضاءك سليمة، ولكنك رفضت استشارة طبيب نفسى.

قلت متخابثا حتى أجد مبررا للهرب.

– ولكن نفسيتى ليس بها خلل

– هذا العجز، .. هو جزء من نفسيتك.

تذكرت كلام نصحى أفندى عن الثعابين والإغريق، فسألته فى حذر:

– وهل الطبيب النفسى غير المحلل النفسى وغير طبيب الأعصاب؟

– هذا شىء وذاك شئ، وكل شيخ وله طريقة.

لم أقل له مادار بنفسى من تساؤل عن سبب مواصلة علاجى عنده بتلك الجلسات الغامضة ما دام يعرف أن أعضائى سليمة، شكرته وانصرفت وأنا فى عزمى أن أطفئ أى شعاع جديد، وليكن اليأس هو الواقع، تردد فى عقلى وأنا أنزل درج السلم من عنده نشيد الدوارة الذى كنا نردده فى الابتدائى:

" دار الصف، ...

لفوا لفوا، ...

لف القيد، ...

قيدى وافى؟ "

****

غدا "الفصل التاسع"

"الأرض السابعة

الأحـــــد 17-06-2018

العدد: 3943 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل التاسع: "الأرض السابعة" رواية "الواقعة"

بمهانة لا توصف، ملأنى شعور بالكراهية نحوها ليس له مثيل، فى نفس الوقت دبت فى شهوة عارمة يصحبها شعور بالرغبة فى القتل، وتحفزت للتجربة بتحد وقسوة

مقدمة

نواصل نشر فصول رواية "الواقعة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل التاسع

*****

(رواية "الواقعة") (1)

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

الفصل التاسع:

"الأرض السابعة"

تقول يا عم محفوظ أن الله موجود ورحمن ورحيم، فلماذا لا تنشق الأرض لتبتلعنى حتى ينتهى هذا الموال؟ لا يمكن أن يتحمل إنسان كل هذا الخزى والعجز، فكرت فى الاختفاء بأى وسيلة، فكرت فى السعى للعمل فى إحدى الدول العربية، ربنا أمر بالستر سأكتب إلى أخى فى ليبيا، لن أعدم حجة تبرر ترك أولادى وزوجتى هنا.

ثم جاء اليوم الذى عملت له ألف حساب حين تجرأتْ وحدثتنى فى الموضوع مباشرة:

– أرجو ألا تسئ فهمى.

فلتهبط السماء على الأرض قبل أن تعايرنى صراحة هذه الكتلة من اللحم الأبيض.

– خيرا إن شاء الله.

– لقد بحثت الأمر ودلونى على من "يعرف".

وقع المحظور، دلوك على من يا امرأة؟ هل أصبحتُ موضوع حديث الصالونات النسائية؟ من الذين دلوك يا ست هانم؟ هل نسيت كل ما أمْتعتُكِ به قبل ذلك.

طال صمتى حتى أكملتْ حديثها:

– قالوا لى إن هذه مسائل بسيطة ولابد أن بعض بلدياتك ساءه أن ترث طين المرحومة، استكثروا عليك النعمة رغم أنهما فدانان "عُمْى"، خافوا أن تأخذ الأرض من مستأجريها، فكادو لنا بذلك، وعملوها، حتى يشغلوك عنهم.

– ماذا تعنين؟

(يا صلاة النبى اتفضحتَ يا عبد السلام، وما كان قد كان)

– كل عقدة ولها حلال،.

يتردد نشيد الابتدائى "الدوارة" فى عقلى من جديد: "لف القيد، قيدى وافى"، هاهم أولاء قد ربطونى حتى لا أقربك ياست الحسن بعد أن تفجرت حيوتك فى هذه السن بلا مناسبة، لماذا تتفتح خلاياك الآن بلا حساب، تريدين أن تغترفى من بحر اللذة فى الوقت بدل الضائع؟ لا مفر من التمادى فى الحديث.

– وما العمل؟

– سمعت عن بعض من يفكونه الربط فى جلسة واحدة، سيدة سودانية تعمل المعجزات،

(فحالتى تحتاج إلى "معجزة"،... أين أخدود اللانهاية، ..)

– هذا حقك يا ستى، ليس لى أن أعارض، ولكن كيف السبيل إلى ذلك دون فضيحة.

– لاتخش شيئا فهى سيدة سودانية فاضلة تدخل البيوت لترى الطالع وتشفى الأمراض، ولا أحد يسأل عن تفاصيل عملها، كلهم يعتبرونها بركة.

آه لو تعلمين؟ إسألى عم محفوظ، ربما كان هذا هو نهاية المطاف، أمشى فى حب الله مثل عبد الستار النجار، أو أدخل البيوت أساهم فى حل مشكلة العقم بطريقتى الخاصة بعد أن تفكوا ربطى بمعجزة سودانية،

بمهانة لا توصف، ملأنى شعور بالكراهية نحوها ليس له مثيل، فى نفس الوقت دبت فى شهوة عارمة يصحبها شعور بالرغبة فى القتل، وتحفزت للتجربة بتحد وقسوة، تذكرت خيالاتى فى الحمام أثناء ممارسة اللذة الذاتية وكيف تدور فى كثير من الأحيان حول إحدى السودانيات التى لا يحتاج صدرها إلى رافع، ولا يحتاج إشعالها إلى ثقاب، سال لعابى حين وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير، وتوقعت مفاجآت سارة متى أطلقت لجنونى العنان.

قلت فى استسلام خبيث.

– هاتيها، ولكن حدثينى عن التفاصيل.

– أبدا، تحضر، وتأخذ "الأثر" وتقرأ بعض ماتعرف، ثم تنفرد بنفسها فى حجرة مغلقة، يقولون أنها تتعرى تماما حتى يحضر خادما من خدام السر، فتطرد الشياطين، وينفك العمل بإذن الله.

ولماذا يحضر خادمها ياست هانم بإذن الله، أنا خادمها بإذن الشيطان، أنت لا تعرفين شيئا عن نشاطى السرى فى الحمام، وربما كنت أنت السبب فى كل هذا، كم أبغضك وأنت تمثلين منظر البريئة المجنى عليها، منذ ماتت أمى وأنا أخاف منك دون سواك، قال لى الأخصائى أن أعضائى سليمة، ولكنه لم يقل لى أنك أنت سليمة، أخاف من الاقتراب منك أنت بالذات، هأنذا أتبين نوازعى بعد أن ثار جنونى نتيجة لامتهانك لى وتحديك، أخاف من شهوتك الوقحة، أخشى أن أبيع لك نفسى دون مقابل، أخشى أن تطلبى حياتى مقابل رضا شياطينك، أخشى أدخل فيك فلا أخرج أبدا، هذا بعض ما هدانى إليه عقلى الآخر، ذلك العقل

تذكرت خيالاتى فى الحمام أثناء ممارسة اللذة الذاتية وكيف تدور فى كثير من الأحيان حول إحدى السودانيات التى لا يحتاج صدرها إلى رافع، ولا يحتاج إشعالها إلى ثقاب، سال لعابى حين وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير، وتوقعت مفاجآت سارة متى أطلقت لجنونى العنان

أن السرى الذى يحلو لكم أن تسمونه جنونا، هاهو يأمره فيرقد فى الخط بلا حراك استخسارا لجهده أن يهدر لمن لا تستحقه، لمن لا يراه أو يرانى.

لم أعد أستطيع التعرف على طبيعتها الحنون وتقبلها الصامت، شككت فى رؤيتى لها حتى ونحن مخطوبان، هل كان ينبغى أن أجرب نفسى مع غيرها؟ ولكن ماذا لو فشلت المحاولة فتخطت الفضيحة أسوار البيت؟ وماذا لو نجحت مع غيرها فزاد فشلى معها؟ ما باليد حيلة، سوف أقبل التحدى، شعور يخامرنى أنها ستدفع ثمن تطاولها بشكل ما، قلت فى نشوة غريبة.

– وهو كذلك.

* * *

جاءت فى اليوم الموعود، هى هى كما صورها خيالى، حول الأربعين، لكنها "هى"، كنت مليئا بالتحدى والرغبة واليقظة، أخذت أنصت إلى ما تقول وأنا أكاد ألتهمها ضاربا عرض الحائط بكل ما تقرأ من آيات، وتعاويذ أغلبها غير واضح المعالم، بدأت بالنظر إلى نظرة أعرفها تماما، تلك النظرة القادرة على إرسال إشعاعاتها من عمق سحيق، تبينت أنها تنبعث من الأرض الخامسة، لم أهتز، لم أغض بصرى، أخذت المبادرة، نفذت إلى أعماقها أسرع منها وأكثر ثقة، وصلت إلى أرضها السابعة وما بعدها، اهتزت تحت هجوم نظراتى حتى كادت تترنح، بدأتْ تحاول أن تتجنب اقتحامى، التقينا فى ثوان وتيقنت أن المعركة انتهت لصالحى قبل أن تبدأ، أنا أكثر منك جنونا يا امرأة، هات ما عندك وتعالى معى أرفعك إلى السماء السابعة، ملكنى شعور طاغ بالزهو والمقدرة، ما أروع قوة الجنون السرية.

استمرت فى همهمتها وقد بدا عليها الارتباك وظللت أنا ثابتا كالطود واثقا من تفوقى ورجولتى ثقتى من جنونى، ألقيت نظرة على زوجتى ملؤها الحقد والتشفى، انتقلت إلى الخطوات التنفيذية، فعاودت النظر إلى المرأة بلا رحمة ولا تردد، يبدو أنها أدركت تماما أين أنا وما أنوى وما أقدر عليه، ارتعدتْ أكثر ولم ترد،

اهتزت هزة خفيفة لا تخلو من أنوثة بالرغم منها، لو سمح لون بشرتها للاحظت زوجتى درجة احمرارها.

قلت لها فى وقاحة:

– هه؟ ماذا تقولين؟

– يبدو أن حالتك مختلفة.

– أسوأ أم أحسن؟

– أخطر،

انزعجتْ زوجتى وبدا أنها على استعداد لعمل أى شىء حتى تنجح المهمة، لم أتوان فى انتهاز الفرصة، كنت أتصرف دون تفكير مستغلا حرص زوجتى، قلت:

– إذا كانت الحالة بهذه الخطورة فلاداعى للمغامرة.

قالت زوجتى فى انزعاج:

– لا تتعجل ولا تخَفْ وسوف يأتى الله بالفرج.

(الفرج يا أيتها الأتان سوف يكون على عينك ياتاجر)، قلت فى خبث ريفى أصيل:

– أنا على استعداد لأى شئ، حتى للدخول معها إلى خلوتها إذا كان ذلك ضروريا لتخليصى منهم.

أطرقت السودانية وقد بلغتها الرسالة، حاولتْ أن تسيطر على مشاعرها قدر الإمكان، ثم نظرت إلى زوجتى من طرف خفى، فواصلت الهجوم.

– إلا إذا كانت حالتى ميئوس منها إلى الأبد.

قفزت زوجتى – كما توقعت– ترجوها أن تفعل أى شىء أى شىء فيه "الصالح"، حاولت أن أطمئنها بخبث فواصلت الحديث مع المرأة بعد أن اطمأننت أنه قد بلغها من أنا، قلت لها مشيرا إلى حجرة النوم.

– أنا تحت أمرك، والله معنا، طبعا لا داعى للتعرى فى هذه الحالة.

هل كان ينبغى أن أجرب نفسى مع غيرها؟ ولكن ماذا لو فشلت المحاولة فتخطت الفضيحة أسوار البيت؟ وماذا لو نجحت مع غيرها فزاد فشلى معها؟ ما باليد حيلة، سوف أقبل التحدى، شعور يخامرنى أنها ستدفع ثمن تطاولها بشكل ما

نظرت إلىّ المرأة فى تحد مستسلم، قررتُ ألا تراجع مهما كان الثمن فقلت متصنعا:

– أخشى أن يصيب بعض الآخرين أذى من تحت الأرض إذا ما حضروا "بسم الله الرحمن لرحيم".

ردت زوجتى فى حماس:

– الأولاد فى المدارس، والبنت صرفتها ولن تعود الآن، عملت حسابى خوفا من الشوشرة.

نظرت المرأة إلى الأرض وقالت وكأنها تسألنى:

– والست هانم؟

(تأكدت أن الخيوط كلها فى يدى فقلت وكأنى أنا الذى أتولى مهمة إخراج الشياطين)

– تلزم حجرتها وتواصل قراءة القرآن دون توقف حتى ينتهى فك العمل، هذا ما فهمته أليس كذلك؟

أومأت المرأة باطمئنان، فتماديت وسألتها إن كان سوف يحدث ضرر كذا أو كذا إذا توقفت زوجتى عن قراءة القرآن، فانبرت زوجتى أنها لن تتوقف ولن تغادرالحجرة الأخرى ولا ثانية واحدة حتى تنتهى المهمة.

استأذنت زوجتى فى رضا وابتهال وهى تدعو لنا بالتوفيق، قامت المرأة إلى الحجرة المعنية وهى ترتعد وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، تبعتها وكنت واثقا، من كل ما أعمل ثانية بثانية، وكأنى أعددت كل شىء من قبل، أحكمت إغلاق الباب واتجهت إليها فى صمت، وهى لا تستطيع أن ترفع عينيها فىّ، ألاحقها بنظراتى فتهزم قبل أن تتمكن من مجرد البحث عن مقاومة، أمتلئ بقوة ممزوجة بالفخر والنصر والجنون، أحسست أنى أستطيع فى هذه اللحظة أن أصهر الحديد.

قالت وصوتها يرتجف بالخوف والرغبة:

– ماذا تريد منى؟

– لم أرد وازددت اقترابا، فقالت:

– من أين طلعت لى اليوم؟

– أنت تنتظرينني من زمان.

قالت وكأنها ضُبِطَتْ متلبسة:

– أنت إبليس ذاته.

قلت فى فخر.

– أنت تريدينني هكذا، فلن يغرقك فى بحر اللذة المجنونة إلا من هو أجنُّ مِنكِ.

– لا حيلة لى معك.

ساد الصمت ولم أبد حراكا ولا تعجلت، وكأنى أتمتع بمشاهدة هذا الأبنوس الحى وهو يغلى رغبة وغيظا.

انتظرت حتى يسيح انصهارا.

قالت وكأنها تصيح:

– هيا وخلصنا، ....، .....

* * *

قالت وهى مازالت تتفصد عرقا وتحاول أن تفيق من شبه الغيبوبة.

– من أنت؟

قلت ومازلت فخورا بدرجة جنونى:

– من أنت؟

طأطأت رأسها وقالت وكأنها تحدث نفسها.

– ما كان لى أن أستسلم لك، لن أغفر لنفسى ما حييت،

ألا تحس يا هذا؟ هل أنت "جِبِلَّة "؟ كيف تستطيع أن تواجه أولادك كل صباح؟ كيف تتمتع بزوجتك والبلد محتلة هكذا؟

قلت ومازلت فى نشوة جنونى.

– رحمة الله وسعت كل شئ.

قالت فى قوة جديدة لا تتناسب مع استكانتها السابقة.

– إخرس يا شيطان، كفى ما كان.

اهتززت لأول مرة منذ بدأ اللقاء النارى، تسرب إلى إحساسى صوت كيانى يتشقق من جديد، وكأن الصوت قادم من أغوار بعيدة، يتزايد الصوت فى هدوء مرعب، أحسست أننى أعود من آخر الدنيا مسحوبا على وجهى، لم أستطع أن أستجمع قواى لأقرر ما ينبغى أن أنهى به الموقف، اندفعت بسرعة إلى الباب ومضيت من فورى إلى حجرة زوجتى فوجدتها مازالت تقرأ القرآن، ارتميت على السرير ورأسى فى حجرها وانفجرت فى البكاء، غمَرَتْها المفاجأة، وأخذت تمسح على ظهرى وتتمتم بآية الكرسى، زادت رجفتى حتى بدأ السرير يهتز كله، رفعت رجلى على السرير وانكمشت حتى كادت قدماى تلامس ذقنى ومازلت ارتجف بالرغم من انقطاع البكاء، سحبت زوجتى الغطاء على فى صمت حتى غطى وجهى فسكنت حركتى مؤتنسا بالظلام، وسمعتها تقول قبل أن أستغرق فى النوم "الحمد لله".

* * *

لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا نائم، استيقظت فوجدتنى مازلت فى موضعى من السرير ورأسى على حجرها، تطلعت إلى وجهها فوجدتها تغمرنى بحنان وديع، خجلت من نفسى، اعتدلت وحاولت أن أسترجع ما كان، مرت الصورة أمامى مهزوزة دون تفاصيل، استقمت فى جلستى مذعورا من بعض تلك الصور.

– أين هى؟

– ذهبت من زمن، أكثر الله خيرها.

حاولت أن أتغلب على الرجفة التى كادت تغمرنى ولمّا تظهر بعد.

– هل قالت شيئا؟

– قالت ربنا موجود وهو غفور رحيم، ألم أقل لك إنها إمرأة مبروكة، حتى النقود لم تقبل أن تأخذ مليما، كله فى حب الله.

هدأت قليلا بعد أن اطمأننت إلى أن ماحدث كله قد أصبح ماضيا يُتحدث عنه.

–.. هل قالت إنى شفيت.

– لم تقل أكثر مما ذكرت، فبماذا تشعر أنت؟

انزعجت لتسلسل الحديث إلى هذا الاتجاه الآن، أنا الذى جلبته على نفسى.

– أشعر أنى بخير.

أشرق وجهها بالفرحة، ولكنى حسبت أنها الرغبة، فارتعدت، حاولت أن أنظر فى نفسى فوجدت الموت قد عاد إلى أحشائى كما هو، وربما أكثر.

– التساهيل على الله.

فهمت تراجعى وحيطتى فقالت فى شبه انزعاج:

– ألا تشعر بأى تغيير.

يانهار أسود، ماذا تريد هذه المرأة بهذه السرعة، ألا تدعنى أستجمع نفسى بعض الوقت؟ ماذا لو علمت ما جرى؟ أحسست بشىء من الفخر والشماتة معا.

– لقد فعلتُ ما أشرتِ به، وما علينا إلا انتظار الفرج.

قالت بيأس ظاهر:

– فرجُـهُ قريب،

هو الجنون، ، وإذا استمر رفضى للعلاج وهربى منه فلا أحسب أنى بعيد عن مستشفى المجاذيب إلا بمقدار أن يكتشف أمرى، علىّ أن أتخذ القرار الآن.

رحت أبحث عن العنوان الذى أعطانيه الطبيب التناسلى.

* * *

كفى ابتهالات ودعوات، هذه مسئوليتكم قبلنا، أنتم جيل الهزيمة والعار، أنتم الذين سرقتمونا وخدعتمونا ثم لا تملكون لنا إلا الدعوات المباركات

كان هناك شيء ما فى هذه العيادة يميزها عن الأخريات، ليست جمعية استهلاكية ولا مقبرة فى وادى الملوك، مجرد مكان عادى مثل أى طبيب متوسط، تذكرت طبيب أمراض النسا والولادة الذى ذهبت له فى أول الأمر وشعرت بالطمأنينة لوجه الشبه بينهما، إذن فأنا مريض عند طبيب، وخلاص !!! هل ثم خلاص؟

زادت طمأنينتى حين علمت أن الاستشارة ليست بميعاد سابق فقد كنت أتعلق بأى اختلاف عن تجاربى السابقة، لا يوجد فى حجرة الانتظار إلا نفر قليل، شعرت بالألفة لسبب لا أعلمه، جئت بدون موعد وعلىّ الانتظار، فرصة لأتبادل الحديث مع بعض الجالسين، اقتربت من أحدهم ممن توسمت فيه الطيبة والسماحة، وبعد تبادل تحية المساء قلت له:

– هل تأتى هنا من زمن طويل؟

– بضعة أسابيع، وأنت؟

– أول مرة، ولذلك فأنا متردد تماما وخاصة أنى ذهبت إلى آخرين ولم أواصل العلاج.

– لابد أن تستمر بعض الوقت قبل أن تحكم.

– خوفى يمنعنى من المحاولة.

– كلنا كذلك، ولكن للضروة أحكام.

– ليتنى أستطيع.

– ولم لا؟

– لست أدرى ولكنى أخاف كما قلت لك.

– حاول، ولن تخسر شيئا.

شجعنى حديثه المباشر فتجرأت على أن أسأله:

– آسف للتدخل فى شئونك الخاصة ولكن حديثك يطمئننى، هل أستطيع أن أعرف ماذا عندك لعلى أتشجع أكثر إذا وجدت ما يشبه حالتى.

– لا يوجد إنسان على ظهر الأرض مثل الآخر.

– وماذا قال لك الطبيب، بم شَخَّصَ حالتك؟

– علمنى ألا أختبئ وراء لا فتة، أى لافتة.

–... يعنى؟.

– عليك أن تختبر الأمر بنفسك، ولكن لا حرج من الكلام فلا محظور إلا الكذب والهرب.

بساطة الحديث وتواضعه تبهرنى، هذا شىء لم أعهده من قبل، سوف أقول له ما بى ولو لأعمل "بروفة صدق"، حضر الممرض واستدعى الشخص الباقى فى الحجرة فتشجعت أكثر للمضى فى الحديث مع جارى.

– أنا لا أعرف ماذا عندى، لكنى أشعر أنى لست مثل الناس، ولست مثلما كنت قبل ذلك.

– أظن أن كل إنسان يمر "بهذا"فى وقت ما من حياته، هناك من يتوقف، وهناك من يسرع فى الهرب، وهناك من يبحث.

(كلام جديد، هو أيضا كلام خطير، دعوت أن تطول مدة جلوسى معه، قررت أن أحكى له رضى أم يرض، عليه هو أن يوقفنى متى شاء).

– تشغلنى أمور كثيرة متشابكة لابد أن أنتهى منها أولا حتى أعرف كيف أعيش،

– أمور مثل ماذا؟

– الله والحقيقة والجنس والعمل والموت والنار,.. وكل شئ،

– يا أخى.. تريد أن تنتهى قبل أن تبدأ؟ ماذا يتبقى بعد ذلك؟ البحث فى هذه الأمور هو الحياة ذاتها،

– هذه أمور لا تشغل كل الناس،

– بل هى تشغلهم ولكن بطرق مختلفة،

كنت أحسب أن فشلى على السرير هو أعلى درجات الخزى ولكنى عرفت الآن ما هو أعلى منه وأكثر سحقا

(ما هذا كله؟ مم يشكو هذا الإنسان؟)

– لماذا أنت هنا إذن؟

أشارك فى البحث .....

– هل نحن فى مركز أبحاث أم عيادة؟

– لابد من رفيق طريق وإلا قتلتك الوحدة.

– رفيق طريق بدرجة دكتور؟

– هذا من فساد العصر، ولكنها البداية.

– وهل وجدت الرفيق هنا؟

– نحن نبحث سويا، نحاول، ونتقارب.

– نحن؟ نحن من؟ أنت والطبيب؟

– أنا والطبيب وآخرون مثلى ومثلك.

– ولماذا يبحث الطبيب معكم، ألا يعرف كل شئ.

– من ذا يعرف كل شئ؟

– لا أفهم.

جاء الممرض بلا داع فكدت أقتله، نادى زميلى ليدخل فسألته صائحا وهو يبتعد،

– اسمك من فضلك؟

قال وهو فى طريقه إلى الحجرة الأخرى وعلى وجهه دهشة عابرة.

– "إبراهيم الطيب".

صحت بصوت أكثر علوا قبل أن يختفى تماما.

– وأنا عبد السلام المشد.

لا أعرف لماذا أصررت على أن أقول له اسمى بهذه الطريقة التى ابتسم لها الممرض مشفقا فى الأغلب، لم أتذكر أن بداية الأزمة كانت حين نسيت ذلك.

* * *

جلست أفكر طويلا فى كل ما حدث، يبدو أنى مقبل على شىء جديد، هل أنا أبحث عن رفيق طريق أم عن طبيب يعالج عجزى ونزواتى معا؟ هل أنا أقبل أن يكون لى رفيق وأنا كل همى، ومنذ البداية، أن أتحاشى أى رفيق حقيقي؟ ألم أهرب من غريب لولا أنى تأكدت أن قوقعته غير قابلة للكسر؟ ألم أتحاش زوجتى لما بدا أنها قد تشعر بى ولو لحظات؟ هل سأضطر أخيرا إلى مغامرة فيها ناس بحق؟ ما حدود ذلك وأنا لا أعرف أولها من آخرها؟

ملكنى الرعب ونظرت إلى الحجرة الخالية إلا منى، زادت دقات قلبى حتى كاد يقفز من صدرى، انتهزت فرصة دخول الممرض إلى المطبخ وخرجت مسرعا حتى أخذت أجرى فى الشارع، ولم أشعر بالأمان إلا حين وجدت نفسى فى ميدان التحرير (2)

* * *

أفقت على ما حولى، لا بد أننا بعد العشاء بزمن، حركة غير عادية فى الميدان، جنود يلبسون الخوذات النحاسية، ويمسكون بالعصى الطويلة، وعربات بوليس تحمل مثلهم وتجوب الميدان، وأعداد من الشباب تتجمع وتتفرق، لا احتكاك ولا صدام، ما هذا كله؟

تذكرت فجأة – دائما فجأة – أن الطلبة فى تذمر هائل هذه الأيام، أنباء الإضرابات – التى تسميها الصحافة الاضطرابات، تملأ الصحف، إشاعات الثورة والانقلاب تدور حول المكاتب وفى الأتوبيسات، وإلى درجة أقل فى البيوت والمقاهى، أين أنا من كل ذلك؟ غائب أنا عن كل هذا من زمان، غائب أو مغيَّب، أنا مسئول، كنت أتجنب كل ذلك زمان تحت ادعاء العقل، والآن أنكره بعد أن انسحبت لكوكبى الخاص تحت ادعاء الجنون، هل هذه بلدى أم أنى مجرد سائح عابر؟

بدأ يداخلنى شعور بالخجل والذنب معا، حاولت أن أقضى عليه بسرعة، أفضل لى الآن أن أعترف بأن مابى هو مرض صريح، أنا مريض، ولا شأن لى بكل هذا، أنا لست من هنا، أنا لست سائحا فقط فى هذا البلد، ولكنى سائح فى هذا الكوكب الأرضى كله، أنا قادم من كوكب آخر؟ بل ربما أكون أنا شخصيا كوكبا آخر، هذا الجو المشحون بالحماس والشباب والبوليس، قفز "عقل بالى" آخر، تعجبت لاختلافه عن الساخر الأول:

= "هؤلاء الشباب والبوليس"هم آهلك، هم أنت،

– مالى بهم، أنا عاجز حتى عن مزاولة واجباتى الزوجية.

= "فشلك فى دائرتك الصغيرة، بصنعك فى دائرة أوسع، لا يبرر هربك.

– أنا لم أفشل بخاطرى، أنا عاجز عن الحياة بكل أشكالها.

= "كاذب، وهارب، وجبان، عليك أن تدفع الثمن"

– هذا المحيط الهلامى من الضياع؟ لست ناقصا ضياعا؟

= "تشارك أو تعيش نذلا تعسا، لا مفر،

– أنا غير قادر على شئ.

= "جبان".

– أنت الغبى.

اختلط علىّ الأمر وحاولت أن أوقف الحوار، شعرت أننى يمكن أن أهيج أو أعدوا أو أحطم شيئا أو أقتل، عاد يتحدى.

–.. لن أدعك تهنأ على حال، سوف أحرمك حق الوجود ونعمة العمى معا،

– ماذا تريد منى؟

– دعنا نذهب إليهم.

(سآخذه على قدر عقله ولسوف نرى.)

* * *

توجهت إلى أكبر مجموعة منهم مضطرا على ما يبدوا، حاولت أن أهدِّئ من مشاعرى وأن أستدعى كل قدرتى علي"الفرجة"حتى لا يدفعنى حماسى إلى ما لا أدرى بعد أن أصبحت أوقن أنى مجنون مع وقف التنفيذ العلنى، حاولت أن أضيع فى الزحام حتى لا يلحظنى أحد، اقتربُ منهم فى حذر خشية أن أضبطنى، هم يغلون بالحماس والثقة، يتبادلون الأفكار فى هدوء واضح، تصلنى بعض حواراتهم رغما عنى:

= هذا ذل ولن نسكت عليه.

= نحن مسئولن عنها أمام الأجيال القادمة.

= الانتظار تخدير أمريكى، والمؤمرات تُدَبَّر فى الخفاء.

= بل وفى العلن.

= الوعود تلقى فى المواسم والأعياد، ولا نجنى إلا تبرير الهزيمة.

= الحرب أو الثورة، ولنلق بالجميع إلى الجحيم.

= احتلال القاهرة خير من خدعة الكلام عن الإعداد للحرب.

= لا يريدون أن نواجه الهزيمة فى الشوارع خوفا على أنفسهم.

= آن الأوان، .....،

= انسحاب،

= هذه بلدنا، هم الذين عليهم أن يذهبوا،

لم أستطع أن أكمل أكثر، الكلمات تدخل إلى وجدانى كالرصاص الحارق الذى يخترقنى إلى مخزن بارود لا أعرف من الذى خبأه داخلى دون علمى، انصرفت قبل أن أنفجر فى أى اتجاه، أمسكت بخرطوم المطافئ أحاول أن أمسخ التجربة كلها بأى سخرية تطفئ مشاعرى حتى كدت أهتف بينهم "تسقط العِنَّة ويحيا الجنون"، يبدو أننى قلتها بصوت مرتفع، سمعنى أحدهم فردّ يقول: عنة السياسة ألعن، التفتُّ إلى شاب وفتاة يجلسان وحدهما على ركن من قاعدة التمثال بلا تمثال، بدا أنهما يتناقشان فى السياسة والحرب والحب، اقتربت منهما وسألت.

– ماذا تريدون على وجه التحديد؟

أجابنى الشاب بحذر وقوة.

– ومن أنت على وجه التحديد؟ من المباحث العامة أم من المخابرات؟ هل أنت مصري؟ من أنت؟

– أنا عبد السلام المشد.

قلتها وأنا أعنيها مثلما صحت بها لابراهيم الطيب فى العيادة منذ قليل، أين محصلة الكهرباء لتؤكد لهم أننى عبد السلام المشد، هذه الفتاة لا تشبهها، قالت فيما يشبه السخرية لكنها ليست كذلك تماما:

– تشَرَّفنا،

قال الشاب.

– وماذا تريد؟

قلت.

– أريد أن أحس بإحساسكم، أريد أن أعرف أكثر.

قالت الفتاة.

– ألم تعرف بعد؟ البلد محتلة من سنوات، ألم يُبْلغوك الخبر؟

قلت.

– هى النكسة، والكل يعرفها.

قال الشاب.

– يا فرحتى !! أى خدعة!! "النكسة"، ماركة سيارات جديدة هذه؟ ولم لا نقولها صريحة لنتحمل المسئولية، أليست هى الهزيمة فالاحتلال؟

–... تريدون الجلاء.

– نريد أى شىء إلا ما نحن فيه، وأنت ماذا تريد؟

من أين لى أن أعرف ، لو كنت أعرف لما كنت الآن فى هذا المكان هاربا من عيادة طبيب نفسى، من أين لى أن أعرف ماذا أريد؟ أليس كل سعيى هذا لأعرف؟

– أنا لا أعرف ماذا أريد، لا أعرف حلا لأى شئ.

(لست متأكدا إن كنت قلت كل ذلك بصوت مسموع أم لا)

– الحل هو الثورة، .. أو الحرب،

(استجمعت حكمتى القديمة لأخفى ما بى)

– ولكن لابد من الاستعداد للحرب، وإلا فنحن ننتحر،

قالت الفتاة:

– نحن ميتون، .. والميت ضاعت عليه فرصة الانتحار.

قال الشاب:

– ألا تحس يا هذا؟ هل أنت "جبِلِّة "؟ كيف تستطيع أن تواجه أولادك كل صباح؟ كيف تتمتع بزوجتك والبلد محتلة هكذا؟

انزعجت من هذا التلميح، استبعدت أن يكون قد بلغه شىء عن عجزى، كدت أسأله هل من الوطنية أن أكون عنينا حتى يزول الاحتلال؟ أحسست بزهو خفى لأنى لا أتمتع بزوجتى فى ظل الاحتلال، لا بد أن ذلك من باب الوطنية، ارتسمت على وجهى ابتسامة سرية، أحسست بحب غامر نحوهما، أنا من نفس البلد، "نحن"، أخيرا "نحن" لنا بلد معا.

– ربنا يحميكم.

فوجئ الشاب، قال رافضا بيده:

– كفى ابتهالات ودعوات، هذه مسئوليتكم قبلنا، أنتم جيل الهزيمة والعار، أنتم الذين سرقتمونا وخدعتمونا ثم لا تملكون لنا إلا الدعوات المباركات.

تمنيت أن تبتلعنى الأرض حالا، ماذا يريدون منى أن أصنع أنا بالذات؟ ما الذى جاء بى إلى هنا؟ هل كنت ناقصا اتهامات أو إهانات أو امتهانا، هذا الشباب المغرور الحالم ماذا يصنع إلا الهتاف والصراخ ثم سرعان ما يعودون إلى حظائرهم خلال أيام، كنا مثلهم فى يوم من الأيام وصنعنا الثورة فماذا صنعوا هم.

قلت مدافعا:

– لكل جيل واجب، وقد صنعنا الثورة.

قالت الفتاة:

– قل، لقد سرقتم الثورة، خدعتمونا يا رجل، أين الثورة؟

قال الشاب:

– فى كتب "التربية القومية"!!!؟ أليس كذلك؟

كدت أصيح فيهم: أنا مالى يا أولاد الكلب، كفانى ما بى، ما الذى جاء بى إلى هنا؟ .. يحملونى مسئولية الأحداث هكذا مرة واحده، وكأنى صانع الثورة، والمسئول عن انحرافها فى وقت واحد، أنا آحبكم والمصحف، حتى أسألوا، .....

قلت معتذرا ممهدا للانحساب:

– سرقوها وكذبوا علينا كما كذبوا عليكم.

لم تمهلنى الفتاة.

– أنتم رضيتم بالكذب، أنتم سَكَتُّم على الكذب.

يانهار أسود، يبدو أنى جئت إلى حتفى برجلى، أخشى أن يحاكمونى علنا مثلما كنا نسمع فى الصين، العالم أصبح صغيرا والعدوى تنتشر بأسرع مما نتصور، ملكنى خوف حقيقى حتى نظرت إلى عربة البوليس المليئة بالعساكر ذوى الخوذات، داخلنى شىء من الاطمئنان واليقين بلا مبرر: لا إعدام بلا محامكة، ولا ظلم فى عصر الشرطة! على كل واحد أن يدفع جزاء ماعمله فقط، لا أكثر ولا أقل.

واتتنى الشجاعة من منظر الشرطة المدرع فانطلقت أكمل دفاعى طالبا البراءة:

– أخفوا علينا كل التنازلات، لم نعلم أنهم يمرون فى شرم الشيخ منذ 56، ويوم علمنا حاربنا.

قالت الفتاة:

– لا تقل حاربنا قل حوربنا، وانهزمنا، وقالوا نكسة.

قال الشاب:

– ومازال الكذب يعمل قراطيسا للب والفول السودانى.

المسائل أكبر من قدرتى الآن بالذات، لا حل إلا الانسحاب قبل أن يفلت منى الزمام، الخبل السرى يعاودنى لينقذنى، قراطيس الكذب التى تستعمل للب والفول "السوداني"، كلمة السودانى استدرجتنى إلى تذكر تلك المرأة السودانية وجذعها الأبنوسى المنصهر تحت نار جنونى المختلط بالنشوة، امتلأت فخراً بفحولتى رغم الكلام عن النكسة والاحتلال والهزيمة، زهوت بنفسى لأنى حققت فى دقائق معدودة – دون مفاوضات تذكر – ما كان يحلم به كل من الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان، والصاغ صلاح سالم بلا خسائر فى الأرواح.

للجنون فوائد سرية.

انتبهت على قول الشاب.

–..... لكل شيء نهاية.

قالت الفتاة:

– ها نحن نرسم بداية النهاية:

قال الشاب: ونبدأ نحن هذه المرة.

انصرفت خجلا من أفكارى الجنونية الشبقية فى هذا الجو السياسى المحمل بالثورة ولكنى حمدت الله عليها، وعلى أنهم لم يعرفوا فيم أفكر، لم أستطع، رغم احتمائى بجنونى، أن أطفئ النار التى أشعلوها، كنت أحسب أن هذا الجانب منى قد مات إلى الأبد، رعبت من هذه الثورة بداخلى وحاولت أن ألغى كل ما حدث.

المشاعر مرعبة ضخمة تحمل معها خليطا من الخزى والمسئولية والإفاقة والعجز.

كنت أحسب أن فشلى على السرير هو أعلى درجات الخزى ولكنى عرفت الآن ما هو أعلى منه وأكثر سحقا.

* * *

أجرجر رجلى إلى بيتى وأصعد الدرج وكأن سيقانى هى أكياس الرمل المعدة لإطفاء الحرائق بعد الغارات.

بينما أنا أنتظر أن يفتح بابنا لمحت الأستاذ غريب من نافذة المنور وهو منكفئ على كتاب بين يديه، ملكنى غيظ تصاعد بسرعة فائقة حتى ملأ كل كيانى، صحت فى صمت:

"ملعون أبوك".

أحسست برغبة حقيقة فى قتله.

رُعِبْتُ من تدهور حالتى.

****

غدا "الفصل العاشر"

"الحلقة"

الإثنيـــن 18-06-2018

العدد: 3944 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل العاشر "الحلقة" والخاتمة: رواية "الواقعة"

المكتب ينتظرنى فى الصباح، والسرير بما يحمل من مذلة وخزى فى المساء، ما بين هذا وذاك أموت غيظا وأنا أتابع الأستاذ غريب وهو مستغرق فى كتبه لِيُمْثِلَ كل الحلول قبل أن تبدأ

مقدمة

نواصل نشر فصول رواية "الواقعة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل العاشر والخاتمة.

*****

(رواية "الواقعة") (1)

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

الفصل العاشر: والأخير

"الحلقة"

لم أكد أضع رأسى على الوسادة حتى اجتاحت المظاهرات البلاد تطالب بالجلاء التام، أو الموت الزؤام وبوحدة وادى النيل، أنتقل من المدرسة الثانوية بدمنهور حتى كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول، يحملنى الطلبة على الأعناق مرة، وتفعصنى كتلة أجسادهم مرات، يترجع صدى الهتافات "الجلاء بالدماء" "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"، أخطف خوذة شرطى وألعب بها الكرة، أتحمس للهتاف بوحدة مصر والسودان لأسباب خاصة" بيفين، بفين، يسقط بيفين"" صدقى

الخائن، يسقط بيفين" تخرج الجموع إلى الشوراع وتجتاح كل المقاومة البوليسية وتتجه إلى كوبرى عباس، الناس تنضم إلينا بالمئات رجال النقراشى باشا يفتحون الكوبرى على الجموع فيتساقط الشباب بلاعدد، الجموع تدفعنى إلى الحافة، لا أكاد أهوى حتى أستيقظ مفزوعا قبل أن ترتطم رأسى بعوامة الكوبرى، تنقلب زوجتى إلى جنبها الآخر وتعطينى ظهرها كأنها تقول"على إيه يا فالح" ! أمط شفتى استهتارا كأنى لم أسمع، أشعل سيجارة، أستمر صاحيا، بقايا نقاش ميدان التحرير تحضرنى دون تفاصيل.

هل يمكن أن أصنع شيئا أنا شخصيا – عبد السلام المشد – لهذا البلد الآن؟ هل هناك أمل فى أمثالى؟ هل ينقذنى ذلك من بعض ضياعى؟ هل تَبَقَّى منى شىء يصلح لأى شئ؟

تأتينى الأجوبة كلها من داخلى بالنفى أو بالمعايرة أو بالسباب.

المكتب ينتظرنى فى الصباح، والسرير بما يحمل من مذلة وخزى فى المساء، ما بين هذا وذاك أموت غيظا وأنا أتابع الأستاذ غريب وهو مستغرق فى كتبه لِيُفْشِلَ كل الحلول قبل أن تبدأ.

تتردد فى ذهنى الاتهامات الصادقة التى وجهها إلى الطلبة والتى لا أعرف طريقة أمينة للرد عليها، "أنتم رضيتم الكذب وإلا ما سكتم"، أين السبيل حتى لا أسكت أنا شخصيا"عبد السلام المشد" أعيش فى هذا البلد فى هذه اللحظة من الزمان؟ هل نحن ميتون فعلا؟ هل صحيح أن الميت لا ينتحر؟

تمر أمامى كلمات مثل"الثورة و"الانقلاب"، و"الحرية"، كلما حاولت أن أترجمها إلى شىء محدد يخص"عبد السلام المشد" بلحمه ودمه ووظيفته فى الحسابات، وشقته ذات الثلاث غرف وهو يتقلب فى الفراش الآن خوفا من الارتطام بعوامة كوبرى عباس بعد أن فتحه النقراشى باشا (هكذا قالوا)، تذهب منى كل معانى الكلمات، ماذا كان على عبد السلام المشد أن يفعله حتى لا

تتردد فى ذهنى الاتهامات الصادقة التى وجهها إلى الطلبة والتى لا أعرف طريقة أمينة للرد عليها، "أنتم رضيتم الكذب وإلا ما سكتم

يتهمه هذا الشباب النقى بالصمت والسرقة والخيانة والكذب؟ وماذا يمكنه أن يفعل الآن؟ هذا العبد السلام المشد على وجه التحديد؟

وددت لو أنى رجعت إلى هؤلاء المتحمسين أسألهم ماذا يمكن أن أفعل" أنا" شخصيا وبالضبط، الآن وليس بعد؟ أم أنها لعبة عيال وشطح أحلام؟

حتى لو كانت كذلك فهل يعفينى هذا من مسئوليتى وإحساسى بالعجز واليأس، هل أنا ناقص احتقار لذاتى حتى يتهمونى – شخصيا – بكل ذلك؟ وهم؟ ألا يهربون أيضا من عجز ما؟

– ولو، هم يمارسون الصدق، ولا يكفون عن المحاولة.

– لعب عيال، .. كل شاب منهم قد أطلق شعره ولبس المنطلون القذر الضيق، وجلس مع صاحبته ومقعداتهما متلاصقتان وراحا يلقيان التهم جزافا، ها هو الوغد الداخلى ينتهز الفرصة.

= ... أيقظوك غصبا عنك.

– أيقظونى لأفعل ماذا؟

= لتكون بشرا له إحساس حقيقى.

– بدلا من الموت عجزا وأنت تردد حكما زائفة.

– ولكنى مريض، والشعور بالعجز جزء من مرضى.

= "الآن تدعى المرض، فإذا جاء وقت العلاج تدعى الصحة".

– أنت مثلهم لا تكف عن الصياح ماذا تريدنى أفعل؟

= "تتحمل المسئولية وتسمى الأشياء بأسمائها".

– ضيعتنى حتى ضاعت منى الأسماء، أنسيتنى اسمى، جعلتنى أشك فى أنى أنا، والآن تريد أن أسمى الأشياء بأسمائها، أية أسماء وأية أشياء؟ ماذا تريد منى؟

= الثورة.

وددت لو أنى رجعت إلى هؤلاء المتحمسين أسألهم ماذا يمكن أن أفعل" أنا" شخصيا وبالضبط، الآن وليس بعد؟ أم أنها لعبة عيال وشطح أحلام؟

– ثرت على عجزى الجنسى وكدت أجن حين نجحت، ثم ماذا.

– أى عجز لا ينتهى إلا بثورة.

– ثم ماذا؟

– يوجد ألف طريق.

– لا ياعم، .عجز المرض وذل العلاج أرحم.

***

لم يبق أمامى إلا هذه المحاولة الأخيرة، تذكرت حديثى مع إبراهيم الطيب فى عيادة الطبيب الذى هربت منه قبل أن أراه، هذا الذى لاح لى ولم أعرف معالمه بعد.

ضيعتنى حتى ضاعت منى الأسماء، أنسيتنى اسمى، جعلتنى أشك فى أنى أنا، والآن تريد أن أسمى الأشياء بأسمائها، أية أسماء وأية أشياء؟ ماذا تريد منى؟

أصبحت لا أستطيع أن أنكر رغبتى فى القتل أو الدعارة، فإذا نجحت فى السيطرة عليها بعض الوقت عاودنى الصداع المتفجر أو الإحساس الميت، فإذا ما واجهت داخلى لحظات رعبت من التفتت أو الجنون، ناهيك عن المعايرة والسخرية،

ذهبت إليه هذه المرة وفى نيتى أن أحاول صادقا، فالحلقات تضيق علىّ والأمور تكاد تفلت من يدى حتى كدت أفقد السيطرة على بقية أجزائى، عرفنى الممرض وابتسم حين حاولت أن أعطيه كشفا جديدا وذكّرنى بأنى حجزت قبل ذلك، حمدت الله على أنه لم يسألنى عن سبب خروجى فى المرة السابقة، مع أنى كنت قد أعددت سببا وجيها للاعتذار، دخلت عليه فلم أجد ما يسترعى الانتباه، حين بدأ الحديث مباشرة بلا مقدمات أو استجواب أحسست وكأنى أكمل الحديث مع إبراهيم الطيب، وليس مع طبيب مختص، كان عاديا، وحكيت له عن مصيبتى السوداء،

–....هذا شىء يمر به أى إنسان يحاول أن يعيش بحق.

– ولكن حالتى قد وصلت إلى مراحل خطيرة جدا.

– كيف لك أن تميز درجة الخطورة، لابد من إعادة تحديد معانى الكلمات – هات ما عندك مباشرة.

(قلت فى نفسى لابد من تفجير سلسلة المفرقعات مرة واحدة بلا حذر أو حساب)

– رأيت فى أول المرض أمام عينى أحداثا وأشخاصا ثبت أنهم لم يتواجدوا أصلا، أظن أن هذه هلوسة لا تحدث إلا لمجنون.

– تكرر لغة أطباء يُسَمِّعون الدرس.

– ولكنها الحقيقة.

–..... ثم ماذا؟

– أشعر أحيانا بقدرة جنسية هائلة حين أطلق لجنونى العنان، ثم أعجز عن واجباتى الزوجية خوفا من بيع نفسى لها.

أشعر أحيانا بقدرة جنسية هائلة حين أطلق لجنونى العنان، ثم أعجز عن واجباتى الزوجية خوفا من بيع نفسى لها

–..... ؟

– أحيانا أحدث نفسى وكأنى عدة أشخاص.

– خطوة صعبة.

– ... تجربتى مرعبة وأنت لا تعرفها.

– ليس تماما.

– أنت، أنت شخصيا، هل رأيت شخوصا لا وجود لهم؟

– ما دمتُ إنسانا، مثلك، فأنا معرض لكل شئ.

– مثلى؟ قل لى من أنت؟

– أنا من ترى.

– هل أنت منا، أم منهم؟

– أفضل أن ترى بنفسك.

– حين دخلت وقابلتك داخلنى إحساس لأول وهلة أن الطبيب لم يحضر بعد، وحين رأيتك تنتقل إلى جوارى وتتحرك فى الحجرة أثناء الحديث وتضحك بلا تردد

زاد شكى... حتى كدت أخرج إلى الممرض لأتأكد أنك الطبيب، وأنك لست واحدا منا دخل مكتب الطبيب خلسة ليخدع أمثالى مثلما نشاهد فى مسرحيات هذه الأيام، أرجح أنك"منا".

– .... لا مفر من المحاولة.

– حاولت ولم أنجح، تصورت أنى من كوكب آخر وأن لى شبيها إنسانيا يلعب دورى البشرى على هذه الأرض، حاولت أن أتفرج فى مساحة من السماح، لم أنجح، هل نجحت أنت؟

– نجحت؟ فى ماذا؟

– في"الفرجة" على البشر ثم خداعهم بالتصرف مثلهم؟

– الفرجة عار الرؤية، الحياة شيء آخر!

هذا كلام سهل فارغ، البلد محتل والجوع والخراب على الأبواب والذل والمهانة تتغلغلان فى خلايا كل إنسان حى، أين هذا الرجل من كل هذا؟ أكمل هو دون تردد.

– نحاول سويا ونبحث سويا.

تذكرت إبراهيم الطيب.

– نبحث سويا ماذا ؟.

– نبحث عن طريقة؟

أنا أبحث عن أفضل طريقة للهرب.

(أنا هارب من شباب التحرير، لأختبئ فى لعبة العلاج)

– الهرب حق إنسانى، نحن نهرب إلى ما يمكن حتى نستطيع ما لا يمكن.

– الأستاذ غريب يلعب لعبة البحث الدائرية.

– من "غريب" هذا، لعله يبحث وحده؟ بلا تجربة؟ ولا آخرين؟

أحسست أن الحديث ينزلق بنا إلى مناقشات لا تحل ولا تربط"، كنت أتمنى

الهرب حق إنسانى، نحن نهرب إلى ما يمكن حتى نستطيع ما لا يمكن

أن يكون العلاج خدعة تعفينى من المسئولية مثل المرض تماما، هذا الرجل يملؤنى غيظا، يلوّح لى بعلاج ما، ليس علاجا بل لست أدرى ماذا؟

قررت أن أبدأ بالهجوم الاستطلاعى بلا لف أو دوران، سآخذ من ذقنه وأفتل له، أين هو فعلا من الناس والآخرين.

– والبلد؟

سكت وكأنه أدرك إلى أى منطقة أستدرجه، ثم قال:

– البلد هى أنا وأنت،

– ماذا تصنع أنت للبلد وهى تغلى وتُذَلّ؟ هل عندك غير الفرجة والكلام وجمع النقود؟

أطرق حتى كاد العرق يتقصد من جبينه.

– لا أعرف على وجه التحديد، ولكنها محاولات مستمرة للإتقان لا أنكر شعورى بالعجز، فتزيد محاولاتى لاختراقه معكم.

تذكرت عم محفوظ، ذهبت لأتبرك به فقذف إلىّ الكرة هذا الطبيب يعلن حيرته وعجزه ويطلب منى المساعدة.

– جئتك لأتخلص من الألم، لا لأزداد ألما وحيرة.

– لا أخدعك، ليس عندى إلا ما قلت.

– الألم العاجز ساحق، وهو وقود الجنون لا الثورة.

– لا أعرف سبيلا آخر، لك ولنا.

– جئتك لأهرب من العار الذى أيقظه فىّ هؤلاء الطلبة المهووسون، عار بلد محتل، لا بد وأنى أخطأت الطريق.

– يجوز.

أقفل هذا الرجل المدعى أمامى أبواب الهرب قبل أن أفتحها، كلما وصلت إلى ما يبرر عجزى، ألقى فى وجهى القفاز، يثير فىّ الرغبة فى العراك، جئته يساعدنى وإذا به وكأنه يطلب المساعدة، لست متأكدا من صدقه، لكنه

كنت أتمنى أن يكون العلاج خدعة تعفينى من المسئولية مثل المرض تماما، هذا الرجل يملؤنى غيظا، يلوّح لى بعلاج ما، ليس علاجا بل لست أدرى ماذا؟

يذكرنى بموقف "عم محفوظ"، أحاول أن أختفى منه تحت سابع أرض فأجده ينتظرنى هناك لأحلق معه فى السماء السابعة.

أية مصيبة أن تكون رحلتك بكل هذه المشقة من أعمق درجات الضياع إلى أعلى درجات المسئولية، هذا ليس طبا، لا بد أن هذا الرجل أجن منى، ومن المرأة السودانية، ومن كل جنون الأرض والسماء، أو أنه كذاب هارب لا أكثر، هل عرف كل شئ؟ هل هو سيفرض علىّ معرفته هذه؟ هل هو يقتل وحدته برفقة أمثالى؟ لحساب من؟ من هو على وجه التحديد، وكيف عرف كل ذلك؟ لو كانت معرفته من الكتب لعرفها كل المختصين هذا التخصص ولصادرت الحكومة هذه المهنة؟ هل مر بمثل ما نمر به ثم اختبأ فى ثوب طبيب؟ قلت له وأنا أحول دون أفكارى حتى لا تظهر كما خطرت لى:

أية مصيبة أن تكون رحلتك بكل هذه المشقة من أعمق درجات الضياع إلى أعلى درجات المسئولية

– وهل هناك أقراص وألاعيب مثل الآخرين؟

– كل شيء ممكن.

صمت، فصمت.

مضى وقت طويل طويل حتى عاودنى رعبى القديم.

كنت أخاف العقاقير فقط فأصبحت أخاف الشفاء من أى نوع، قرب الشفاء منى أخطر علىّ من كل احتمال آخر، لا بد من وقت للتفكير قبل اتخاذ قرار قد يكون بلا رجعة، انصرفت وأنا أحاول أن أتهم هذا الرجل بالجنون والهرب والارتزاق من جديد.

***

كلما مرت الأيام ازدادت حاجتى إليه وازداد خوفى منه، مجرد علمى بوجوده "هناك" كان يطمئنى بشكل ما، حتى أنى كنت أحوم حول عيادته لأطمئن أن سيارته بالباب، ثم أنصرف قبل أن أضطر إلى العودة لزيارته، لا، .. ليس هذا هو حلى أنا، حتى لو كان هو حله هو، لا توجد قوة على الأرض يمكن أن تستدرجنى إلى أن أغامر هذه المغامرة المرعبة.

أين البديل؟

الشعور بالعجز يزحف علىّ فى كل مجال رغم نجاحى الظاهرى فى مجال العمل واختفاء أغلب الأعراض، واستسلام زوجتى يأسا أو انتظارا لفرج يأتى من المجهول.

لا أستطيع أن أنسى: لا حديث الطلبة فى ميدان التحرير ولا حديث الطبيب الذى أكاد أجزم بجنونه، ذهبت إليه أريد التخلص من هم هذا البلد الذى أحاط بى دون ذنب جنيته، فما عمرى اشتغلت بالسياسة ولا فكرت فى ذلك، ومع ذلك أشعرنى أنى المسئول الأول والأخير، كنت أحسب أن الطبيب سيُرجع لى عقلى ويقنعنى بأن كل هذا كلام خادع، فإذا به يحملنى هم الإنسان فى كل مكان.

***

يخطر ببالى أحيانا أن خير سبيل لاستعمال جنونى بشكل"خلاق" كما يقولون – هو أن أنمى تجربتى مع المرأ ة السودانية، أحيى العظام وهى رميم، أخترق أسوار النساء اللاتى يخفن المتعة وينكمشن وراء التردد والبرود، هذا عمل جليل أفضل من هتافات الطلبة وكلام هذا الطبيب المجنون، يرسم لى خيالى أحيانا صورة لعلاقات راسبوتينية تسبح فى أنهار اللذة والخدر، ربما وجدت بذلك حل الإنسان الجديد بأن أصنع نسلا أرقى من خلال الجنس المجنون.

***

أحسست أنى أنتهى إلى وضع قريب مما وصل إليه الأستاذ غريب، أنا أنتظر شيئا مجهولا أتصور أنه يمكن أن يتم بين يوم وليلة، شىء يهبط من أعلى أو تتفجر عنه الأرض، شىء يجيب على الأسئلة الحائرة ويضع حلا لكل هذا الضياع، هل هى عدوى من غريب أم أننى فهمته خطأ، غريب لا يكل من الانتظار ولا يستعجله، هو يستطيع أن ينتظر طول الدهر.

– هيه؟ ماذا وجدت يا غريب؟

كنت أخاف العقاقير فقط فأصبحت أخاف الشفاء من أى نوع، قرب الشفاء منى أخطر علىّ من كل احتمال آخر، لا بد من وقت للتفكير قبل اتخاذ قرار قد يكون بلا رجعة، انصرفت وأنا أحاول أن أتهم هذا الرجل بالجنون والهرب والارتزاق من جديد

– التاريخ يعيد نفسه.

– وهلى نعيش – أنت وأنا – فى التاريخ الذى يعيد نفسه، أم أننا خارج دائرته.

– وعينا به هو الذى يصور لنا أننا خارج دائرته.

– نكف عن الوعى أم نستسلم بإرادتنا فى دائرة التاريخ الذى يعيد نفسه؟

– لا أعرف، أنا أبحث وأنتظر.

– طال انتظارك يا غريب.

– لن أخدع نفسى بالحلول الجاهزة.

– عرض على مؤخرا حل جديد بعد أن خفت مثلك من الحلول الجاهزة.

– أى حل تعنى؟

– علاج جديد، يسميه صاحبه بحث مشترك؟ أو رفقة طريق،" أو علاج جمعى" وهو يتحدث بألفاظ مغرية ولكنه لا يعطى ضمانات، وليس له معالم.

قال بانزعاج وحذر:

– تقول علاج؟ وهل أنت مريض؟

فوجئت أنى لم أذكر له، إلا تلميحا، ربما، طوال هذه المحاولات عبر شهور وشهور لم أذكر له، أى شىء عن تجربتى مع المرض والأطباء.

– اختلفت الأسماء، أشعر أن الحال لا يمكن أن تستمر على هذا الوضع،

– وماذا قال لك هذا الطبيب؟

– هذا آخر ما يهم، فقد خيل إلى أنى وجدت أفلاطونا عصريا، أو مجنونا هاربا من المستشفى.

– هذا طريق خطر ستسجن نفسك فيه بقية عمرك.

– أنا سجين أصلا.

– العلاج زنزانة مفردة بفتحة واحدة، عليها سجان غبى.

الشعور بالعبز يزحف علىّ فى كل مجال رغم نجاحى الظاهرى فى مجال العمل واختفاء أغلب الأعراض، واستسلام زوجتى يأسا أو انتظارا لفرج يأتى من المجهول

– من أدراك يا غريب؟

– لى خبرة فى هذا السبيل ظننت يوما أنى مريض، وترددت على كثير منهم حتى أنقذنى أحدهم.

– أنقذك؟ كيف؟

– واحد ذهبت إليه بعد أن كدت أعتقد أنى مجنون فإذا به يرجع لى حريتى، ويدعنى وشأنى، واقتنعت من خلال صدقه أن من حقى أن أكون كما أشاء حتى لو كنت مجنونا، لن أنسى جميله ما حييت فقد استعدت حريتى وبدأت حياتى.

– بدأت ماذا؟

– حياتى الخاصة الحرة تماما من أى أوهام بالمرض أو بالعجز.

– .... أو بالعجز، !!! تحت زعم الانتظار المؤبد؟.

قال متجاهلا تلميحى:

– نعم، ..

– وهل ما أنت فيه هو الحياة الحرة بلا عجز؟ هل هذا هو الحل.

– وهل خلقنا لننتظر؟

– ليس ذنبنا أننا خلقنا، ومن حقنا أن ننتظر.

– لكنى لا أستطيع.

– ولكنى أستطيع.

– كيف أنتظر والعجز يسيطر على كل كيانى؟

– لماذ تسميه عجزا؟

– ماذا تسميه أنت؟

– سمه ما تشاء: الحكمة، أو الحرية، أو عين العقل،

– والبلد؟

– ما لها؟

أن خير سبيل لاستعمال جنونى بشكل "خلاق" كما يقولون – هو أن أنهى تجربتى مع المرأة السودانية، أحيى العظام وهى رميم، أخترق أسوار النساء اللاتى يخفن المتعة وينكمشن وراء التردد والبرود

– هل يمكن أن تنتظر الفرج بنفس الطريقة إلى مالانهاية؟

– الحل فى النظرية،

(قفز عقلى الآخر يعاود نشاطه فجأة قائلا" النظرية فى النملية". نهرته بلا رحمة)

– أيه نظرية يا غريب؟

– النظرية المتكاملة.

– ولو أصبحت يوما فوجدت اليهود يسيرون فى الشوارع.

– لست قائدا للقوات المسلحة، ولا رئيس جمهورية.

– يا نهار أسود يا غريب، هل تعنى ما تقول؟

– لن أخدع نفسى.

– ولو اعتدوا على نسائنا وحرماتنا.

– ليس لى نساء ولا حرمات، أنا حر تماما.

ضبطت نفسى بأقصى ما أملك مما تبقى لى من عقل وواصلت.

– وثورة الطلبة فى ميدان التحرير؟.

– وها هم أولاء قد عادوا إلى الدراسة مثل كل عام، قصة مكررة .

– أنا لا أصدق حرفا مما تقول، أنت تشوه كل شىء حتى تستمر كما أنت، ألا تحسب أن علينا أن نحارب؟

– لا أمل فى الحرب، ولا فى السلم.

انصرفت مليئا بالغيظ، ولكنى كنت أعيد التفكير فيما قال، ...

***

اقترب منى الأستاذ أسعد صباح الأحد وأنا جالس على المكتب.

– هل سمعت البيان رقم 5؟

– سمعته، ولكن من يدرى فكم سمعنا بيانات؟

علاج جديد، يسميه صاحبه بحث مشترك؟ أو رفقة طريق،" أو علاج جمعى" وهو يتحدث بألفاظ مغرية ولكنه لا يعطى ضمانات، وليس له معالم

– هل تشك فى جدية ما يجرى؟

– مازلت أذكر 67 ولا أقوى أن أعيش نفس الأحداث والمشاعر،

– الأمر مختلف، نحن الذين بدأنا الهجوم.

– مؤتمر"السلاطة" سنة 67 مازال يخايل ناظرىّ.

– الحرب دائرة من الثانية ظهر أمس، والعبور كاد يتم،

– صوت أحمد سعيد يرن فى أذنى مساء يوم الاثنين المشئوم من ست سنوات"سقط المكبر يا عررررراب"" سقط المكبر يا عرب" حتى حسبنا أن الحرب ستنتهى فى ساعات، وكلما رن صوته فى أذنى بعد ذلك ضحكت حيث تبينت أنه كان يعنى أن الميكروفون، هو المكبّر الذى قد سقط من يده، لا أكثر.

–هل هذا وقت سخرية يا أستاذ عبد السلام، ارفع رأسك يا أخى.

– حاسب من رفعها أكثر من اللازم حتى إذا سقطت لا تنكسر منك.

– أنت انهزامى متشائم،.

– سوف أصبح أول المناضلين فى اليوم السابع من الحرب.

– ولماذا السابع؟

– لا أنسى الأيام الستة.

– الأمور اختلفت.

– لست متأكدا.

– أنت حر، لكننا نحارب.

***

قال الأستاذ نصحى فى حكمة تحليلية:

– هل رأيت يا عبد السلام، فشل التقمص بالمعتدى؟

كدت أصعق وتساءلت فى استطلاع خبيث:

– فشل ماذا؟!

واحد ذهبت إليه بعد أن كدت أعتقد أنى مجنون فإذا به يرجع لى حريتى، ويدعنى وشأنى، واقتنعت من خلال صدقه أن من حقى أن أكون كما أشاء حتى لو كنت مجنونا، لن أنسى جميله ما حييت فقد استعدت حريتى وبدأت حياتى

– اليهود تقمصوا النازى ولا بد أن ينتهوا نفس النهاية،

تعجبت من أن فكره التحليلنفسى، لا يهمد أبدا، قلت فى إثارة:

– وهل اليهود مرضى مثلى (لم أقل، .. ومثلك)

– مرضى ومجانين أيضا، قل ما شئت فى شذوذهم وعقدهم،

قلت متماديا فى الفكاهة الخبيثة حتى أخفف من توترى وأنا أتمتع بتتبع تعصبه وحماسه التحليلى ونحن فى "عز الحرب".

– وحكاية الجنس، الله يفتح عليك؟

– طبعا وما الحرب إلا مظهر جنسى.

تذكرت لفورى المرأة السودانية، لماذا تطل على هذه الصورة فى مثل هذه الظروف؟ طردت الصورة بسرعة قائلا:

– اسمع يا أستاذ نصحى ادع معى بالاستمرار مهما كانت النتائج.

البيانات تتوالى ومعارك الدبابات متواصلة، مر اليوم السادس ومازلنا نحارب، عاد لى شعورى بالحياة بشكل لا يوصف، هذا هو.

قالت زوجتى كأنها ترقص بعينيها.

– الحرب يا عبد السلام.

قلت وأنا ممتلئ بكل شئ.

– أخيراً.

– الحمد لله.

– ربنا يتمم بخير.

رأيتها كما لم أراها من قبل، اقتربت منها دون تردد، ضحكنا بعد أن نجحنا وكأننا عبرنا القنال معهم وحطمنا خط بارليف.

قلت لها مازحا منتشيا:

– سيولد فى عهد الحرية.

قلت متماديا فى الفكاهة الخبيثة حتى أخفف من توترى وأنا أتمتع بتتبع تعصبه وحماسه التحليلى ونحن فى "عز الحرب".
– وحكاية الجنس، الله يفتح عليك؟
– طبعا وما الحرب إلا مظهر جنسى

مصيرى فى يدى لأول وآخر مرة بلا حاجة إلى ادعاء المرض، أو استشارة طبيب، ارتد بصرى إلى الماء الساكن، وشعرت براحة عميقة، وانا أقفز لأتخطى الحاجز وأسرع إلى نداء الماء من تحتى وألتفت للوراء خوفا من أن يكون الحارس قد رآنى فيحاول أن يلحق بى

***

خاتمة، .....

صفقت الباب خلفى ودخلت هائجا أريد أن أحطم أى شىء فى طريقى. كاد غريب يقفز من صوت ارتطام الباب، ولكنه كالعادة – سرعان مازاد شحوبا وهو يتمالك نفسه، كان ذلك مساء الأربعاء المشئوم.

قلت فى غيظ قاتل:

– أمازلت تنتظر يا غريب ؟؟

سكت بلا أية نية فى العراك، ولمحت لأول مرة الدموع تتساقط من عينيه فواصلت:

– كتب علينا أن نعيش كل بضعة سنوات هذه المسرحية المعادة، الذل – الأمل – المحاولة – الخيبة – الكذب – الموت.

لم يرد وزادت دموعه حتى كدت أهزه من منكبيه ليرد على ولا يدعنى وحيدا أكلم نفسى:

–... فقد كنتَ معنا يا غريب طول الوقت وأنت تتصنع الوحدة واللامبالاة.

رفع حاجبيه وكأنى ضبطه متلبسا بعدم الوحدة.

– لا داعى للكلام.

– ولا إمكانية للعمل.

– انتهى كل شئ.

– وبدأنا الصراخ والاستجداء.

–...هل سقطت السويس حقا؟ ما حكاية الثغرة؟.

– وحوصر الجيش الثالث.

– القصة مكررة.

–لم تصدقنى حين قلت لك إن التاريخ يعيد نفسه.

ثرت بلا قصد:

– ولكنا حاربنا يا غريب.

– العبرة بالنتيجة.

– الحرب لم تنته.

– سنقبل وقف إطلاق النار، ثم نبدأ الحديث من جديد عن النكسة الثانية والخيانة،

– لو حدث هذا فنحن نخون أنفسنا بالاستمرار فى هذه الحياة،

– ماذا تعنى؟.

– إما أن نعيش أو نموت، ..،نعم أو نموت، فاهم!!؟.

قال لى وكأنه يحاول أن يرجع إلى قوقعته قسرا ولكن دون حماس

– أو ننتظر؟.

– ماذا تقول؟ ما هذا؟

***

خرجت إلى الشارع مباشرة بعد أن نظرت إلى باب شقتى نظرة أخيرة، لم أجرؤ على الدخول لتقبيل أولادى فى هذه الساعة، كنت أسير فى الشارع بخطى عجلى وكأنى أخشى أن يفوتنى قطار ما على وشك الرحيل، كان قرارى واضحا بلا غموض، عجزت عن الحياة مثل الناس، وها هو ذا العار يقضى على بصيص الأمل الذى تخايلت به من أيام،

وقفت فى منتصف كوبرى قصر النيل، الهواء البارد يصفع وجهى يذكرنى بالحياة رغم قرارى بانهاء كل شئ، نظرت إلى الماء الساكن كالبركة الحزينة بلا أمل فى فيضان أو حتى طوفان، اقترب وقع أقدام الحارس منى، مازال يظن أن الحرب قائمة، مخدوع غبى، لن أرد على ندائه، لا يستطيع أن يلحق بى.

مصيرى فى يدى لأول وآخر مرة بلا حاجة إلى ادعاء المرض، أو استشارة طبيب،

ارتد بصرى إلى الماء الساكن، وشعرت براحة عميقة، وانا أقفز لأتخطى الحاجز وأسرع إلى نداء الماء من تحتى وألتفت للوراء خوفا من أن يكون الحارس قد رآنى فيحاول أن يلحق بى.

****

انتهت رواية "الواقعة" الجزء الأول من ثلاثية "المشى على الصراط" ويليه الجزء الثانى "مدرسة العراة" من نفس الثلاثية وهو الذى سوف نبدأ نشره الأسبوع القادم بنفس المعدل:

فصل يوميا لثلاث أيام متتالية: (السبت/الأحد/الأثنين) وذلك على لسان من شارك فى هذه الخبرة المكثفة لما يسمى "العلاج الجمعى" بما فى ذلك عبد السلام المشد وفردوس الطبلاوى زوجته وجارهم غريب الأناضولى حتى إبراهيم الطيب الذى التقاه عبد السلام فى عيادة الطبيب الأخير الذى يمارس هذا العلاج.

وأرجو أن يكون فى ذلك ما يشجع الأصدقاء على المتابعة ببطء

والمشاركة بما تيسر!!

السبـــــت 23-06-2018

العدد: 3948 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل العاشر "الحلقة" والخاتمة: رواية "الواقعة"

صبرت حتى على العجز نفسه، وعلى فضيحة انتحاره، لكنه لايتركنى فى حالى، يريد منى أن أذهب معه إلى العلاج؟ أى مصيبة وصلنا إليها، أى علاج هذا المجنون، ماذا بى للعلاج؟

مقدمة:

نبدا من اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل الأول

بصراحة حين قرأته لمراجعة أية أخطاء مطبعية، لم أستطع أن أصدق أننى أنا كاتب هذا النص منذ أربعين عاما، فأملتُ أن يقرأه معى أحدكم مثلما قرأته، كما آملتُ أن تكون بقية الفصول فى مستواه.

أنا آسف

الحمد لله

*****

)رواية "مدرسة العراة("

الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط"

<u>الفصل الأول</u>

<u>"فردوس الطبلاوى"</u>

مالى أنا؟ يكفينى ما بى، عيالى أولى بى، همى بيتى، مطبخى، ستائر حجرتى، ألا يكفيه أنى أهتم به، حتى بإصلاح جواربه، ماذا يريد منى بعد ذلك؟

صبرت حتى على العجز نفسه، وعلى فضيحة انتحاره، لكنه لايتركنى فى حالى، يريد منى أن أذهب معه إلى العلاج؟ أى مصيبة وصلنا إليها، أى علاج هذا المجنون، ماذا بى للعلاج؟ كلام فارغ فى فارغ أنا عرفت حركاته، يريد أن يلصقها بى فى النهاية، لن أذهب ولو انطبقت السماء على الأرض.

تنازلت له عن كل شئ، نسيت نفسى إرضاء لأنانيته: الليسانس، وأحتفظ بورقته مع خزين البصل، أهلى، وانقطعت علاقتى بهم، أصدقائى، وانصرفوا عنا هربا من قلة ذوقه، حتى قراءة الفنجان التى كنت أعرف من خلالها نفوس الناس أحسن مما أسمعه عن طبيبه المخلول، نسيتها وما كان قد كان، ثم ها هو ذا لا يدعنى فى حالى، أريد أن أعيش مثل الناس، ما لها الست محاسن جارتنا، وابنة خالتى صباح، وتماضر الجحش زوجة سعد عرفة، بل ما لها أم عنتر زوجة عم عبده البواب؟

عشت معه طول هذا العمر وتحملت ما تحملت على أمل أن يكف عن الجرى فيما لاطائل وراءه، كاد أملى يتحقق بمرور الأيام حين أصبح مطيعا سلسا بعد سنوات، ثم حدثت المصيبة التى لا أدرى من أين جاءتنا، مصيبتى كبيرة فى هذا الرجل، لايعتقد أنى أملك جهازا للتفكير مثله، يحسبنى دائما أعيش فى غيبوبة، أقرأ فى عينيه نظرات الاحتقار وأصبر، أنا أعرف الحياة أكثرت منه، وما صبرت عليه كل هذا الصبر إلا لأنى أفهمه أكثر مما يفهمنى، كان أملى أن يكملها الله بالستر، ولكن..

= مالى أنا بكل هذا يا عبد السلام، الله يهديك.

– هذا هو رأيه، وهذه مهنته، وهو يعرف الصالح أكثر منى ومنك.

= وأنت؟ أليس لك رأى؟ وأنا؟ أنا مالى يا عبد السلام الله يخليك، البيوت أسرار دعنا نعيش فى ستر، دعنى فى حالى.

عشت معه طول هذا العمر وتحملت ما تحملت على أمل أن يكف عن الجرى فيما لاطائل وراءه، كاد أملى يتحقق بمرور الأيام حين أصبح مطيعا سلسا بعد سنوات، ثم حدثت المصيبة التى لا أدرى من أين جاءتنا

– أنا لم أذهب مختارا كما تعلمين، اضطررت إلى هذا الطريق عقب نجاتى من الحادث، ليس أمر من المر إلا العجْز والضياع.

= تقول "الحادث" أنت الذى عملتها فى نفسك، خيل إليك أن العالم انتهى وأن مصر خربت، صدقت الإشاعة واعتبرت الثغرة بداية الهزيمة التى لا نَصْر بعدها، عملتها ولولا ستر الله وأولاد الحلال ما كنت بيننا الآن، أنت تهرب يا عبد السلام من الحياة عمال على بطال.

– عمر الشقى باق.

= وهذه مصر بخير.

– ليس تماما.... يمكن أن تكون بخير، إذا فعلناه نحن، إذ كنا نحن بخير.

= نحن بخير يا عبدالسلام، وكفى جريا وراء الأوهام.

– لستُ بخير يا فردوس.

=وما الذى يمنعك أن تكون بخير؟

–،،،،،،.

= قل لى ما الذى يمنعك؟

– أنتِ.

= أنا؟ هذا ما عملت حسابه طول عمرى، سوف تلف وتدور ثم تأتى باللوم على رأسى.

– لا أقصد أنت أنت، ولكن أى أنت.

= يا نهار أسود، تريدنى أن أذهب معك هناك حتى يلتوى لسانى هكذا.... لاقوة إلا بالله.

– يا امرأة، إفهمى ليس أمامى خيار.

= سلب هذا الرجل إرادتك يا حبة عينى، أين أنت يا عبد السلام؟

– يا ولية، إفهمينى... ليس لى خيار، المصيبة داخلى وأريد أن أحافظ على بيتى، لم أعد أستطيع الكذب، هذه هى الحكاية.

مصيبتى كبيرة فى هذا الرجل، لايعتقد أنى أملك جهازا للتفكير مثله، يحسبنى دائما أعيش فى غيبوبة، أقرأ فى عينيه نظرات الاحتقار وأصبر

= أى كذب وأى هباب، أنت لاتحافظ على شئ إلاعلى جنونك، أنا التى دفعت عمرى لأحافظ على بيتنا، وأنت لست هنا من أصله.

– ما أعجزنى إلا العجز.

= العجز؟ قل شاء الله يا أم العواجز.

– أنت لا تدركين الخطورة، هذا البيت مهدد بالانهيار.

= تهددنى بعد أن صبرت كل هذه السنين، تأكلنى لحمة وترمينى عظمة.

– أنا مريض وأعالج، والطبيب طلب حضورك.

= لا تضع الفأس فى الرأس.

– جرّبى من أجل الأولاد.

= ما لك أنت بالأولاد، أنت لاتعرف عنهم شيئا، أحيانا أتصور أنك لا تعرف حتى أسماءهم، كفى تهديدا، لى رب اسمه الكريم وعندى شهادة، ولا أحد يموت من الجوع.

– وحبنا؟

= تتكلم عن الحب يا عبد السلام؟

– أبحث عن أى لغة تفهمينها، ولو كانت بلا معنى.

=... تضحك على... ولا تلبث أن تستهين بعقلى كالعادة، لا تتكر أنك لم تعد تطيق رؤية اثنين يحبان بعضهما البعض، ولو فى التليفزيون.

– لا أطيق الكذب.

= ما تسميه صدقا هو الجنون ذاته.

– إسمعى، إما أن تحضرى أو أكف عن العلاج، أو،

= تهددنى يا عبدالسلام؟

–أنا مضطر لإكماله يا فردوس.

=.... يا ليتنى أفهم شيئا.

-1-

أنا أعرف الحياة أكثر منه، وما صبرت عليه كل هذا الصبر إلا لأنى أفهمه أكثر مما يفهمنى، كان أملى أن يكملها الله بالستر، ولكن....

آخر زمن..

علاج هذا أم قهوة للمساطيل، مالى أنا وكل هذا، هذا الرجل ليس طبيبا ورحمة أمى، هارب من مستشفى المجاذيب بلا أدنى شك، هو أكثرهم جنونا، خيبته تفوق غباءهم المستَسْلِمْ، لم يوجه لى أية كلمة، لعله حسبنى لا أملك ذلك الجهاز فى الدماغ الذى يفكرون به، أنا أستطيع أن أزنهم جميعا بنظرة واحدة، نظراته تخترق مالا يعرف، لن ينال منى شيئا لأنى أذكى منه ومنهم.

****

ما هذه الأشكال كالتحف التى لا تصلح إلا للمتحف؟ تلك المرأة التى اسمها إصلاح طبيبة مساعدة أم وسيط منوم مغناطيسى؟ تكاد تأكله بنظراتها، يجمع حوله الضحايا ويفعل بهم ما يريد.

****

قلبى يتقطع على تلك الوردة التى لم تتفتح "بسْمة" ما الذى أتى بها إلى هذه المجموعة؟ ليس بها إلا ما يمر على البنات فى سنها، أنا نفسى طالما قلت ما تقول حين كنت فى سنة أولى جامعة، ارفعوا أيديكم عنها ياحكماء أخر زمن، دعوها لتختار وحدها وتبحث وسوف تنسى كل شئ، كلنا ننسى كل شئ، مستقبلها فى شبابها وأولادها وبيتها، ما الذى أتى بك إلى هنا يا ابنتى؟

****

لم أستغرب أن وجدتك هناك يا "غريب"، هذا مكانك الطبيعى، بدأ الفأر يلعب فى عبى منذ لاحظت زيارات زوجى المتكررة لك، طول عمرى أقول عليك أعزب جبان، لابد أنك تريد خراب بيتى لينضم إليكم زوجى متفرجا مثلك، لابد أنك وراء كل هذا ومقام السيدة.

****

فهمت من "ملكة" وهى تكلم جارها غالى أنهما زوجان، الحمد لله أنى وجدت مصيبة مثل مصيبتى، ملكة غيرى، ثابتة لا تتحرك ولا تهتز، زوجها المتحمس

أعدت النظر إلى زوجى عبدالسلام وكأنى أراه لأول مرة، بدا لى غريبا عنى، لا، بل هو عبدالسلام الذى تزوجته أيام الآمال والغباء، قلبى يدق للذكرى أو لعله يدق خوفا من التذكر، أخاف أن يعاودنى الأمل.

المتكلم يعمل الواجب وزيادة، لا يبدو عليها رائحة مرض أو مشاكل، نادٍ هذا أم عيادة؟ ملكة تكاد تحيط زوجها بسلاسل نظراتها وهو منتش فى حذر، كلما نظرتْ إليه فى ولَهْ صَفَا ذهنه وعلا صوته أكثر، وراءهم حتى أعرف السر، لا يخلو مجيئى من متعة نسائية.

فلتستيقظ هواية حب الاستطلاع، والعاقبة عندك يا عبدالسلام.

****

وهذا الإنسان الحالم، مختار لطفى، إذا لم أكن قد نسيت اسمه، أعتقد أنه ابن ذوات لا يجد ما يفعله ولا ما ينفق فيه نقوده، لعله جاء يتسلى حسب "الموضة" ويتفرج على هذا المسرح الحى، ولابأس من أن يجد فرصة كذا أو كذا، من يعرف؟، طول الوقت ينظر إلى نجوى التى حسبتها مانيكان من طريقة حركاتها وعنايتها بجسمها ولبسها، كل ذلك لم ينجح آن يخفى عنى حزنها، لعلها فقدت عزيزا وتعالج هنا بتعقيد نفسها بالمرة لزوم العصر الحديث، تتسلى بالكلام الفارغ عن الحزن الواجب.

****

وهذا الذى اسمه "كمال" يتجول على رصيف المجموعة طول الوقت، يتسكع ولا يشارك أبدا.

****

أما "عبد السميع" فهو يغط فى غيبوبة لاتمت إلى عالمنا هذا، شحوب وجهه يكاد يعلن أنه لم ير النوم من زمن سحيق.

"إبراهيم" هو الإنسان الوحيد الذى ارتحت له بين الجميع، ملامح عظيمة وصوت ريفى فخم، وقلب طيب فعلا، قلبه فى عينيه، وروحه فى يديه، ووجهه ينطق بكل أسراره دون كلام.

****

ليس لنا يا بسمة سوى ذلك المخزن الدافئ الذى يفقس فيه البيض ليصنع فيه العيال، نعدهم للجنة التى لم نحققها، الحكاية أبسط من كل ما يدعون، يريدون أن يوقفوا الزمن ليحققوا بأنفسهم الجنة التى لا يعرفونها

أعدت النظر إلى زوجى عبدالسلام وكأنى أراه لأول مرة، بدا لى غريبا عنى، لا، بل هو عبدالسلام الذى تزوجته أيام الآمال والغباء، قلبى يدق للذكرى أو لعله يدق خوفا من التذكر، أخاف أن يعاودنى الأمل.

بسمة تذكرنى بأيام زمان، وعبدالسلام يبدو مثلما كان، وأشياء تكاد تستيقظ فى، تبدأ بحب الاستطلاع، والبقية ترعبنى.

****

كل ذلك كذب فى كذب، سوف لا أعود ثانية ولو ذبحونى، نبش القبور هو ألعن جريمة فى الوجود، وخاصة إذا كان فى القبر أمل فى حياة ما- الصداع يكاد يقتلنى.

- فاطمة، بنت يا فاطمة، كوب شاى وأسبرينتين.

قال عبدالسلام مقاطعا:

- هه؟ ما رأيك؟ لم تتحطم الدنيا.

= عندى صداع.

- الحمد لله.

= ماذا تقول يا عبدالسلام؟ أقول لك عندى صداع تقول الحمد لله، عندى صداع ويبدو أن أنفى سيرشح.

- ربما تحرك المارد.

= إسمع: لقد طاوعتك على قدر عقلك من أجل خاطر الأولاد- أما أن تنقل هذا الكلام الفارغ ليكون أسلوب حديثنا فى البيت فلا، وألف لا، دعنا نعيش.

- سوف يحدث،

= لابد أن تعقل عاجلا أو آجلا، الناس كلها تعرف كيف تعيش بلا علاج ولا يحزنون.

-.... يعنى.

= إسمع، دعنى أنام.

ألا تعرفين أن الماء الذى لا يكفى لإطفاء النار يزيدها اشتعالا؟

غالى مؤمن بالعلم فى كل مكان وفى أى مكان، يقول إنه يجد الديالكتيك الحقيقى فى هذا الصراع العميق، هنا بين العجز والإرادة، بين الحياة والموت، نحن نحرر أنفسنا لتتحرر الجماهير

– تصبحين على خير.

=.....

أى خير أصبح عليه؟ لن يكون هناك خير مادام هذا الباب مفتوحا، فى عينيه لمحة انتصار لم أرها من زمن، سوف يغط فى النوم عما قليل يكاد الصداع يفجر رأسى.

أنا لا أهدد أحدا ولكنى خائفة من ثقتك بالحدود التى تحاول أن تطلقنى فى داخلها.

= فاطمة، الترمومتر يا فاطمة.

– ماذا بك يا فرودس؟،

=أكاد أغلى... لابد أن بى حمى.

– لا أحسب ذلك، جبهتك باردة كالثلج.

= دعنى لحالى.... أنت عمرك ما اهتممت بصحتى، ولا بى.

– ما تطلبينه ليس اهتماما.

= أنا لا أفهم ما تقول، أريدك أن تشعر بى، تسأل عنى، تهتم بما أنا فيه مثل كل الناس.

– أنا طول عمرى أهتم، ولكن بطريقتى.

= الله يخرب بيت طريقتك، هى التى جاءت لنا بكل هذه المصائب.

–....

خوفه أكبر من خوفى، سوف أضاعفه حتى نهرب معا، هذا هو طريقى للعودة به إلى عشى الآمن

= جسمى يرتجف من الصداع والحمى.

– ننتظر قراءة الترمومتر.

= تتحدانى؟ تكذبنى؟ لن أقيس الحرارة وهذا هو الترمومتر، .. هِهْ، إسمع: سوف أهرب منك ومما تفعلون مثل حبات الزئبق هذه، فلا تأمل فى شئ، أنا أدرى بنفسى،

– فردوس، هل فكرت فى أصل الحكاية؟

= لا أصل ولا فصل، والله العظيم أترك لك الحجرة، أو أترك لك البيت إن شئت.

– أنتِ حرة.

– أنتِ حرة.

= لا يا شيخ!!، ماذا تقول؟ منذ متى وأنا حرة؟

– أنت طول عمرك حرة.

= كذاب، كذاب.

– رجعنا إلى أيام زمان.

= بعيد عن شنبك أن يتكرر شئ من زمان، لن تخدعنى بكلمات الحب والعالم الذى ينتظرنا لنصنعه معا! سوف أذهب معك لتشفى أنت، لا لأمرض أنا، أولادى أولى بى، وأنت لن تنفعهم فى شئ.

– 2 –

بسمة يا حبة عينى، لا تغيب صورتك عن بالى يا ابنتى، كم أحبك، كم أشفق عليك، ماالذى جاء بك إلى هنا؟ سوف أحضر من أجل خاطرك، هؤلاء الوحوش لا يعرفون شيئا عنك ولن يقدر أحد منهم ما بك، أنا أدرى بك، أنت شبابى يا ابنتى، سوف أساعدك أن تكفّى عن هذا العبث كله، سوف أقاوم كل أمل لم أحققه، هذا كله طقطقة كلام يا ابنتى، فض مجالس، قد يفيد أحيانا فى الإغراء بالزواج، أما أن يُسكب هكذا فى عيادات الأطباء، فلا، إيش عرفهم بالحب، والجنة، والناس الذين مثل كل الناس؟ أنت تعرفين كل ذلك أكثر بدونهم، كم حلمت أنا به، هو كلام حلو، ولكنه أبدا لن يكون إلا كلاما حلوا، كلام مع وقف التنفيذ، نتزوج لنحققه ولا نكتشف أنه مجرد كلام إلا حين نتورط فى الأولاد، وعندئذ نترك لهم مسؤلية تحقيقه، إنهم هنا يحرقون اللعبة يا بسمة يا ابنتى، يوهمونا أنه إما أن نحققه الآن، أو نأكل بعضنا البعض، يا ساتر يارب، لماذا لا يتركونك تحلمين، من جاء بك إلى هنا يا حبة عينى؟ بسمة يا حبة عينى... لا تأتى بعد اليوم أتوسل إليك، كلمات الحب أصبحت مثل فقاقيع الصابون فى ماء المسح القذر، مسح العقول، مسح المنطق، مسح الشخصية، ليس لنا يا بسمة سوى ذلك المخزن الدافئ الذى يفقس فيه البيض ليصنع فيه العيال، نعدهم للجنة

لو أنى طاوعت نبائى الطيب ومكثت فى عقر دارى لظللت المتهمة طول حياتى بأنى سبب مرضه، وأنى العقبة فى طريق شفائه،

لو أنى طاوعت نبائى الطيب ومكثت فى عقر دارى لظللت المتهمة طول حياتى بأنى سبب مرضه، وأنى العقبة فى طريق شفائه،

التى لم نحققها، الحكاية أبسط من كل ما يدعون، يريدون أن يوقفوا الزمن ليحققوا بأنفسهم الجنة التى لا يعرفونها، لن تصدقينى يا ابنتى، قلبى يتقطع لما ينتظرك حين تعجزين عن الحركة فجأة، لن ينفعوك، أنت لا تصدقينى، أنا عارفة، سوف أحضر من أجل خاطرك، سوف أهدئ من تحليقك خلف هذا الرجل الذى يلهف منا النقود وليس فى قلبه رحمة، يتظاهر بإطفاء النار وهو يشعلها، يغذى فيك الوهم إلى أعلى وهو يتظاهر أنه يجذبك إلى الأرض، خبيث، جبان، يشعل الحريق بالماء، ألا تعرفين أن الماء الذى لا يكفى لإطفاء النار يزيدها اشتعالا؟ هو يحملك مسئولية أحلامك، مأزقك أيقظ عقلى من جديد، أصبحت أفهم مثل زمان، لا تصدقيه واعقلى يابسمة ياحبة عينى، أنا أحضر من أجلك، وسأحضر دائما من أجلك، كيف أوصل لك كل هذا الذى يدور برأسى بشأنك؟

لا أستطيع الصبر، متى أستطيع التوقف عن التفكير فى كل ما يجرى؟ هل أترك الأمور تسير كما يريدون؟ هل يعرفون ما يريدون؟ هل أحاول أن أعرفه أنا؟ هل ألعب الدور بنفسى بدلا من هذا الخوف الذى يتضاعف بالانتظار؟ يبدو أنه انتظار بلا نهاية

– 3 –

= لماذا تأتين هنا يا ملكة مع أنك تبدين مع زوجك فى غاية السعادة؟

– نريد الأحسن.

= ولكنكما فى أحسن حال، هذا ما تؤكدانه دائما.

– .....

= عن نفسى أنا جئت مضطرة، جرجرنى زوجى على وجهى، أحيانا أقول إن تعاستنا تبرر وجودنا هنا فى هذه المسخرة، ولكن أنتما؟ ماذا ينقصكما؟

– فعلا، نحن سعداء تماما.

= إذن، ما الحكاية؟

– غالى طموح، وطموحه لا ينتهى، يحب المعرفة، ويعبد العلم ويسعى بكل وسيلة لتحقيق أفكاره، لذلك فهو مصر على التجربة.

= لكنك عاقلة كما يبدو لى، وتعلمين أن كثيرا ممن يعتنقون مثل هذه الأفكار فى بلدنا إنما يتسلون بها فى الصالونات، أو يعتبرونها متعة ما قبل النوم، ما لنا نحن النساء وهذا الضجيج، دعيهم يستعملونها لمظاهرات الجامعة، أما حكاية تحقيقها فهى نكتة يضيعون بها الوقت، ويصبِّرون بها أنفسهم على خيبتهم.

– من أين لك بكل هذه الحكمة الخادعة؟ هذه هى السلبية بعينها.

= لا يخدعك ترهلى فأنا أحمل ليسانس تاريخ، ولكن تاريخى الخاص يقول لك لا تنشغلى إلا بمملكتك الصغيرة، لا تبعدى عن عشك السعيد، أما هذا الـ...؟ ماذا تسمين ما نحن فيه؟

– علاج.

= نعالج من ماذا؟

– الأمر لا يسلم.

= لا، الأمر يسلم ونصف، دعينا نلتقى بعيدا عن هذا المكان الصناعى، نجتمع فى الخارج أرخص وأسلم، هيا نقنع زوجينا بالكف عن السير فى هذا الطريق الخبيث.

– ما هذا؟ يبدو أن طول بقائك فى البيت يا فردوس قد أفسد عقلك، رائحة البصل تفوح من أفكارك، أنا مع زوجى إلى النهاية وليس هناك ما يخيفنى، غالى يعرف كل شئ ويدرك طبيعة الذى يسير فيه، هو زوجى وحبيبى، ولا بد للصراع الطبقى من نهاية لصالح أصحاب الحق.

= نعم؟ نعم؟ ما علاقة هذا بذاك؟ ماذا تقولين؟ نهاية ماذا؟

– نهاية الصراع الطبقى لصالح الجماهير.

= إعقلى يا ملكة يا اختى، وهل نهاية الصراع الطبقى سيتم هنا فى هذا المكان، راجعى نفسك يا بنت الناس، أين هؤلاء الجماهير فى عيادة هذا الطبيب؟

– غالى مؤمن بالعلم فى كل مكان وفى أى مكان، يقول إنه يجد الديالكتيك الحقيقى فى هذا الصراع العميق، هنا بين العجز والإرادة، بين الحياة والموت، نحن نحرر أنفسنا لتتحرر الجماهير.

= ماهذه الألفاظ الكبيرة؟ الذى يجرى هنا ليس إلا الاسترزاق من آلام الناس وحيرتهم.

أنا أخاف من هذا الرجل، إذا تركت نفسى للتهمنى دون ضمان، أتبعثر بلا معالم

أنا فشلت فى الصبر وفى الفرجة، الحوائط تقترب حتى لا تترك لى إلا هذه الفتحة التى يتسرب منها نور خامض لا أعرف ماذا يضئ، لم أعد أستطيع الفكاك؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ ماذا نستطيع أن نفعل؟

دعونى لأولادى وبيتى، صرت أشك أنى أستطيع الرجوع الآن إلى عشى الدافئ المحاط بالحذر والنسيان، بدأت أسمع فيه حفيفا ما، وأخشى أن يكون دبيب الهوام

– مرارة كلامك تذكرنى بالمرحلة الأولى من مجيئى هنا، عليك أن تستمرى حتى تنفضى عن أفكارك رائحة الثوم والبصل، الكسل والخوف كادا يقضيان عليك.

= عبد السلام هو الذى قضى علىّ حين منعنى من العمل، ويدعى كل يوم أنى حرة.

– حاولى يا فردوس، قهر المرأة رمز لقهر الأضعف، حاولى.

= أنت لا تحاولين يا ملكة، أرنى شطارتك لأقلدك، ثباتك لا يوحى بأى محاولة، كأنك وجدت حلا لكل شئ.

– أقدس العلم مثل زوجى، نحرر أنفسنا مع الناس.

= وهل تجدين هنا علما؟ هل سمعت عن عالم يستعمل كل هذه البذاءات؟ هل سمعت عن طبيب يمارس كل هذه القسوة والهجوم بلاحساب ولا ذوق؟

– هو أدرى بأصول مهنته.

= "بسمة" مثلا؟ هل تعجبك هذه التجاعيد التى يفرضها هذا الرجل على وجهها الطفل بما يدعيه من ضرورة المشى على الأرض.

– مصلحتها تحدد خطواتها.... الأمل فى الشباب.

(–..... – ..... – .....).

= يبدو أنى أزعجتك، الصبر طيب.

– تحياتى للأستاذ عبد السلام.

= تسلمين يا اختى.

.....

حجر صوان، جرانيت، ليس لها مسام أنفذ منه، أردت أن أستعين بها فخلت بى، أنا واثقة أنها "تقول" والسلام، لابد أن لها مصلحة فى كل ما يجرى، خلية تدار لحَبْك مؤامرة ما لقلب النظام؟ قلب أى نظام، وكل نظام، إلا نظامها هى

بالرغم من كل شئ فأنا ما زلت أعيش نشوتى معظم الوقت، أرقص وأنا أمشى، أغنى وأنا أتكلم، أريد أن أذهب إلى كل الناس أحكى لهم عن معنى الحياة وفضل الأطباء الذين هم ليسوا أطباء، فضلهم على البشر والجنس

حين كنت عجوزا يائسة كان هو فى إصراره لا يُجَارى، يقاوم عنادى ولا ييأس أبدا، وحين أصبحت طفلة سعيدة تغمرنى النشوة بلا حدود تراجع عن ثباته واهتز وتشكك.

وزوجها، أكاد أفقد سيطرتى على نفسى حين لا أفهم إلى هذا الحد، نجح الكلب عبد السلام أن يهزنى من داخل، "الحرملك بالديالكتيك"، آخر صيحة فى العلاج العصرى، سوف أقاوم حتى النهاية، وإذا لم أستطع، فالله وحده يعلم إلى أين سينتهى بى ما يتحرك بداخلى.

– 4 –

= ماذا تريد منى يا عبد السلام بعد الذى حدث؟

– ماذا حدث؟

= تستعبط حضرتك؟ أصبحت أفهم لغتكم الآن، فاستعد.

– أستعد لـ ماذا ؟

= لا تحاول يا عبد السلام، أنت الذى بدأت الطريق وعليك أن تكمله بحلوه ومره.

– سوف أفعل.

= لا تكن واثقا من نفسك هكذا.

– أنا فى انتظارك يا فردوس من زمن بعيد.

= لا أظن يا عبد السلام، أنت لا تعرف ما تقول.

– نعم؟ نعم؟

= جاء الدور عليك يا عبد السلام لتبدأ من أول وجديد.

– ماذا؟

= يبدو أن هناك من أسرار اللعبة مالا تعرفه.

– وأنت؟ هل عرفتيه بهذه السرعة؟

= أحس بأشياء كثيرة قبل أن أعرفها.

– الإحساس وحده خداع.

= يتحدثون عن الحب أكثر من اللازم يا عبد السلام وكأنهم يتبادلون السجائر.

سيدى ومولاى وحبى، ماذا أفعل لك ردا لجميلك، أريد أن أسعدك كما أعطيتنى فرصة هذه السعادة، أنا المريدة وأنت شيخى، أنت أخذت العهد على شيخك الطيب

– نعم، هذه حقيقة، ولكنها لا تعنى ابتذاله،

= الأمر أخطر من كل تصور، ربما تندم يا عبد السلام يوما ما على أنك فتحت عينىّ، مسامى تفتحت هى الأخرى فحذار.

– الحقيقة أصدق من كل وهم.

= تقولها بشروطك.

– أية شروط؟

= لا تدعى الغباء وتحَمَّل مسئوليتك إن كنت رجلا.

– رجعنا للبذاءة، بماذا تهددينى بالله عليك؟

= أنا لا أهدد أحدا ولكنى خائفة من ثقتك بالحدود التى تحاول أن تطلقنى فى داخلها.

عهدى أن أسعدك بلا تفكير أو هم، فما هو عهدك بالله عليك، لماذا هذا الشك والخوف والتردد

– أية حدود؟

= لن تحتمل لو تخطيتها يا عبد السلام.

– يجوز، بصراحة يجوز.

= شئ يتفجر فىّ يا عبد السلام، فهل أستمر؟ هل تتحمل نتائجه؟

– كل واحد مسئول عن فعله.

= هذا كلام للاستعمال الظاهرى، أنا أشك أن أحدا منكم يعرف حقيقته،

– يجوز.

= يجوز، يجور، يجوز! كل شئ يجوز؟ أنت تميّع كل شئ.

– أنا معك إلى النهاية.

= كذاب، تكذب بنفس القدر الذى تكذب فيه حين تقول أنى حرة.

–...

= هل ما زلت مصرا على أن أستمر.

– لا تبالغى، لقد تفجر فى يوما ما شئ مثل الذى تتحدثين عنه، ولم تقم القيامة، جاءت سليمة.

= بل قامت، ولم تكن سليمة كما تعرف.

– ماذا تعنين؟

= النساء غير الرجال.

– هذا كلام قديم.

= أنت لا تعلم ما بى، بداخلى ثور أعمى وقرونه سيوف من ماس.

– عقلك يصحو مثل زمان يا فردوس، تتكلمين مثل الذين يعرفون ماوراء الألفاظ، نكاد نتفاهم من جديد.

= ليس عقلى فحسب، ولكن خلاياى كلها.

– لا تخافى شيئا.

=لست خائفة فلا تلق علىّ خوفك.

(–.....–....).

– أنا لا أنكر خوفى يا فردوس، أنا أشم رائحة التهديد أو المساومة.

= صوت بداخلى يقول لى: أنت لست حِمْلي يا عبد السلام، ولا حتى شيخ الطريقة هذا، كفانا هذا يا عبد السلام، ودعنا نربى الأولاد.

(–.....–.....).

– لم يعد لى فى الأمر خيار.

= لا تصدق هذه الأوهام.

– ليس أمامى طريق آخر.

= ذنبك.... على جنبك.... لقد حذرتك يا عبد السلام.

– 5 –

خوفه أكبر من خوفى، سوف أضاعفه حتى نهرب معا، هذا هو طريقى للعودة به إلى عشى الآمن، رأيت بعينى رأسى الفئران تجرى فى عبه، بدأ يهتز وهذا سبيلى الوحيد لأوقف هذا الخطر الداهم، عثرت على كعب عطيل وبدأت اتذكر بعض صفحات التاريخ، سأضرب على هذا الوتر، عرفت الطريق يا

شاطئ الأمان لا تلطمه الأمواج، هل هناك بعد هذه النشوة شئ نكمله؟ – أخاف أن نكتشف أنها بركة آسنة، لا أشعر فيها بحركة موج أو هزة شراع

لماذا الرفض بعد ما تغيرت هكذا، أخشى أن ينطفئ ما بى نتيجة لإصرارهم على الشك فىّ

فردوس، لو أنى طاوعت غبائى الطيب ومكثت فى عقر دارى لظللت المتهمة طول حياتى بأنى سبب مرضه، وأنى العقبة فى طريق شفائه، أما الآن: سوف نسلخ وجه من يزعل، والبادئ أظلم.

= ميعاد الجلسة يا عبد السلام.

– أعرف،

= صاحبك لا يحب التأخير.

–.... هو يتأخر أحيانا.

= هو صنف آخر من البشر لا يسرى عليه ما يسرى علينا، أليس كذلك يا رجل؟

– ليس تماما، وإن كان مثل ذلك يخطر على بالى أحيانا.

= هل سيحضر إبراهيم الطيب.

– طبعا، مثل كل مرة، لماذا تسألين؟ وهو لم يتغيب ولا مرة ؟

= خاطر خطر، وقد علمتمونى التلقائية.

– عندك حق، إبراهيم إنسان رائع، وأنا أحبه، بل إنى أحيانا أحسده.

= أنا أيضا أحبه.

– هو يستأهل الحب.

= لا تصوِّر الأمر ياعبد السلام كما لو كنا نشرب قدحا من القهوة، الحب طريق شائك.

– عن ماذا تتحدثين؟

= هل أفقدك العلاج حِمْيَة الرجال؟

– ماذا تعنين؟

= أقول لك أحب رجلا، تقول لى يستاهل، إنى أحذرك، ذهابى إلى هناك يوقظ فىّ ما كان قد نام من سنين.

–.... ماذا تعنين؟

مهما رفضتم ما بى فسوف أظل أسبح فى هذه البحيرة الآمنة، هذا حقى مقابل ألمى طوال السنين، ليس من الضرورى أن أصارع الأمواج حتى أتعلم العوم، أنا أرفض رفضكم، ليس من حق أحد أن يعكر علىّ حياتى بعد ما استسلمت لفرحتى، لجسدى، وخلاص.

= أعنى أنى أحاول أن أتمسك ببيتنا، بالستر، أريد أن أحمى الأولاد من تجربة بلهاء، أحاول أن نعيش مثل الناس.

– وما المانع أن نعيش بمشاعر يقظة؟

= هذه المشاعر التى تهدد بالانفجار لا تستأذن أحدا ولا تحسب حسابا لشئ.

– ماذا تعنين؟

= لو تطاوعنى، أتركنى ألزم بيتى، فلا يقدر على القدرة إلا الله.

– عن ماذا تتكلمين؟

= عما أشعر به مما يمكن أن يسمى حبا أو غير ذلك، أنتم تحركون ماردا ليس له روابط ولا حدود، تثيرونه دون حساب، ثم سوف تحمّلوننى مسئولية خراب بيتى.

– خوفك أكثر من كل تصوُّر.

= لا تدعنى أقول لك مايدور بداخلى حتى لا يتوقف قلبك من الهلع.

– كفى غموضك وهات ما عندك.

= لا فائدة، كنت أظن أنك لم تنس رجولتك.

– تحاولين أن تجرحينى من جديد لأتراجع.

= أنا أعرفك فلا تدّعى الهدوء.

– هات ما عنِدك.

= هب أنى اكتشف أنى لا أحبك.

–.... قسمتى.

= استسلام مائع.

– يملؤنى كلامك جزعا، ولكن لا سبيل إلى التراجع.

= نحن ما زلنا فيها، المخاطرة ليس لها حدود.

– عندك حق.

= إسمع كلامى، وكفى رعونة.

إياك أن تستعمل حكاية الناس هذه لتبرر هربك الأزلى من السعادة، ما للناس؟ الطريق معروف ومن أراد أن يسعد، فليسعد

أنا لم أنس شيئا، أنا لم أتذكر حتى أنسى، وحتى لو، فلابد للإنسان أن ينسى، ما فائدة التذكرة بالألم مادمت قد دفعت نصيبى منه، ثم استلمت المقابل

– تذكرى أنت ما كنا فيه، كان أبشع من كل مخاطرة.

= يكفى ما تعلمناه، لقد أصبحت حياتنا أهدأ، يكفينا هذا.

– إنها أهدأ لأننا فى انتظار الأمل، ولكنها تنهار فورا لو توقفنا.

= وجهك الشاحب يا عبد السلام يقول غير هذا.

– لا أنكر خوفى... ولكنى مستمر.

لا يمكن الاطمئنان إلى إنسان بلا أعماق

= الناس يعيشون فى سلام، ولم يعد بك ما يدعو لكل هذا.

– الناس يعيشون فى سلام لأنهم لم يروا ما رأيت.

= وأنا مالى، لماذا تصر على أن أرى أنا ما رأيت أنت؟ على كل: هأنذا أرى ما هو أكبر وأخطر.

– ..... هذا قدرنا إن أردنا أن نعيش "معا"، لابد أن نرى "معا".

= هل تعنى أنه لا حياة إلا مع هذا الذى تسميه علاجا؟

– لا مفر من المخاطرة تحت أى اسم.

= عبد السلام.

– نعم.

ياليتك عرفت كيف يولد الإنسان من جديد، كيف يلد نفسه مرة ومرات فى هذا العالم الطاحن المطحون، كيف تطول سنين الحمل لسنوات وليس لشهور

= أنت تلعب بالنار.

– اللعب بالنار أهون من الحياة فيها.

– 6 –

خيبت ظنى يا رجل رغم أنى صادقة فى كل مخاوفى، أملت أن تخاف أكثر لأستردك ونعود لبيتنا، عينى عليك يا بسمة ياقطعة من قلبى، كيف ستتزوجين لو أحببت كل الناس مثلما يقولون؟ كيف ستجدين من يتحمل رؤية كل ما رأيت؟ بدرى عليك يا ابنتى، وأنت يا ملكة ياابنة مناع، كم أحسدك على هذا الهدوء وهذه الثقة، أنا التى أهرب وأراوغ، أتذكر مرة وأنسى عشرة لا أستطيع أن أطفئ ما بداخلى إذا ما تحرك، فمالك لا تتحرك فيك شعرة خوف، وغالى لا يكاد يرى إلا معك، من خلالك، تجلسين فى هدوء ثم تخرجينه من بين ثنايا صدرك

وتضعينه على الكرسى، فيتحمس ويقول ويعيد وأنت لا تتحركين لأنك فى النهاية تضعينه فى مكانه بين ثنايا صدرك، اطمئنانك عليه يفوق طاقة احتمالى، ومجال خيالى، ياليتنى مثلك، إذن ما قاومت المجئ هنا أبدا، سوف أتعلم منك هذا الجمود العظيم الذى تسمينه ثقة، سوف أتعلم من غريب الفرجة من بعيد، بعدها أستطيع أن أنتظر قرنا من الزمان، كل شئ ينتهى إذا انتظرنا بدرجة كافية.

أحلامى تقول غير هذا.

لا أستطيع الصبر، متى أستطيع التوقف عن التفكير فى كل ما يجرى؟ هل أترك الأمور تسير كما يريدون؟ هل يعرفون ما يريدون؟ هل أحاول أن أعرف أنا؟ هل ألعب الدور بنفسى بدلا من هذا الخوف الذى يتضاعف بالانتظار؟ يبدو أنه انتظار بلا نهاية.

أنا أخاف من هذا الرجل، إذا تركت نفسى الْتـهَمَنِى دون ضمان، أتبعثر بلا معالم.

عبد السلام مصر على الاستمرار، وأنا فشلت فى الصبر وفى الفرجة، الحوائط تقترب حتى لا تترك لى إلا هذه الفتحة التى يتسرب منها نور غامض لا أعرف ماذا يضئ، لم أعد أستطيع الفكاك؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ ماذا نستطيع أن نفعل؟

فى الأول كنت أشفق عليك يا بسمة، الآن، أنا أطلب منك العون كأنى صديقتك الصغرى، أليس هذا هو الجنون ذاته؟

لا أكاد أذكر "كيف" ولكن الآمال عادت إلى الظهور وكأنها لم تمت أبدا، أنا لا أجرؤ على مواجهتها، كيف تغروننى أيها المجانين أن أبدأ من جديد؟ أن آمل من جديد؟ كان الشباب أقوى، والعالم أرحب ومع ذلك لم نفعل شيئا، ثم آتى بعد هذه السن لأحاول من جديد؟ إلحقينى يابسمة، إعمليها أنت بدلا منى إن كنت شاطرة.

أقرأ التاريخ بطعم آخر، أبحث عن تجربة مماثلة، تتراءى أمامى ملامحها فى فجر كل ثورة، ولكنها تختفى سريعا حتى أيأس مما نحن فيه

دعونى لأولادى وبيتى، صرت أشك أنى أستطيع الرجوع الآن إلى عشى الدافئ المحاط بالخدر والنسيان، بدأت أسمع فيه حفيفا ما، وأخشى أن يكون دبيب الهوام.

إبراهيم الطيب، ملامحه تبعث الطمأنينه فى كليّ، أنتهز الفرصة، أريد أن أعرف حقيقة مشاعرى نحوه، وربما أحَسَّ عبد السلام بالتهديد.

= إبراهيم.

– نعم.

= أنا خائفة.

– طبعا.

= هل تعرف ماذايجرى هنا؟

– نعم.

= إبراهيم، لا تبد واثقا هكذا وإلا حسبتك مثل ملكة مناع.

– هذا طريق أعرفه.

= من أين عرفته؟

– من داخلى.

= يا بختك.

– لا بخت ولا يحزنون.

= إذا كان داخلك بهذا الوضوح، لماذا أنت هنا؟

– الوحدة صعبة، لست إلها.

= هل ستبقى هنا إلى الأبد؟

– حتى أكسرها، أو أكف عن الخوف منها، أو الاحتماء بها.

= كلامك صعب، ولكنه على أى حال ساعدنى على خوفى.

– لا تخافى من خوفك.

= يعنى أخاف؟

أتساءل: هل كتب علينا أن نكرر نفس الخطوات: اليأس: الأمل: المحاولة: النجاح: اليأس: الأمل: المحاولة:.... وإلى متى؟ لا أحتمل طول التساؤل فى أغلب الأحيان، ولا أستطيع النسيان

– طبعا.

= إن الأمر يخصك يا إبراهيم.

– لا يخصنى وحدى.

= وكيف عرفت؟

– وصلنى.

= أنا أحبك،

– وأنا أيضا.

= يا نهار أسود.

لا يخوف الصعب إلا استحالة البديل

– ليس أسود من قلوب الحقد.

= أنا أحبك بكل ما يترتب على ذلك.

– وزوجك؟

= أحيانا أحبه هنا: وأشاجره بقية الأسبوع.

– أحس أن حبك له "هنا" مثل حبك لى؟

=... تقريبا، ولكن ماذا تريد أن تقول.

– لماذا الخوف إذن؟

= أكاد لا أفهمك.

– بل تفهمينى أكثر من تصورك.

= حرام هذا كله.

– الكذب هو الحرام الأوحد.

ضاقت الحلقة ولا مفر من المواجهة.

– 7 –

= ماذا تريد منى يا عبد السلام.

– أريدك معنا، معى.

= ولكنى كنت معك فرفضت، وركبنا العجز.

– لم نكن معا أبدا، لم يكن هناك سوانا، أنت وأنا، هذا ليس "معنا".

= لا أفهم كلمة مَعَنَا هذه التى تصر على ترديدها هل سنأخذهم "معنا" إلى البيت؟

– لا أعنى هؤلاء الناس بالذات، ولكن كل الناس، أى ناس.

= هذا صعب يا عبد السلام، أنا أنهكت وعجزت حيلتى.

– هذا هو الطريق.

= الإنهاك والضياع؟

–... مازال العمر طويلا.

= هذا تخريف، نحن نقضيها أياما.

– فلتكن أياما مليئة بالحياة، أنا أنتظرك يا فردوس.

= كنت أحبك طول الوقت، حتى وأنت فى الأزمة.

– أعرف ذلك، لا أشكرك، عيب، كان حبا عمره الافتراضى قصير، مع أنه حقيقى.

= ربما تَوَلَّدَ فىّ ما أخاف منه، تريدنى أن أجن مثلك حتى تصدق أنى أحبك.

– مازلت ألمح الحياة فيك بكل نبضها.

= كلام غير مفهوم، ولكنه يكاد يطرحنى أرضا.

– أرى فى داخلك بسمة ما زالت حية ترزق، فردوس، أنا، ابراهيم، الله، كل الناس.

= هذا كلام كبير، أكبر من احتمالى.

– هو الصدق نفسه.

= أعماقى تهتز، أشعر بالدوار.

.....

كلمات الحب أصبحت مثل فقاقيع الصابون فى ماء المسح القذر، مسح العقول، مسح المنطق، مسح الشخصية

.....

.....

****

فى تلك الليلة، حين حاولت الاستسلام كالعادة، اشتعل بى شئ آخر، ليست شعلة، شعور يقظ يتحفز، نشوة تغمر كل كيانى، بعثت فىّ الحياة حتى أحسست بها فى أظافر قدمى، لا يمكن أن أصف ما أنا به ولا أعتقد أنه وُصِفَ عبر التاريخ، عقلى، عقلى نام يقظا، لم يتخاصم مع جسمى هذه المرة، كالمأخوذة فى وعى كامل، أصعد قمة مجهولة، فى سهولة ويسر، أعضاء جديدة تنبت فى أحشائى، تتمطى مثل المارد الخارج من قمقم، تتجول فى خبايای جميعا، كائنات منقرضة تصحو وتقفز من المحيط إلى الأرض إلى عنان السماء، رقصت كل جوانحى رغم أن الخوف لم يتركنى، كان عبد السلام، طيبا مختلفا، أنا امرأة، رجل، الكون كله، أنا لا شئ، أو كل شئ هذه المرة، أول مرة، لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل، "إلحقنى يا عبد السلام، هذه المرة.... المشاعر أكبر منى، ماذا فعلتم بى، شكرا..... عليكم اللعنة، دخلتها بالرغم منى، دخلتها بالرغم منى... داخلى.... داخلك..".

لم يعد المجهول مجهولا، ولا هو فى حاجة الآن لأن يكون معلوما، حسرة على الأيام الأخرى، أنا ملك يمينك يا عبد السلام منذ اليوم..أنت داخلى.... وأنا فيك.... الحمد لله.... الله حلو، وأنا حلوة، وأنت.... فليعش الكل، تحيا الحرية.... الله أكبر.

- 8 -

بالرغم من كل شئ فأنا ما زلت أعيش نشوتى معظم الوقت، أرقص وأنا أمشى، أغنى وأنا أتكلم، أريد أن أذهب إلى كل الناس أحكى لهم عن معنى الحياة وفضل الأطباء الذين هم ليسوا أطباء، فضلهم على البشر والجنس، لا يكدرنى إلا التغير الذى طرأ على عبد السلام، لماذا لا يتقبل فرحتى هذه، أليس هذا ما كان

يسعى إليه؟ حين كنت عجوزا يائسة كان هو فى إصراره لا يُجَارى، يقاوم عنادى ولا ييأس أبدا، وحين أصبحت طفلة سعيدة تغمرنى النشوة بلا حدود تراجع عن ثباته واهتز وتشكك، أنا لا أفهم شيئا من كل هذا، سيدى ومولاى وحبى، ماذا أفعل لك ردا لجميك، أريد أن أسعدك كما أعطيتنى فرصة هذه السعادة، أنا المريدة وأنت شيخى، أنت أخذت العهد على شيخك الطيب، عهدى أن أسعدك بلا تفكير أو هم، فما هو عهدك بالله عليك، لماذا هذا الشك والخوف والتردد.

= أليس هذا هو نهاية المطاف يا عبد السلام؟

– بل ربما بدايته، إن استطعنا،

= لست أفهم ما تعنى.

– قلبى غير مطمئن.

= أما أنا، فأسبح فى بحر الطمأنينة دون حركة ذراع.

– لا بد أن نكمل.

= شاطئ الأمان لا تلطمه الأمواج، هل هناك بعد هذه النشوة شئ نكمله؟

– أخاف أن نكتشف أنها بركة آسنة، لا أشعر فيها بحركة موج أو هزة شراع.

= فأل الله ولا فألك، متى تستغنى عن قلقك الأزلى.

– هناك خطأ ما،

= هل بضاعتى مغشوشة؟ هل أنا ما زلت أعيش النشوة الدائمة.

– قلبى ليس مطمئنا، وأحلامى تؤكد خوفى.

= عارف بالله أنت؟ هذا الوسواس لا يتركك.

– عارف بنفسى، وبالدنيا المؤلمة.

= تعالى نسعد بلا حسابات.

– يخيل إلى أنى عاجز عن ذلك، لا أتقن هذه اللعبة.

= ماذا هناك بعد ذلك، يكفينا هذا ولنبدأ معا فى بيتنا دون تدخل الآخرين.

– هذا هو الخطر بعينه.

= لا أميل إلى الذهاب ثانية.

– لا أحب أن أخدع نفسى.

= إذهب أنت وسأنتظرك دائما لأجعل من بيتنا الجنة بعينها.

– فى الأمر خطأ ما، لا بد من الاستمرار حتى نراه، وربما أمكن أن نصلحه.

= أنا لا أرى هذا الخطأ، ولا أجد مبررا للذهاب بعد ما حدث، ثم إنى خجلة من مشاعرى، أخشى حين أهم بالكلام أن آخذ الجميع بالأحضان، بل أكثر من الأحضان.

–لا عليك، لابد أن نعيش الخبرة حتى أعمق أعماقها.

= لا تعقد علينا الحياة الله يستر عرضك، ليس هناك أعماق أعمق مما كان.

– ما أسهل حلولك.

= ما أصعب وساوسك.

هذا هو عيبه، يخاف السعادة ولا يتمتع بالنعمة، لا يزال مصرا على الذهاب إلى العلاج، علاج من ماذا بعد كل هذا؟ ومع ذلك فسوف أذهب معه، وليغمر الجميع طوفان النشوة.

– 9 –

لماذا الرفض بعد ما تغيرت هكذا، أخشى أن ينطفئ ما بى نتيجة لإصرارهم على الشك فىّ، عبد السلام يكاد ينكر ما بى الآن، وشيخه وبعض رفقته، ينظرون إلى أحيانا كأنى سارقة مع أنى أعلن سعادتى فى وضح النهار، هل علىّ أن أدعى الشقاء حتى يصدقونى، حين كنت ست البيت العاقلة جرجرونى إلى هناك بأمر الطبيب، وحين شفيت، لم يهنئونى بالسلامة، لكن مم شفيت؟ هل كنت مريضة؟ أنا لم أكن مريضة ولكنى شفيت على كل حال، الوحيدة التى شاركتنى فرحتى هى بسمة الحلوة ابنتى الجميلة الغالية، حسرة عليها، ومع ذلك شاركتنى ما بى، أيضا: وإبراهيم الطيب، هو فرحان بى أيضا، مختار لطفى ينظر إلىّ بنهم لكنى لا أهتم، موقف الطبيب يشبه موقف عبد السلام، دعينا منهم

يا بسمة يا ابنتى يا حبيبتى وتعالى نرقص رقصة الفرخ الطائر، أريد أن آخذك معى نتعرى على شاطئ بحيرة، نصفق بأجنحتنا مع الأوز، نطير فى سمائها كالنوارس، ثم نعود إلى شاطئها، أقف أنا على كتف عبد السلام، ثم أطويه تحت جناحى، وسوف تجدين أنت أيضا من تفعلين معه ذلك، وأجمل منه، مهما رفضتم ما بى فسوف أظل أسبح فى هذه البحيرة الآمنة، هذا حقى مقابل ألمى طوال السنين، ليس من الضرورى أن أصارع الأمواج حتى أتعلم العوم، أنا أرفض رفضكم، ليس من حق أحد أن يعكر علىّ حياتى بعد ما استسلمت لفرحتى، لجسدى، وخلاص.

****

-.. من يضمن الاستمرار يا فردوس ونحن ما زلنا على الأرض؟

= لا حاجة للضمان، ألا تقولون أن الآن هو "الأبد".

-..أنت تستعملين ذلك للراحة والتوقف.

= تفسيراتك تشوِّه كل شئ.

- والناس؟ الناس يا فردوس؟

= إياك أن تستعمل حكاية الناس هذه لتبرر هربك الأزلى من السعادة، ما للناس؟ الطريق معروف ومن أراد أن يسعد، فليسعد.

- نسيت يا فردوس.

= أنا لم أنس شيئا، أنا لم أتذكر حتى أنسى، وحتى لو، فلابد للإنسان أن ينسى، ما فائدة التذكرة بالألم مادمت قد دفعت نصيبى منه، ثم استلمت المقابل.

-لا أنكر عليك ما بك، ولكن لابد لِلَّحْم من عظام حتى يصبح كائنا، له معالم.

= نعم، ولكن هناك من الكائنات الحية ما لا عظام لها.

- عمرها قصير.

= أحسن، ماذا تريد منى؟

– أين أنتِ؟ أكاد لا أرى داخلك، كأنه انقلب إلى الخارج جميعه فلم يعد هناك جوهر داخلى، ليس للإنسان كيان إلا بالحفاظ على أعماقه.

= أكاد لا أفهم كلامك مثل زمان.

– هكذا؟ ، على أى حال: عدم فهمك أقرب إلى من حلك السهل.

= ماذا تريد أن تقول؟

– أحاول أن أكون صادقا.

= إبراهيم الطيب صادق أيضا ولكنى أحس أنه يقبلنى هكذا، ومختار لطفى يريدنى ويشتهينى، هكذا تقول نظراته طول الوقت، وبسمة سعيدة بى.

– ليس تماما.

= ما هذا الذى هو ليس تماما؟ هذه شكوكك، تريدنى كما تحب، وفى الحدود التى ترسمها أنت.

– أعيد النظر فى أشياء كثيرة.

= لا تقلق، فما زلت أنت حبى وسيدى.

– بهذا تتحقق مخاوفى أكثر.

= كيف أثبت لك أنى حية؟ وسعيدة؟

– لو كنت كذلك، لا طمأننت بصحبتك إلى ما لا نهاية..... ولكن..

= جَرِّب، هأنذا.

– لا يمكن الاطمئنان إلى إنسان بلا أعماق.

= أمرك عجيب يا أخى، من أين أشترى لى أعماقا حتى أعجبك؟

– إبحثى عن السؤال الذى ليس له جواب، وستجدينه فى أعماقك، ولن تنسين الناس.

= سعادتى أجابت على كل الأسئلة فى لحظة.

– هذه مصيبة المصائب، "فى لحظة"!!! حكاية "فى لحظة" هذه ترعبنى

= إذا كان الأمر هكذا مصيبة كما تقول، فالبركة فيك وفى صاحبك.

– لم تتحملى الحمل والولادة، لا توجد ولادة سليمة دون شهور حمل.

= عندى ثلاثة، وأنا رابعتهم.

– ياليتك عرفت كيف يولد الإنسان من جديد، كيف يلد نفسه مرة ومرات فى هذا العالم الطاحن المطحون، كيف تطول سنين الحمل لسنوات وليس لشهور.

= ماذا تريد الآن؟

– نبدأ كل يوم من جديد.

=.... سورة هى لن تنتهى!!؟

–.... ينبغى ألا ننساهم أبدا.

= من؟

– الناس.

= هذا هو النكد بعينه.

– لاضمان للاستمرار إلا بهم.

= نعتمد عليهم؟ نهرب من أنفسنا فيهم؟ ألم تحذرنى من ذلك طول الوقت.

– بل يختبروننا ونختبرهم، لا مفر من المشاركة طول الوقت.

= لماذا لا تشاركنى إذن؟ ألستُ ناسا؟ لماذا أعتبرك أنا ناسى وأحاول أن أشاركك.

– أنا أحد الناس، لست بديلا عن الناس.

= إبحث فى خوفك من الحياة ولا تستعمل ألفاظا كبيرة، أليس هذا بعض ما علمتونى إياه؟

– لا أنكر خوفى، ولكنى أعرف ما وراء اختزال الألم.

= كفانى ألما.

– لا تنزعجى منه فداخل أعمق نبضة فيه، ستجدين الحياة.

= سأحاول بطريقتى.

– ياليت.

– 10 –

أخرجتُ شهادة الليسانس من بين أكوام الخزين، عدت إلى العمل مدرسة إعدادى، لم يعد أمامى اختيار، التراجع صعب، والتوقف مستحيل، الحلقة تضيق أواصل طريقى بنفسى، لا أتنكَّر لفضله فى ذلك، لكنه طريقى أنا، أقرأ التاريخ بطعم آخر، أبحث عن تجربة مماثلة، تتراءى أمامى ملامحها فى فجر كل ثورة، ولكنها تختفى سريعا حتى أيأس مما نحن فيه، انزعج عبد السلام فى أول الأمر من استقلالى ولكننا نتقارب بشكل أهدأ، وإن كان أبطأ.

أتساءل: هل كتب علينا أن نكرر نفس الخطوات: اليأس: الأمل: المحاولة: النجاح: اليأس: الأمل: المحاولة:....   وإلى متى؟ لا أحتمل طول التساؤل فى أغلب الأحيان، ولا أستطيع النسيان.

** يخفف الصعب إ استحالة البديل.**

الأحـــــد 2018-06-24

العدد: 3949 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثانى "غريب الأناضولى" رواية "مدرسة العراة"

لو أننى قرأت مليون صفحة ما أدركت طرافة وعمق ما يجرى هنا، ما يطمئننى هو يقينى بأن صومعتى هى نهاية المطاف

قرون استشعارى تمارس نشاطها فى حيوية دافقة كنت قد نسيتها من زمان، هذا أكبر من أحلامى للعيش فى ناد للعراة أو جبلاية يجرى فيها التمثيل بلا نص مسبق

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل الثانى

مع أملى فى التذكرة بأن المسرح الأساسى هو ساحة" **العلاج الجمعى** "وأن الفصول تترابط بحيث تحتاج إلى الرجوع إلى بعضها البعض لمن شاء.

*****

(رواية "مدرسة العراة)

الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط"

<u>الفصل الثانى</u>

"**<u>غريب الأناضولى</u>** "

هذا شئ آخر..

لم أكن فى يوم من الأيام أظن أن جارى عبد السلام هذا، ذلك الموظف المسالم الغبى، سيكون السبب فى أن اكتشف هذا الكنز فى جراب سحرى لهذا

الحاوى العصرى الذى يسمى نفسه طبيبا، جراب يوحى أنه يحوى كل شئ، من غطاء الكوكاكولا الصدئ حتى خاتم سليمان، هذه المجموعة لا يجمعها شئ إلا اختلافها وإشاعة خبيثة تشوه مأساة وجودنا بإطلاق أسماء أمراض غريبة على مشاعر الناس، لكنها فرصة العمر، وسوف أتفرج بلا توقف، لو أننى قرأت مليون صفحة ما أدركت طرافة وعمق ما يجرى هنا، ما يطمئننى هو يقينى بأن صومعتى هى نهاية المطاف، قرون استشعارى تمارس نشاطها فى حيوية دافقة كنت قد نسيتها من زمان، هذا أكبر من أحلامى للعيش فى ناد للعراة أو جبلاية يجرى فيها التمثيل بلا نص مسبق، فى تجربتى السابقة كان هو فقط الطبيب وأنا المريض، كان علىّ أن أشكو، أن أفسر، أن أحكى أن أعالجَ، أما هنا فأنا أستطيع أن أتفرج دون أن أنبس بكلمة، تحصنت خلف حواجزى المانعة بكل ما يطمئننى إلى موقفى الثابت، من ذا يجرؤ أن يتخطى ألف حاجز وحاجز من الأسلاك الشائكة والخرسانة المسلحة بداخلى؟! أضحك فى نفسى حين يحاول أحدهم الاقتراب منى، أكسبتنى صومعتى مناعة ضد الاقتحام كما أكسبتنى عضلة عقلى النشطة مناعة ضد الكسر، أصبحت مثل ساعات سويسرا المضمونة، موجات نظراتهم قصيرة تسقط عند قدمى بعجزها وترددها، لا أخشى إلا شيخهم الأكبر، أعلم كيف أحمى نفسى من محاولاته، مازلت على البر عواما، وسوف أظل على البر أبدا، هذا هو موقعى الثابت ولكنى سوف أحضر بانتظام حتى لو اضطررت إلى التظاهر بالمشاركة فى النقاش وتبادل لعبة الإحساس أحيانا.

أكسبتنى صومعتى مناعة ضد الاقتحام كما أكسبتنى عضلة عقلى النشطة مناعة ضد الكسر

أنا لا أعرف أين أقضى وقتى، حين يرهقنى البحث عن نظرية تائهة بين سطور مغمورة علها تنقذ العالم من الضلال، أحاول الهرب من سواد الكلمات إلى سواد الناس

رائعة هذه اللعبة: الحياة فى أنبوبة اختبار، يجتمع عدد من الناس فى عيادة طبيب، ويجربون أنواع العلاقات المختلفة، وكأنها معادلات كيميائية، تكنولوجيا الحب، والباشمهندس يحذق ضبط العدادات وتزييت القلوب، تدريبات المساء فى الإحساس بالشفاء، أتصور هذا الرجل المخدوع وهو يكتب النسخة العصرية لتذكرة داود "تذكرة عبد الحكيم نور الدين، فى هداية المحبين، إلى طريق اليقين".

أجلس بالساعات بعد ما أنصرف، استرجع ما كان وأكاد أهلك على نفسى من الضحك، منذ سنين لم أضحك هذا الضحك، أثناء جلسة تحضير الأوهام ألبس مسوح الجدّ وأطرد عن ذاكرتى أى مقارنات بحركات فؤاد المهندس أو عبد المنعم مدبولى، أحيانا أخاف أن يكتشفنى أحدهم وأنا أتفرج عليهم، وخاصة شيخهم المخدوع، ربما هددنى حينئذ بالطرد أو العلاج، سوف أستمر فى هذه اللعبة بلا انقطاع، سوف أراوغ نظراته، وإن كنت على يقين أنه لا يدرك أبدا حقيقة ما يجرى، هو لا يرى إلا ما يتصور، وهو يسترزق فى جميع الأحوال.

مازلت أذكر قول طبيبى السابق أنى حر، وأنه علىّ أن أجد طريقى بنفسى، الشقاء والوحدة والحيرة واليأس هى أسس تركيبنا الإنسانى

مازال منظر فردوس المسكينة فى آخر جلسة يؤكد روعة الوهم الطبى الحديث، كانت كالفأر المذعور وهى تتحدث عن حبها لكل الناس: وتخص بالذكر الطيب ابراهيم الطيب على سبيل المثال لا الحصر، وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق المحبة والشفاء، صاحبنا عبد السلام يتظاهر بالموافقة وداخله يرتعد خوفا من أن تفتح القطة عيونها دون استئذان، أو أن يذهب بصرها أبعد من حساباته الغبية، تعجبتُ أول مرة حين نجح أن يحضرها للعلاج، ماذنبها هذه السيدة الطيبة؟ جارتى البلهاء؟ ماذنبها حتى تضطر لسماع هذا اللغو وهى غاية اهتمامها حلة مسقعة؟ لماذا يفرض عليها أوهامه التفاؤلية بإمكانية الحياة، لقد استجبت أنا لدعوته لأنى وحيد، ولأنه سبق لى أن طرقت أبواب العلاج، أنا لا أعرف أين أقضى وقتى، حين يرهقنى البحث عن نظرية تائهة بين سطور مغمورة علها تنقذ العالم من الضلال، أحاول الهرب من سواد الكلمات إلى سواد الناس، أما هذه السيدة فأنا مارأيتها قط من نافذتى إلا وهى خارجة من المطبخ أو ذاهبة إليه، حتى أنى صعقت حين عرفت أنها تحمل ليسانسا فى التاريخ، عرفت السعادة يوما على وجهها حين لقيتها مصادفة على الباب تستقبل صاجات كعك العيد ووجهها معفر بالدقيق حتى بدا خداها الموردان فى حالة من البياض المتحفز، يلوح من بين ثناياه بريق عينيها اللامعتين بفرحة الأطفال مثل شعاع الشمس من وراء سحاب ناصع ساعة الأصيل، هذه هى سعادتها الحقيقية يا عبد

نحن نخدع أنفسنا حين نتصور أن لأى شئ معنى، ما يجرى هنا- للأسف – يحاول أن يجعل لكل شئ معنى. ما هذا العبث؟

السلام افندى، ولكنك مثل المقطف، سمعت كلام ذلك الرجل الأبله وأحضرتها تتعلم الحب، أى حب يا رجل؟، يبدو يا حاج عبد السلام أنها سوف تتقن الصنعة أكثر من تصوراتك، وربما عَمّ الخير، لو أنى أصلح لكان الجار أولى بالشفعة.

حين تفتحت أكمامها بيننا – حسب التعليمات – عرفت ذلك الشئ المثير فى تركيبها الأنثوى الحار وخفت عليك يا عبده يا جارى العزيز، ويحك، من أين لك بالصواريخ جو – جو؟ كيف ستلحق بها إذا حلقت هى فى سابع سماء، خاصة وأن جناحيها ينموان بسرعة أكبر من تصوراتك؟ لا أستطيع أن أنكر أنها تغيرت وإن كنت لا أعرف إلى أين، جمعنا الأتوبيس يوما ولم تكن أنت هناك يا عبد السلام، تعجبت إذ بدأتنى هى بالحديث.

الإنسان لم يخترع الألفاظ للتفاهم فقط ولكن لتحميه من التعبير عن عواطفه بطريقة صادقة تعرض حياته للخطر

= وأنت يا غريب افندى؟ سلامتك.

– لا أبدا، عبد السلام هو الذى أغرانى بالمجئ.

= ظننت العكس.

– ليس بى شئ على أى حال.

= ولماذا طاوعته؟

– العلم بالشئ ولا الجهل به.

قبل مجيئك كنت أتحدث عن شكواى هذه كثيرا، نصرونى وقالوا إنى أهرب فى شكواى من نفسى، ورغم أنى لم أفهم شيئا، إلا أنى كففت عن الشكوى

= ولكنك لا تتغير أبدا، فلماذا الغرامات.

– ومن قال إنى أريد أن أتغير، أما عن الغرامة فهنا أرخص من مسارح القطاع الخاص.

= لم أكن أعرف أن دمك خفيف هكذا.

–.....

= ولا أنك سريع الخجل، هكذا.

– لا شك أنك تغيرتِ يا فردوس هانم.

= ومع ذلك يقولون أنه ليس هذا هو المطلوب.

– لابد أن يقولوا ذلك، المهم أن تعرفى من الذى يطلب ماذا.... ولماذا....

= لا أستطيع أن أحسب مثل هذه الحسبة ولا أن أرسم خطة دون إدخال عبد السلام فيها.

هذا الطبيب بائع أوهام يحطم وحدته بإملاء أفكاره، والذى يتنازل عن ذاته ويفقد وعيه يحصل على لقب "صحيح" بتقدير "متطور"، وأحيانا بتقدير "حر"، وأحيانا يتقلد "نيشان البطولة" من الدرجة الأولى

–... رجل محظوظ.

= تحقد عليه وأنت الذى ترفض النعمة.

– فردوس هانم !!!!

= أنت حر.

– أنت لا تعرفيننى.

= يقولون هنا أن كل واحد مسئول عما هو فيه.

– ... كلام.

= هذا ما أفهمه من تصرفك.

– تلميذة مجتهدة.... تتغيرين بسرعة.

= سأقولها حتى ولو جرحتك: أنا أشفق عليك من كل قلبى.

رفصتنى البقرة الرقطاء بلا إنذار.

استعدتُ توازنى وصعدت فوقها درجتين لأنظر إليها من أعلى، "ما هى إلا ذبابة حقيرة تطن حوالىّ وهى تردد مالا تعى".

****

لابد وأن اعترف بأنى هوشك على الوقوع فيما أحذر منه طول حياتى، لا، لن يحدث هذا أبدا، أنا عرفت طريقى إلى صومعة يأسى بعد عمر شقى رائع، لن أتنازل عن ذاتى ولو كان الثمن هو الموت نفسه.

هل أكف عن الذهاب وأكتفى بهذا القدر من الفرجة؟ أصبحت المسألة بالنسبة لى محفوظة: طلبات أو أوامر بالإحساس، وتشكيك فى العواطف الإنسانية المتاحة، ولا حقيقة إلا الفراغ والتبعية، أكاد أفهم الآن هذه اللعبة الخطيرة وخاصة بعد أن بدأتْ تقترب منى، حتى فردوس جارتنا البلهاء تتظاهر بالفهم وتحاول علاجى!! مازلت أذكر قول طبيبى السابق أنى حر، وأنه علىّ أن أجد طريقى بنفسى، الشقاء والوحدة والحيرة واليأس هى أسس تركيبنا الإنسانى، أى محاولة للتكشيك فى ذلك هى تشويه لحقيقة الوجود البشرى الكئيب بلا معنى، العالم مقضى عليه بالفناء، ونحن نخدع أنفسنا حين نتصور أن لأى شئ معنى، ما

يجرى هنا– للأسف – يحاول أن يجعل، لكل شئ معنى. ما هذا العبث؟ يُحَمّل الألفاظ أكثر من احتمالها، الإنسان لم يخترع الألفاظ للتفاهم فقط ولكن لتحميه من التعبير عن عواطفه بطريقة صادقة تعرض حياته للخطر، الألفاظ هى الدرع الواقى من المشاعر المهددة بفقد الوعى، فلماذا يحاولون أن يحمّلوها كل هذه الشحنة من الإحساس والمسئولية وكأنهم يرهقونها حتى لا تعود تحمينا، لا أنكر أنى بدأت أخشى الاقتراب أكثر وأكثر، أعداد الذين يحاولون اختراقى تتزايد، حين يلتحم البعض بصدق – على ما يبدو – أخفى نفسى فى أفكارى ولا ينقذنى من المشاركة إلا إيمانى بجنون هذا الرجل، لم أعد آمن أحدا فيهم، أنا لم آمن لأحد أبدا، أحيانا أرتاح لكمال نعمان، أو عبد السميع الأشرم، الغيبوبة التى يغطان فيها تؤكد لى خدعة الحياة الكبرى، لم أصدق فى أول الأمر أن هذا هو كمال نعمان بلحمه ودمه، كيف يكون هذا الجالس معنا فى ذهول لا ينقطع هو هو ذلك الإنسان الشاعر الرسام الذى تحمل ألفاظه كل مأساة الإنسان وخفايا الطبيعة ومافوق السحاب؟ يخيل إلى أحيانا أنه يعمل فى المخابرات العامة، يحمل آلات التصوير السرية، ويخزن الأفلام للاستعمال الشخصى على الورق الحساس، ربما كان هذا هو مصدر هذه الروائع مما نقرأ له من شعر حلو، لا شئ يستحق أن يثيره هنا، وإن كانت عيناه تتذبذبان مثل مؤشر جهاز الاستقبال لضبط الموجات، حين أنسى نفسى، يثير فى مشاعرى الخاصة.... ترى هل هناك سبيل إليه؟

جمال هذه المرأة يتحداني في كثير من الأحيان، مازالت غامضة بالنسبة لي، ثقافتها أكبر من وظيفتها بمطار القاهرة، عنايتها بجسمها لا تتفق مع صدق أحاسيسها التى تفزعنى

لا يقدر على القدرة إلا الله، لن أدخل السجن برجلي ولو كان في الداخل جنة هي حوريتها وهذا الطبيب رضوانها

منظر عبد السميع وهو يحاول الانتباه يثير شفقتى بحق، أشعر أنه يحاول أن ينشل البحر بقدح قهوة مثقوب، ثقبه أكبر من محيط قاعه، فى مرة تجرأت على الحديث معه.

= أستاذ عبد السميع.

– نعم.

= لماذا تأتى إلى هنا؟

– أمعائى.

= مالها؟

– تقلص دائم، نصف وقتى منصرف إلى محاولة التخلص مما بها.

= وهل استشرت طبيبا باطنيا؟

– هو الذى أرسلنى إلى هنا.

= وهل وجدت ضالتك هنا؟

– أبدا، مازال الأمر كما ترى.

= فلماذا تحضر؟

– أعجبتنى الطريقة، وعندى أمل فى الراحة.

=..... لم أسمعك تذكر أمعاءك أبدا أثناء العلاج.

– قبل مجيئك كنت أتحدث عن شكواى هذه كثيرا، نهرونى وقالوا إنى أهرب فى شكواى من نفسى، ورغم أنى لم أفهم شيئا، إلا أنى كففت عن الشكوى.

= وهل أنت موافق على هذه الطريقة؟

– الطبيب أعلم بما يفعل،

= ولكن ما يفعله إنما يفعله فيك أنت.

– ربنا خلق الطب والمرض.

= أو ليس عندك حيرة، أو قلق، أو حزن؟

– ولماذا كل هذا؟

= هذه هى البضاعة التى تعرض هنا على قدر ما أرى وأسمع.

– وأنا مالى.

= لا شئ يشغلك من هذه الأمور؟

– أبدا، تديّنى يحمينى من كل شر،

= هل يعطيك تدينك هذا إجابة على كل الأسئلة؟

– طبعا.

= وكيف تتحمل هذه الانفعالات والانفجارات من حولك؟،

لن يمتكلنى أحد، لا طبيب ولا امرأة، ولا رجل، إن كان ثمة حقيقة فيما يقال هنا فهى أنه لا يوجد حب بين أحد وأحد، هو احتياج ملتهم يتخفى وراء ألفاظ جديدة، يدعون وجود حب آخر يشمل الرجل والمرأة على حد سواء

يحاولون أن يخففوا من هول الجمود الذى نعيشه بالتلويح بالأمل فيما لا يكون

–أشفق عليهم واستغفر الله العظيم من الكفر والضلال.

=....هم يتخطون الحدود كما ترى.

– ليس على المريض حرج.

= أستاذ عبد السميع.

– نعم.

= أدع لى.

– حاضر.

– يا أخينا، أنا أسخر منك، أحاول أن أثيرك.أنا لا أومن بهذا التسليم، ولا هذا الأمل، ولا هذا الدعاء، ولا شئ.

– يشفينا الله ويشفى المسلمين.

= خل بالك، هذه الدعوة لا تجوز على ملكة وغالى، فهم على غير الملة.

– رحمة الله واسعة، وهم من أهل الكتاب.

= استاذ عبد السميع !!.

– نعم.

= لا شئ،

ما هذا البله العظيم؟ أمان هذا أم تخدير عام؟ أهذه هى الحياة التى دعوتنى أن أطرق بابها يا عبد السلام أفندى يا مخرف؟ أكثر الله خيرك، رأيت مازاد إيمانى باليأس طريقا أوحد للحياة الصادقة.

****

كنت قد قررت أن تكون تلك المرة، هى آخر مرة، فما الذى جاء بى إلى هنا من جديد؟ اللعبة وحفظتها، أستطيع أن أجيب بدل أى واحد منهم نفس الإجابة وبنفس الألفاظ قبل أن ينطقها هو، خدعة هؤلاء البشر أكبر من كل ضلالات التاريخ، هذا الطبيب بائع أوهام يحطم وحدته بإملاء أفكاره، والذى يتنازل عن ذاته ويفقد وعيه يحصل على لقب "صحيح" بتقدير "متطور"، وأحيانا بتقدير

هذه الكلمة "الحب" سوف تنزع من القواميس ويكتب فى تاريخها أنها أكبر خدعة اخترعها الإنسان

كفى خداعا يا نجوى، التلويح بالسعادة هو المخدر الحديث، والأطباء الأرزقية يحسنون استعماله كما ترين

"حر"، وأحيانا يتقلد "نيشان الببغاوية" من الدرجة الأولى، الآخرون يبذلون قصارى جهدهم فى الحفاظ على معالمهم، لكنهم مازالوا يحضرون مثل حالاتى، ما الذى أتى بى اليوم بعد أن عرفت كل ما عرفت؟

لأنى عاقل، تعلمت من تجاربى المرة، طلقت الألفاظ الفارغة من حياتى، لم أعد أحتاج إلى الكذب حتى ولو خلفته المصطلحات الحديثة، أو وزعوه بالبطاقات فى عيادات الأطباء

هذا الشيخ يدّعى الطب، حلمت به الليلة لأول مرة، ظهر فى الحلم كحيوان الكنغر له كيس من لحم أمام بطنه، طلبت منه أن أختبئ فيه من نمور تتبعنى، أمسكنى من عنقى حتى كدت أختنق ووضعنى فيه بلا رحمة، فوجئت بثعبان يقبع داخله، لم يعضنى الثعبان لكن ملمسه الناعم وحركة جسده اللزجة الزاحفة على جسمى كانت أبشع من الموت ذاته، أنيابه ظلت تتراقص أمامى كألسنة اللهب دون أن تقترب منى، صحوت فزعا وحاولت أن أنسى الحلم دون جدوى.

هل أتجرأ وأحكى لكم عن.....؟ طبعا لن أحكى، أنا لا أحس بالأمان إلا مع ابراهيم الطيب أحيانا، قد أجد اهتماما عابرا فى نظرات عبد السلام، على الرغم من أن أيهما لا يردد إلا ما يقوله شيخ الحلقة، يعنى، أحس حواجزى الشائكة بطبقاتها الأسمنتية ترق بالرغم منى، لابد وأن اعترف بأنى موشك على الوقوع فيما أحذر منه طول حياتى، لا، لن يحدث هذا أبدا، أنا عرفت طريقى إلى صومعة يأسى بعد عمر شقى رائع، لن أتنازل عن ذاتى ولو كان الثمن هو الموت نفسه.

الخدمة الحقيقية التى يمكن أن يقدمها هؤلاء الأطباء إن صدقوا مع أنفسهم هو أن يعلنوا فشلهم، أن يصدروا مرسوما طبيا يسحب الآمال جميعا، حينئذ يعيش الناس فى الواقع، ويسعون فى بله إلى اللاشئ مثل أجدادهم وأبناء عمومتهم من الفيلة أو النمل الأبيض

لماذا أتيت هذه المرة إذن؟ ولماذا أتيت أصلا؟

الوجه الذى تراءى لى وأنا قادم فى الاتوبيس وانتظرت أن أراه فور حضورى هو وجه نجوى شعبان، جمال هذه المرأة يتحدانى فى كثير من الأحيان، مازالت غامضة بالنسبة لى، ثقافتها أكبر من وظيفتها بمطار القاهرة، عنايتها بجسمها لا تتفق مع صدق أحاسيسها التى تفزعنى، لم أستطع أن أكتفى بالفرجه عليها، تحرك داخلى الجسدى وهى فى قمة انفعالها بالبكاء، إثارتى كانت من نوع آخر مثل أيام البلوغ الأولى، لم تكن دموع امرأة مسكينة أو مستعطفة، كانت دموعا مشعة بالقدرة والتقبل فى نفس الوقت.

لابد أن أعترف أن هذا الرجل يبدو لى أحيانا مثل الحاوى حين أفاجأ بأنه يحرّك خليطا من المشاعر مما لم أعهد تجمعها معا حتى بين صفحات الكتب، لعلى حضرت اليوم من أجلها، لا أظن، أحيانا أشعر أنها تلعب نفس اللعبة السخيفة، تستدرجنى بالدلال والإثارة حتى الموت، لكنها تفعل نفس الشئ مع الآخرين، هذه هى إضافات البدعة الجديدة: "حب الكل رغم الارتباط بواحد"، لا يقدر على القدرة إلا الله، لن أدخل السجن برجلى ولو كان فى الداخل جنة هى حوريتها وهذا الطبيب رضوانها،

حين تدوسين النمل بحذائك مصادفة لا تتوقفى بقية المجموعة عن جر لقمة العيش إلى جحرها بلا حركات ميلودرامية، ولا هرب فى المستحيل، وبهذا تحافظ على نفسها من الانقراض

فشلها الأول لا يعنى رفضها للعلاقات الامتلاكية، قد يعنى خيبتها فى إحكام الأقفال، لن يمتكلنى أحد، لا طبيب ولا امرأة، ولا رجل، إن كان ثمة حقيقة فيما يقال هنا فهى أنه لا يوجد حب بين أحد وأحد، هو احتياج ملتهم يتخفى وراء ألفاظ جديدة، يدعون وجود حب آخر يشمل الرجل والمرأة على حد سواء، عبث ما بعده عبث، يحاولون أن يخففوا من هول الجمود الذى نعيشه بالتلويح بالأمل فيما لا يكون، هذه الكلمة "الحب" سوف تنزع من القواميس ويكتب فى تاريخها أنها أكبر خدعة اخترعها الإنسان، على هذا الرجل أن يثبت لنا حقنا فى اليأس من كل شئ إن كان صادقا، إذن لآمنت به دون تردد، إنه لا يفعل شيئا إلا أن يلوح بأشياء لا وجود لها وهو يحطم الأصنام جميعا حتى لا يبقى إلا صنمه هو، وقرآنه هو، يسمى صنمه الصحة كما يسمى قرآنه التطور،

لو ينس كل من حولك حتى لو كنت أنت السبب فى يأسهم فإن أملا ما ينبعث فى داخلك دون إذن منك، فتتحمل مصيبتك وحدك من جديد، المشكلة هى فى تفجر الأمل حين ترى اليأس بحجمه الحقيقى، ذلك الأمل الذى تدب فيه الحياة لحظة أن توقن بتمام اختفائه.

بالله عليك يا عبد السلام تسأل فردوس عن فائدة هذا الكلام فى صناعة حلة المسقعة أو شطف غيار العيال، حين كنت استغرق فى القراءة كنت أستطيع أن أتصور هذا الحب الذى يحكون عنه، الانسان أخ للانسان فى كل مكان، يمكن أن تصنع من هذه الألفاظ بيت شعر سخيف، أو تضعها نصيحة فى خطبة جمعة فاترة، أو تعلقها على لافتة فى استقبال رئيس دولة كذاب، أما أن تحاول أن تجسد هذا الكلام لحما ودما فأنت تبيع الوهم، لا مانع من أن تحلم بأن يحب الإنسان الإنسان، ولكن "عادلا" لا يحب "سعادا"، فماذا تريدين منى يانجوى ياشعبان؟

– هل قررت شيئا يا غريب؟

= ماذا تعنين على وجه التحديد يا نجوى؟

– أراك هذه الأيام لا تستطيع أن تحكم تماسكك.

= قرارى قديم ولا قوة فى الدنيا تستطيع أن تغيره.

كيف أحببت ذلك الطبيب الذى كرست كل فكرى ومشاعرى للنيل منه وفقس خداعه؟

– القرار يتغير أحيانا من خلف ظهورنا، ونحن لا نختار إلا الفرصة التى تسمح له بالظهور.

= تعلمتم جميعا الحكمة فى مدرسة نور الدين التجريبية، حتى فردوس جارتنا التوى لسانها، والذى كان قد كان.

– لماذا تُرجع كل شئ إليه؟

= لأن الجمل والألفاظ، وأحيانا تعبيرات الوجه تتشابه بشكل مزعج.

– خلقنا الله من نفس واحدة.

= وخلق منها زوجها ليسكن إليها!!، أليس كذلك؟

– خوفك يصور لك أن المصائد تتربص بك طول الوقت.

= أنا ملك مملكتى.

كيف تخيلت أن الدنيا بخير حتى تفجر الأمل فى كيانى وكأنه يهبط من شلال لا ينقطع؟

– إن كان لك مملكة.

= هى ذاتى بلا زيادة ولا نقصان.

– أنت تدور بداخلها طول الوقت.

– أقف بطريقتى، وأمشى على مزاجى.

– محلك سر، على شرط ألا يتغير قرارك.

= طبعا.

– هل أنت سعيد بهذا؟

= كفى خداعا يا نجوى، التلويح بالسعادة هو المخدر الحديث، والأطباء الأرزقية يحسنون استعماله كما ترين.

– وما البديل؟

= إعلان اليأس التام.

– هل هذا هو قرارك؟

= تماما.

– لماذا تخاف الأمل؟

= لأنى عاقل، تعلمت من تجاربى المرة، طلقت الألفاظ الفارغة من حياتى، لم أعد أحتاج إلى الكذب حتى ولو غلفته المصطلحات الحديثة، أو وزعوه بالبطاقات فى عيادات الأطباء.

الدموع تتحدرج حباتها على وجهى وكأنها الماء المقدس يغسلنى فتختفى الشكوك التى تراكمت طوال هذه السنين

– بغير الرجاء لا نعيش.

= الواقع العظيم يقول: لا جدوى أصلا.

– تقترح إلغاء الأمل من حياتنا بقرار رسمى.

= الخدمة الحقيقية التى يمكن أن يقدمها هؤلاء الأطباء إن صدقوا مع أنفسهم هو أن يعلنوا فشلهم، أن يصدروا مرسوما طبيا يسحب الآمال جميعا، حينئذ يعيش الناس فى الواقع، ويسعون فى بله إلى اللاشئ مثل أجدادهم وأبناء عمومتهم من الفيلة أو النمل الأبيض.

–ومن قال لك أن الفيلة والنمل الأبض يسعون فى بله.

كيف انبعثت من جلدى أشعة دافئة لتذيب جبل جليد اليأس المتراكم؟

=أنا الذى أقول ذلك.

– حياة الإنسان طاحنة، ووعيه بها مرعب.

= هذا المرسوم، الذى أقترحه بإعلان اليأس الشامل، سيبطل مفعول هذا الوعى الغبى، سيوقف الجرى وراء المستحيل.

– ونستسلم للسحق والقهر؟

= حين تدوسين النمل بحذائك مصادفة لا تتوقف بقية المجموعة عن جر لقمة العيش إلى جحرها بلا حركات ميلودرامية، ولا هرب فى المستحيل، وبهذا تحافظ على نفسها من الانقراض.

– بشع، بشع، بشع.

= صدقينى يا نجوى.

– بشع وكئيب.

= الآن تقتربين من حقيقة الحياة.

– مرارتك سوداء، حتى لأكاد أيأس.

= الآن يصبح للعلاج معنى، هيا بنا للجلسة.

****

انتصارى هو الهزيمة ذاتها.

كنت أتمنى ألا تقتنع نجوى بحرف مما قلته لها، حين استسلمتْ ليأسى بدأ اهتزازى، لو يئس كل من حولك حتى لو كنت أنت السبب فى يأسهم فإن أملا ما ينبعث فى داخلك دون إذن منك، فتتحمل مصيبتك وحدك من جديد، المشلكة هى فى تفجر الأمل حين ترى اليأس بحجمه الحقيقى، ذلك الأمل الذى تدب فيه الحياة لحظة أن توقن بتمام اختفائه.

دخلت إليهم اليوم مهتزا تماما لا أعرف ما السبب، حتى بدا للجميع أنى غير متمالك..

كيف حدث ذلك؟

كيف سمحت لنفسى أن أتنازل عن وعيى دون حساب؟

كيف بكيت فى حضن إبراهيم الطيب حتى خيل إلى أننى انتقلت إلى العالم الآخر من فرط الأمان والإذعان؟ كيف أحببت ذلك الطبيب الذى كرست كل فكرى ومشاعرى للنيل منه وفقس خداعه؟ كيف تخيلت أن الدنيا بخير حتى تفجر الأمل فى كيانى وكأنه يهبط من شلال لا ينقطع؟ كيف تمنيت أن أرضع من ثدى فردوس وهى منحية علىّ فى حنان غامر؟ كيف نسيت نفسى؟ هل كان دهرا أم جزءا من ثانية؟ كيف أحسست بحلاوة الشهيق والزفير؟ كيف شعرت بقسمات وجهى وأنا أبتسم؟ وأنا أتكلم؟ ليس بكاء، الدموع تتدحرج حباتها على وجهى وكأنها الماء المقدس يغسلنى فتختفى الشكوك التى تراكمت طوال هذه السنين،

كيف أحاطتنى أيديهم حتى خيل إلى أنها اختلطت بعضها ببعض، وتكاثرت، فانقلبت ناسا تتكاثر حتى امتلأت الأرض بالعالم الطيبين؟ كل هذا لم يستغرق سوى ثوان قليلة.... هى الدهر كله.

كان دبيب الأمل يشوش فكرى، اختلت حساباتى، لم أتصور أنه يمكن أن أتبعثر هكذا أمام خمر اقتراب صادق، لم تثر مشاعرى الأخرى وأنا فى حضنه، أين ذهبتْ وهى سجنى ومعبدى فى نفس الوقت؟

كيف انبعثت من جلدى أشعة دافئة لتذيب جبل جليد اليأس المتراكم؟ كيف أحاطتنى أيديهم حتى خيل إلى أنها اختلطت بعضها ببعض، وتكاثرت، فانقلبت ناسا تتكاثر حتى امتلأت الأرض بالعالم الطيبين؟ كل هذا لم يستغرق سوى ثوان قليلة.... هى الدهر كله.

أرفض كل ماحدث.

كان مجرد تصورى أننى بين ذراعى رجل فحل قادر مقتحم يذهب بى إلى سابع أرض، أين ذهب الخجل من مشاعرى الخاصة والخوف من كشفها؟ بل أين هى أصلا؟

السبب فيما حدث، فيما لم يحدث، هو ذلك الفلاح الجسيم إبراهيم الطيب، نهر الحياة ينساب من ملامحه الضخمة بلا حساب، يده التى كأنها قدت من جبل تقطر حنانا وثقة، لم يكد يرانى مهتزا من استسلام نجوى ليأسى حتى انقض على يغمرنى بهذا الشئ الرائع الذى يسمى أحيانا الحب مع أنه أكبر من أى اسم، مازلت أذكر كيف انفجرتُ فى النشيج دون بكاء فور سؤالى عن إحساس ابراهيم نحوى وعن قدرتى على إظهار ضعفى، لم أكن قد استجمعت حذرى بدرجة كافية، كان دبيب الأمل يشوش فكرى، اختلت حساباتى، لم أتصور أنه يمكن أن أتبعثر هكذا أمام غمر اقتراب صادق، لم تثر مشاعرى الأخرى وأنا فى حضنه، أين ذهبتْ وهى سجنى ومعبدى فى نفس الوقت؟ كان مجرد تصورى أننى بين ذراعى رجل فحل قادر مقتحم يذهب بى إلى سابع أرض، أين ذهب الخجل من مشاعرى الخاصة والخوف من كشفها؟ بل أين هى أصلا؟

كان لابد لى من هذه الإجازة من كل شئ حتى الأكل والشرب، ويا حبذا التنفس والإحساس

كانت نجوى مثل إبراهيم مثل إصلاح مثل عبد الحكيم، كنت رجلا وامرأة بلا خجل ولا تشويه.

****

كل همى الآن هو أن أمحو ما حدث، مادام قد حدث، وبأسرع مايمكن.

لو أنى انقطعت الآن عن الذهاب لظنوا بى الظنون وحسبونى خفت من الشفاء أو من الحب كما يزعمون دائما، لا، لا يكفى أن أنسى أنا ما حدث بل لابد أن ينسوه هم أيضا، بل أولا، ولكن كيف؟ أكبر خدعة خدعتها فى حياتى هى هذا الاستسلام القبيح، أين كنت أنا حينذاك؟ كيف تنازلت فجأة عن كل

مكاسبى وأشيائى الصغيرة وانتصاراتى الصومعية ويأسى المبدع؟ أين كنت حين ألقيت تاريخى فى لحظة واحدة فى أرض لا أعرف أغوارها؟

لن ألقى اللوم على ابراهيم أو نجوى، بل هو شيخهم الخبيث، لابد أنه وراء كل هذا، لابد أنه سلطهم علىّ ليحبوننى، رغم أنفى، تكتيك مدبر لأفقد ذاتى، هو متأكد أننى الوحيد الذى أعرف ألاعيبه ونواياه وكيف يخدعنا جميعا، هذا هو التفسير لتجنبه التفاعل معى مباشرة حتى الآن، كله من خلال المريدين الذين يدربهم على تجسيد الوهم، ثم ..... ثم، ثم: لاشئ.

****

انسحاب تام إلى صومعتى، أتوقف عن كل شئ إلا عن التفكير واللوم حتى فى نومى، عضلة تفكيرى لا تهدأ وانتباهى يزداد حدة

هأنذا ملقى فى حجرتى، التراب يعلونى منذ أمس الأول مثلما تراكم على الكتب منذ شهور، كأنى أحدها، الهرب مما كان حتم لم يبق على تنفيذه إلا التوقيت، كل شئ انتهى إلى غير رجعة حتى لو اضطررت إلى الاستمرار معهم بعض الوقت، أين حبهم المزعوم إذا لم يستطع أن ينفض عنى حتى التراب؟ ماالفرق بين هذا الخداع وبين أى لعبة غرامية نذلة؟ ألفاظ عظيمة، لحظات مشتعلة بلهيب سريع الانطفاء، فالنسيان فالضياع، من منهم يفكر فىّ الآن؟

كيف سمحت لنفسى؟ كيف استدرجتنى نفسى؟ كيف أمحو آثار العدوان؟ أبشع عدوان عرفه التاريخ أن يقتحم داخلك من لا تعرفه دون إذن، فجأة لا تجد لذاتك معالما تّذكر: تصبح قطرة فى محيط دون إنذار أو تحذير

حتى أنت يا كمال الذى لا تعرف ما تفعله بى مشاعرى نحوك !!،

فردوس هانم تتراءى لى عبر النافذة وهى تخرج من الحمام وعلى رأسها عمة تعلن انتصارا أنثويا من النوع الجديد، يدخل عبد السلام بعدها يغسل عن عقله الأفكار المتناقضة ليدعى كل منهما الصحة والسلامة بفضل جرعات الوهم واللذة المباحة، وأنا؟ أنا؟ ماذا؟ وكيف؟ كيف سمحت لنفسى أن يحدث كل هذا؟

أمس سمعت جرس الباب يدق فى إلحاح، أحسست أنه عبد السلام، لم أفتح، أصر دون جدوى، انصرف فى خطوات مترددة، أين الحب إذن؟ لو كان يحبنى حقا، كان عليه أن يكسر الباب.

على قدر ما تمنيت أن يكسر الباب، كنت قد اعتزمت قتله لو فعلها.

***

كان لابد لى من هذه الإجازة من كل شئ حتى الأكل والشرب، ويا حبذا التنفس والإحساس، انسحاب تام إلى صومعتى، أتوقف عن كل شئ إلا عن التفكير واللوم حتى فى نومى، عضلة تفكيرى لا تهدأ وانتباهى يزداد حدة، كيف سمحت لنفسى؟ كيف استدرجتنى نفسى؟ كيف أمحو آثار العدوان؟ أبشع عدوان عرفه التاريخ أن يقتحم داخلك من لا تعرف دون إذن، فجأة لا تجد لذاتك معالما تذكر: تصبح قطرة فى محيط دون إنذار أو تحذير، لا ألوم إلا نفسى، أنا الذى ذهبت برجلى، وأنا الذى أقنعت نجوى باليأس التام، وأنا الذى اهتززت حين صدقتنى فدب فى الأمل المتحدى، ثم أنا فى النهاية الذى فعلتها.

عطائى أصلب من الصلب، قشرتى المنيعة سوف تحمينى منهم، لم أعمل حساب أن الدفء يمكن أن يدخل من فتحاتى حتى لو اختبأتْ رأسى ولم أعد إلا حجرا مجزعا لا حراك به.

عندك، أنا أيضا الذى سأمحوها من ذاكرتهم ومن ذاكرتى تماما، سوف أذهب من جديد، سوف أستجمع كل قواى الدفاعية، تاريخ أجدادى فيه أروع وسائل الكر والفر والتمويه، سوف أستدعيه لأحافظ على نوعى الفريد، ليس كرا وفرا تماما، أشعر أننى أنحدر من أصل سلحفاوى، أن غطائى الحجرى هو مظلة حمايتى، كل ما علىّ هو أن أسحب رأسى وأطرافى داخله فى الوقت المناسب، غطائى أصلب من الصلب، قشرتى المنيعة سوف تحمينى منهم، لم أعمل حساب أن الدفء يمكن أن يدخل من فتحاتى حتى لو اختبأتْ رأسى ولم أعد إلا حجرا مجزعا لا حراك به، خدعت فى قدرتى حتى نسيت ضرورة البيات الشتوى لاستعادة النشاط واستمرار الحياة، خايلنى دفء خادع فاستكنت له وكأن الشتاء لا يأتى أبدا، كيف حدث كل هذا من ورائى وأنا الذى كنت أحسب أنى لا أسمح لهمسة خبرة أن تمر بى دون المرور من ممر عقلى الحاسب المتربص؟

خدعت فى قدرتى حتى نسيت ضرورة البيات الشتوى لاستعادة النشاط واستمرار الحياة

هأنذا ملقى على ظهرى السلحفاوى المقوس، كلما حاولت أن أعدل نفسى تأرجحت كنصف الكرة دون جدوى فى استعادة توازنى بعودتى للارتكاز على سطحى الأملس، لم تنفعنى قدرتى على التقدم والتأخر برأسى المتلفت فى حذر.

لم ينفعنى بطئى الشديد ولا نفسى الطويل ولا حركتى الهادئة، كانت حاجتى للدفء والهواء المتجدد أكبر من حسابى لضرورة البيات والانسحاب فى الوقت

المناسب، لابد من مراجعة كل دفاعاتى، لابد من البحث عن منفذ فى أجدادى ينقذنى من الخداع مرة ثانية، لا بد أن أرتقى إلى ما هو قنفذ ذو أشواك يستطيع أن يشهرها وهو يتكور على نفسه عند أول تهديد بالاقتراب.

أفكارى تجوب الأرض وتستعرض التاريخ، شللى تام وشكوكى حادة، تدمى كرامتى وتحذرنى منهم ومن أى كائن حى.

المهم الآن: من يقلبنى على بطنى الأملس ثانية؟

تعبت من طول المحاولة بلا جدوى، لا شئ إلا التأرجح والدوار.

نظراتهم ترعبنى، ماذا ينتظرون منى بعد ذلك؟ أن أفعلها ثانية؟ أن أعيد اللقطة حتى يتأكدون من حسن الأداء وحذق المخرج؟ كلاكيت عواطف بشرية طازجة: سابع مرة؟ يا فرحتى بصندوق الدنيا الجديد، كنا زمان نتفرج على السفيرة عزيزة وهى شبه عارية بقرش واحد، هنا نشاهد عرض ستربتيز للتنازل عن الكرامة والشخصية والوعى قطعة قطعة، لعاب المخرج يسيل بشهوة الانتصار منفردا حين لا يبقى مرسوما إلا هو.

****

أنا أرفض نظرة الترحيب التى لقيتنى بها اليوم يا غبى، لا تتمادَ فى السعادة الشامتة وأنت تجتر تنازلى عن ذاتى تلك اللحظات، لن ترى هذه اللحظة ثانية حتى أموت، أنا هنا ثانية لأثبت لكم أنى مازلت غريب الأناضولى بلا زيادة ولا نقصان، وأنى ازددت اقتناعا بأن الوهم الذى تبيعه أيها التاجر الحاوى لا يستمر أكثر من ثوان، وأننى إن استطعت أن أحمى الآخرين من مثل هذه المسخرة فلسوف أفعل بلا تردد قبل أن ينقلبوا على ظهورهم دون حساب.

ماذا تفعل يا كمال لو استجبت له؟ أليس من الأسهل أن تستجيب لى أنا؟ آه لو علمت كم أتمنى لمسة من طرف أصابعك؟ هل تضمن أن تجمع نفسك من جديد لو تبعثرتُ منك تحت وهم هذا الذى يسمونه علاجا؟ هل ستعود مايسترو الألفاظ وسيد موسيقاها تقرض الشعر لتؤكد العدم؟ الآن فهمت معنى الغيبوبة

لابد من مراجعة كل دفاعاتى، لابد من البحث عن منفذ فى أجدادى ينقذنى من الخداع مرة ثانية، لا بد أن أرتقى إلى ما هو قنفذ ذو أشواك يستطيع أن يشهرها وهو يتكور على نفسه عند أول تهديد بالاقتراب

أفكارى تجوب الأرض وتستعرض التاريخ، شللى تام وشكوكى حادة، تدمى كرامتى وتحذرنى منهم ومن أى كائن حى

التى تتواجد بها بيننا لتحمى كيانك من الاعتداء، الآن أستطيع أن أحترم معتقدات عبد السميع المقدسة لأنها أرحم من هذه المناورة الخطرة التى ليس لها اسم ولا معالم، فلتتمسك بمعتقداتك يا عبد السميع مهما بدت لى سخفا أجوف، فهى حماية لك من مناورات الحب وزعم الاقتراب، لترتكز عليها حتى ولو كانت دعائمها قد نخرها السوس، هى جزء من ذاتك على أى حال، أما ما تدعونا إليه أيها الحاوى المخادع فهى ذاتك أنت مهما صوَّرتها على أنها الذات الكلية، أو اللاذات.

يا فرحتى بصندوق الدنيا الجديد، كنا زمان نتفرج على السفيرة عزيزة وهى شبه عارية بقرش واحد

****

انطلقت مشاعرى الأخرى تذكرنى بنزواتى القديمة، أحس بها هذه المرة نحو إبراهيم وكمال بنفس العنف، سوف أتجنب إبراهيم تماما خوفا من تكرار المأساة، أما أنت يا كمال فالطريق إليك أسلم لو فهمت رغبتى فيك، رغبة تؤكد موتى حتى لو غمرتها اللذة المرعبة.

= كمال.

– نعم.

هنا نشاهد عرض ستربتيز للتنازل عن الكرامة والشخصية والوعى قطعة قطعة، لعابه المخرج يسيل بشهوة الانتصار منفردا حين لا يبقى مرسوما إلا هو.

= أنا أقرأ شعرك من قديم وأحس فيه بصدقك وحساسيتك وقدرتك.

– شكرا، أصبح الآن فى حكم الماضى، خاصمنى القلم إلى غير رجعة.

= كمال!!.

– نعم.

= ما رأيك فيما حدث لى فى المرة السابقة؟

– أنت حر، هذا أنت.

= أنا أتكلم معك فيه لأنى أشعر أنك ترفضه أيضا.

– ليس لى رأى محدد تجاه أى شئ.

= رأيك لاذع فى شعرك، ويقولون مثل ذلك عن لوحاتك رغم أنى لا أفهم فيها شيئا، كثيرا ماسألت نفسى هل أنت حقا كمال نعمان.

– وكثيرا ما سألت نفسى نفس السؤال، هل أنا هو؟

= أنت فنان بكل معنى الكلمة.

– ولكنى لا أعرف لهذه الكلمة معنى محددا كما تحاول أن تصورها.

= هذه طبيعة الفنان بلا شك.

– أنا ما عدت أعرف طبيعة محددة لما هو فنان، أنا هنا لأنى لا أعرف، كلكم تبدون لى وكأنكم تدركون شكواكم، أما أنا فمشكلتى الأولى أنى لا أعرف ماهى شكواى على وجه التحديد، إلا إن كان التوقف عن العمل أصبح مرضا حديثا.

= ألهذا أنت صامت متأمل هكذا طول الوقت؟

– ليس عندى ماأقوله أصلا.

= ولماذا تحضر إلى هنا؟

– ربما لأعرف ماذا أشكو منه.

=.... موقف إلى اللعب أشبه.

– هذه هى الحقيقة.

= وهل هذا هو ما أتى بك إلى هنا معنا؟،

– طبعا، هل تظن أننى حضرت بناء عن إعلان فى الصحف عن وظائف مرضى خالية؟

= ....

– ....

= ما رأيك فيه؟

– حِرَفِىٌ ماهر.

= ألا تخاف منه؟

– لا.

= لماذا ؟

لتتمسك بمعتقداتك يا عبد السميع مهما بدت لى سخفا أجوف، فهى حماية لك من مناورات الحب وزعم الاقتراب، لترتكز عليها حتى ولو كانت دعائمها قد نخرها السوس، هى جزء من ذاتك على أى حال

أما ما تدعونا إليه أيها الحاوى المخادع فهى ذاتك أنت مهما صوَّرتها على أنها الذات الكلية، أو اللاذات

هذا هو أحسن مايقدمه الفن لوجودنا المهدد، هل أعاود الكتابة التى فشلتُ فيها قديما؟ لماذا اكتفيتُ بالقراءة؟

أقنعت نفسى أنه لم يبق شئ يقال، لم أدرك ساعتها أن فائدة القول قد تكون لصاحبه أولا، ما علينا، أتبين الآن أنه حتى لو قلت كلاما معادا فقد يحفظنى ويثبت تماسكى

– لكلٍّ حدوده.

= هل تعتقد أنه صادق فى مشاعره؟

– غاية علمى أنه فنان أيضا، وإذا كانت مادتى هى الألفاظ والألوان فمادته البشر.

= أنت تحترم الألفاظ أكثر مما يحترم هو البشر.

– الفنان لا يعرف الاحترام، ولكنه يحاول الصدق.

= تدافع عنه.

– أقول لك إحساسى.

=.... خبرتى تقول أن هذه لعبة خطرة.

– يبدو ذلك.

= ومع ذلك ستستمر فيها؟

–.... أجد متعة حقيقية فى الحضور والتأمل.

= كثيرا ما يخيل لى أنك لست معنا، رغم أنك الوحيد الذى تثيرنى، الشئ الوحيد الذى استيقظ فى، وظل كذلك، هو ماكنت أخجل منه رغما عنى، كنت قد ألغيته بالنسيان والاستسلام للوحدة.

– ماذا تعنى؟

= إحساسى الفج أصبح على السطح، وهو إحساس عنيف.

– ماذا تعنى؟

= ما فائدة أن أقول لك ماذا أعنى وأنت بعيد هكذا؟

– لا أفهم؟

= هل تزورنى فى البيت نكمل الحديث..

– لا مانع.

مناعتك ياكمال تفوق الوصف، كنت أحسب أنى أقْدَركم على الفرجة، يبدو يا كمال أنك اعتدت أن تفرز شحناتك أولا بأول على الورق فلا تضطر إلى مغامرة التفاعل فالتعرى والتشقلب شخصيا، هذا هو أحسن مايقدمه الفن لوجودنا المهدد،

هل أعاود الكتابة التى فشلتُ فيها قديما؟ لماذا اكتفيتُ بالقراءة؟ أقنعت نفسى أنه لم يبق شئ يقال، لم أدرك ساعتها أن فائدة القول قد تكون لصاحبه أولا، ما علينا، أتبين الآن أنه حتى لو قلت كلاما معادا فقد يحفظنى ويثبت تماسكى، ماتت الأصالة وسكب الحماس على صفحات الكتب وطويت الصحف، رسم الأولون كل الصور، وصفوا كل المشاعر، حددوا كل الآمال، ولم يتحقق أى من ذلك، كنت أحسب أننى أستطيع أن أتفرج على الناس الذين هم هنا مثلما أتفرج على ما قاله السابقون دون جدوى، اختلف الأمر لكننى لن أستسلم، سوف أضاعف من حبك خطة للدفاع المنظم حتى يتم الانسحاب فى الظلام.

ماتت الأصالة وسكب الحماس على صفحات الكتب وطويت الصحف، رسم الأولون كل الصور، وصفوا كل المشاعر، حددوا كل الآمال،

****

لماذا تخليت عنى ياكمال؟ دعوتك إلى بيتى فتركت الطبق الشهى وذهبت، ولما لقيتك تجاهلتنى كأنك لم تكن عندى بالأمس، لن أجرؤ على دعوتك ثانية، قد تصبح قصة، عرفت حدودك وعرفت مابى، لستَ أنت.

****

تعجبنى يا مختار وأحتقرك فى نفس الوقت، هربك أنجح كما يبدو أنه ألذ، قرون استشعارك تبحث عن الفريسة فى كل مكان ولكن شيئا ما يفشلك فى آخر لحظة، لو أنك وغد فقط لما جئت هنا، أتساءل كثيرا لماذا أنت هنا؟ ولماذا تواصل الحضور؟ وكأنك سوف تجد شيئا لا تعرفه؟ أحيانا أشعر أنك تتساءل معى عنك، لماذا لم تغنك شهوتك عما سواها؟ أستطيع أن أستنتج نجاحاتك، محروم أنا من هذه المغامرة وأتقمصك أحيانا لأتعرف عما ينقصنى، أفكر فيك أكثر، تزرونى صفية فأواجَه بعجزى.

هل تعرف يا مختار أننى على قدر ما أعجب بك، أحتقرك؟

****

لو كنت أعرف يا عبد السلام يا مشد حقيقة ما ينتظرنى هنا من خداع لقتلتك قبل أن تدعونى لمثل هذه الخبرة المهينة، ألعن اليوم الذى طرقتَ فيه بابى، كنتُ

كنت أحسب أننى أستطيع أن أتفرج على الناس الذين هم هنا مثلما أتفرج على ما قاله السابقون دون جدوى، اختلف الأمر لكننى لن أستسلم، سوف أضاعف من حبك خطة للدفاع المنظم حتى يتم الانسحاب فى الظلام

قبله أستاذا يعرف كل شئ، وكنت أنت تلميذا لم تحفظ حروف الهجاء بعد.أحيانا أضبطك الآن وكأنك تعايرنى بأستاذيتك لى، أضحك عليك وأنت تتصور أنك تسير على طريق الصدق والحياة، خيبتك قوية، الصدق والحياة؟ ما أغباكم جميعا، لولا أزمة المساكن لتركت لك البيت من بابه حتى لا أرى امتداد مسرحية الخداع بينك وبين السيدة حرمكم المَصوُن طول الوقت، يخنقنى منظر الصدق المزعوم بينكما حتى لأفكر فى الهجرة إلى القطب الشمالى هربا من هذه التمثيلية المعادة، كل الناس تعيش فى ستر مؤلم وهم لا يدعون ما تدعون، استسلامهم أشرف من كذبكم، خدعتكم ألفاظ الحاوى فتعلمتْ فردوس هانم القفز المتقطع مثل الغراب، تصابيها لا يخدعنى وهى تدّعى التطور والصحة، أمعن النظر يا عبد السلام وسوف تتبين أنها صحوة الموت قرب سن اليأس وصاحبك يوهمك أنها الولادة من جديد أو البعث، تتحدث عن سنها باعتبار أنها سن النبوة، ماشاء الله ياستنا فردوس، جعلنا الله من بركاتك، لو صدق أنكما نجحتما، لا أعرف كيف، فأنا مهدد أكثر من أى شئ، لا أقبل الكذب ولا الاستسلام.أنا أعيش شرف الوحدة وصدق العجز، بودى لو انتقم من فعلتك يا عبد السلام بدعوتى إلى هذه الورطة، صبرك، سوف أنسحب أولا ثم أمضى بقية عمرى انتظر فشلك الذريع، ساعتها قد أمد لك يدى صادقا لأقنعك باليأس الصبور: راحتنا الحقيقية.

لو صدقت ما تحاولان إقناعى به لانزلقت إلى شباك نجوى شعبان، أنا مهتم بها وهى تغطى فخ الزوجية السعيد بالأوراق المتساقطة من شجرة "كنظام الصدق والحب".

هل أستطيع أن أنقذها من عماها قبل فوات الأوان؟

– 1 –

= أنت تعلمين يا نجوى أنى مهتم بك شخصيا.

–.... ما المناسبة.

= نتحدث بشجاعة؟

قرون استشعارك تبحث عن الفريسة فى كل مكان ولكن شيئا ما يفشلك فى آخر لحظة

أنا لا أخافه منهم، ولكنهم يثيرون جوا من المفروض واللامفروض، بحيث يصبح الكلام ذا طبع خاص، وقوانين محفوظه لا تسمح بأى صدق حقيقى

– ياليت.

= أريد أن أحدثك فيما يجرى هنا.

– ولماذا لا نتحدث أمامهم،

= أنا لا أخاف منهم، ولكنهم يثيرون جوا من المفروض واللامفروض، بحيث يصبح الكلام ذا طبع خاص، وقوانين محفوظه لا تسمح بأى صدق حقيقى.

– ماذا عندك؟

= ليس عندى شئ.

– غريبة ؟

= أنا أحذرك.

– ونفسك أنت؟ هل ترى أنها انتفعت بالتحذير؟

= إياك أن تتصورى أنى انهرت ذلك اليوم، كان تمثيلا فى تمثيل.

– طول الوقت؟

= يعنى.

– محاولة كذبك على نفسك محاولة خائبة، لكنك عنيد، وأنا أحبك.

يا نهار أسود، أصبحت مثل شحاذى السيدة، فردوس هانم وعذرتها وهى توزع كعك الرحمة والحنان بنفس الاسم، أما نجوى التى كنت أحترمها وأقدر شجاعتها فى تحمل مسئولية فشلها الأول فلم أتصورها وهى تمنح هى الأخرى فضلات العواطف المبتذلة لأمثالى ممن تتوسم فيهم غباء الجوع الجبان.

ماذا يحركنى فى الداخل؟

هل انفلت منى الزمام حتى لم أعد أحسن الحساب؟ هذا كلامه هو بلا نقصان، انمحت شخصياتهم حتى لم يعد يصلح أن أكلم أحدا وحده، أصبحوا نسخة واحدة، لن يقبلونى إلا إذا أصبحت مثلهم، بعيدا عن شواربهم، استفدت من الخبرة السابقة رغم عنفها بما يفوق الوصف، علمتنى ألا أسمح لنفسى أن أغيب عنى ثانية واحدة، ولا نصف ثانية، لولاها لما أشفقت على الست نجوى هانم،

انمحت شخصياتهم حتى لم يعد يصلح أن أكلم أحدا وحده، أصبحوا نسخة واحدة، لن يقبلونى إلا إذا أصبحت مثلهم

ما الذى جاء بى بين هؤلاء الناس فاقدى المعالم؟ هل هو انتحار آخر؟

مالهم بى؟ ليذهبوا جميعا إلى جنة شيخهم الموعودة، حلال عليهم، هم هنا وهناك سواء، مسوخ لا تستطيع أن تميز واحدا من الآخر، ما الذى جاء بى بين هؤلاء الناس فاقدى المعالم؟ هل هو انتحار آخر؟ حين ضجرت من ذاتى المتضخمة، لوح لى عبد السلام أنه يمكن التنازل عنها دون جنون أو ضياع، كنت متمسكا بها حتى أمسكت هى بى فكدت أختنق، حديث عبد السلام عن النفس الكلية وعن الذوبان فى المجموع وكيف يشبه الناس بعضهم بعضا صوَّر لى أنه مسموح الحلم بما لا يكون، وهذه هى النتيجة: ورطة وسط مجموعة من الكائنات الهلامية بلا كيان، هل يكون هذا هو هدفى الخفى من مجيئى؟

ورطة وسط مجموعة من الكائنات الهلامية بلا كيان، هل يكون هذا هو هدفى الخفى من مجيئى؟

شخصيتى المنهكة أرهقتنى ولم تغن عنى شيئا، فما الذى أرعبنى حين فرطت فى وعيى، لحظة، جزءا من لحظة؟ أنا أعلم أنى كنت دائما لا أرى إلا رأيى، أقنعونى بطريق ما أن آرائى ليست آرائى، أنها مفروضة علىّ، سلبوا حق ملكيتى لها، وحتى حين أقول العكس فأنا أمارس عكس ما فرضه أبى، وما فرضته الحكومة، سيان، ماذا تبقى لى إذن؟ كدت أصدقهم حتى أنى بدأت فى طريق البحث عن آرائى أنا، كلام يشبه الجد، حين فعلتها عرفت أية خدعة استُدْرِجْتُ إليها، خيبك الله يا عبد السلام، ما أسهل البحث فى الكتب وتصور مصائر الاحداث دون الدخول فيها، التاريخ يحوى كل ما تريد دون محاولة لاختبار الحياة من جديد هنا أو الآن، لعبة يحذقها صاحبنا حتى لا يتبقى لنا إلا اللحظة التى يتحكم هو فيها بأسلاكه غير المرئية، سوف تنتحر الثقافة ويتحلل التاريخ تحت أقدامكم وأنتم تقفزون فوق خبرات الانسان كالغربان يا جهلة، يفقدنا هذا الرجل الدجال ذواتنا لنصبح آنية شفافة يضع فيها سائله هو، لا أمان عندى إلا أن يتنازل هو عن ذاته أولا، يبدو أن هذا هو المستحيل نفسه، أحاط هذا الرجل نفسه بسياج من ادعاء الطب وحذق ألعاب الحواة.

أنا أعلم أنى كنت دائما لا أرى إلا رأيى، أقنعونى بطريق ما أن آرائى ليست آرائى، أنها مفروضة علىّ، سلبوا حق ملكيتى لها

لن أكون عليا ليكون هو معاوية يا عبد السلام يا أشعرى، أنت غيرى حتى لو استعدت أنت وزوجتك الجنة المفقودة، لن أتنازل عن ذاتى إلا لله الذى تزعمون،

وهو ليس فى حسابى، لست أبلها أضرب فى الظلام، آلهتى هى ذاتى، وواقعنا الشقى، ووحدتى المقدسة، وليذهب كل ماعدا ذلك إلى الجحيم.

– 2 –

= اسمعى يا نجوى.

–....

= هل هناك أمل أن نجرب شيئا آخر؟

– طبعا.

= هذه اللغة الجديدة قيد على مشاعرنا التلقائية.

– قلها يا غريب، هات ما عندك.

= تقولين أنك تحبينى.

– طبعا.

= لاداعى لـ "طبعا" هذه، أليس هذا ما يحذرنا شيخكم منه؟

– يعنى، إسمع يا غريب، إذا بقيت على هذه الطريقة فدعنى أذهب، ليس معقولا أنى كلما نطقت بلفظ، نسبته له أو لأى أحد غيرى، ألا ترى مبلغ خوفك؟

= أنا أرتاح لك يا نجوى.

–.... وأنا أرفض ضياعك، لا تؤاخذنى، مع أنك أقنعتنى يوما بجدوى اليأس.

= جروحى قديمة يا نجوى ولا أمل فى نسيانها.

– ليس عندى ما أعدك به.

= لا أملك أن أكون الوحيد فى حياتك، ولا أستطيع.

– لا أفهمك.

= أريد أن أن أطمئن على قدرتك على تحمل مسئولية ذاتك، دون الاعتماد على آخر.

التاريخ يحوى كل ما تريد دون محاولة لاختبار الحياة من جديد هنا أو الآن

لا يتبقى لنا إلا اللحظة التى يتحكم هو فيها بأسلاكه غير المرئية، سوف تنتحر الثقافة ويتحلل التاريخ تحت أقدامكم وأنتم تقفزون فوق خبرات الانسان كالغربان يا جهلة

– لا سبيل للاطمئنان إلا بالتجربة.

= ليس معى الآن على الأقل.

– أنت ترفضنا جميعا، ترفض المجموعة من حيث المبدأ، فلماذا تحضر؟

= لا أعنى المجموعة.

– من تعنى؟

= أريد أن أطمئن إلى اعتمادك على نفسك.

– لست إلهة، وفشلك أنت فى الاعتماد على نفسك لا يبشر بخير.

= فشلى أفضل من نجاح زائف.

– كلامك غامض، أكاد لا أفهم منه شيئا.

= عندك حق، لا شئ يطمئن، خصوصا هذا.

–.... هذا ماذا؟

= لا فائدة إلا أن تكونى بجانبى دون شروط.

– إسمع ياغريب، إعرف أولا ماذا تريد، ثم تعال نتكلم.

= أريدك بلا زيادة ولا نقصان.

– لا يا شيخ، !! وشروطك الخفية؟

= تقلبينها علاجا كما علمك شيخك المبارك.

– تعود لنفس الحكاية، أنت لا تريد أن تتحمل مسئولية ما تقول، أو ما أقول.

– تاريخى يقول غير ذلك، لم يتحمل أحد عنى مسئوليتى أبدا.

=.... فأنت الشقاء ذاته.

– هذا شأنى.

= وشأنى أيضا.

– ترجعين إلى الوصاية تحت ستار العواطف المستوردة.

= الله يلعن جبنك يا أخى، حيَّرتنى.

– ليكن، أنا أعرف طريقى.

لا أمان عندى إلا أن يتنازل هو عن ذاته أولا، يبدو أن هذا هو المستحيل نفسه، أحاط هذا الرجل نفسه بسياج من ادعاء الطب وحذق ألعاب الحواة

هوايتك المفضلة مثل كل بنات جنسك هى امتصاص الرجال ثم الإلقاء بنفاياتهم مثل مصاصة القصب

= نعم؟ نعم؟

-.. أحاول أن أعرفه على الأقل، دعينى فى حالى.

= أنت فى حالك طول الوقت.

****

ياحثالة المجانين، مرة ثانية تتركينى يا كلبة، يا مغرورة، تريدين ذكرا تلقين عليه اللوم كله، وفى نفس الوقت تتمتعين بالحديث عن خدعة الحرية والتطور، هوايتك المفضلة مثل كل بنات جنسك هى امتصاص الرجال ثم الإلقاء بنفاياتهم مثل مصاصة القصب، لولا أنى مازلت أقدِّرُ عنادك لكان لى موقف آخر، عماك صور لك أن اهتمامى بك يمكن أن يذلنى، عندك حق، فقدت نفسى منذ سمحت لك أن تتفرجى عليها ذلك اليوم.

عماك صور لك أن اهتمامى بك يمكن أن يذلنى، عندك حق، فقدت نفسى منذ سمحت لك أن تتفرجى عليها ذلك اليوم

كيف أمحو ما كان؟

كيف أترك لهم صورة أخرى، صورتى القديمة، صورتى الحقيقية؟

كلما قررت أن أتوقف قفزت إلى صورتى المسحولة بغير معالم.

هل أمضى فلا يذكرونى إلا بها؟

لم يعد يصلنى منهم الآن إلا شفقة خفية، أو استهانة صريحة.

- 3 -

هذا الحاوى المناور، هذا الشيخ الساحر، ماهى حكايته؟

المصيبة أننى أحبه أحيانا، وأحيانا أخرى أشفق عليه، وفى معظم الأحيان أشك فيه وأخاف منه، هذه اللعبة أنا أعرفها جيدا، كنت أتصور أننى أنهيتها لصالحى مع أبى منذ سن مبكرة، لم أنجح فى ذلك إلا حين كفرت به، وكفرت بالله، فلم يعد على سلطان يوجهنى إلا ذاتى، من يومها وأنا أومن "بي" إيمانا كاملا، فتفجرت فىّ قدرات خارقة جعلتنى ذات مرة قرصانا يقتل موبى ديك بطعنة واحدة، ويقضم أنياب الفك المفترس ثم يقفز قبل أن يبتلعه.

المصيبة أننى أحبه أحيانا، وأحيانا أخرى أشفق عليه، وفى معظم الأحيان أشك فيه وأخاف منه

ذات شطحة أخرى حكمت العالم سرا فترة من الزمن، كان حكما رائعا لم أظلم فيه إنسانا ولا حيوانا ولا طائرا، كان عالمًا، ساد فيه الأطفال وكانت الأعمار

تسير بالمقلوب فيولد الإنسان عجوزا ويصغر حتى إذا ما بلغ عمر الطفل تولى منصب اللاعب الأول فى الدولة، وزعت الأرزاق بالعدل وزرعت البحر كما نبتت أشجار الفاكهة على سفوح جبال السحاب، كان ديوانى مفتوح على مصراعيه لكل الناس وكان رغم صغره يسع الناس جميعا، لم يكن عندى حجاب ولا وزراء ولا مساعدين، كانت الأمور أبسط من كل ذلك، وحين استتبت الأحوال أحسست أنه لا معنى لسلطانى ولا حتى لوجودى، قررت أن أتنازل عن كل شئ لكننى لم أجد أحدا يصلح له إلا الله، وهو غير موجود، تراجعت حتى لا يفسد الناس من بعدى وقررت ألا أتنازل عن مملكتى حتى أجده ليتولاها بمعرفته ما دام يدعى أنه خلقها، وهو لم يأت ليتسلمها حتى الآن.

حين كنت أنزل إلى العالم الأدنى لم أكن أعرف المشى ولا الحديث باللغة السائدة، ومع ذلك كنت أواصل السعى لأرجع مثخنا بالجراح إثر الوقوع واللطمات، لم يتركوا فىّ موقعا إلا طعنوه، أرجع وجراحى تقطر دما، أحبك اللفافات حولها فلا يراها أحد، أعرف تماما كيف أن رعاياىّ كانوا فى أشد الحاجة إلىّ طول الوقت قويا قادرا على كل شئ، حذقت كيف أجدد جلدى باستمرار، حميت بذلك نفسى من الشفقة الشماتة، الخيط الذى نفعنى فى نسج الكيس الجلدى حولى الطبقة تلو الآخرى وجدته فى الكتب التى راحت تؤكد لى فشل كل من سبقونى، مجرد وجود هذا الكم الهائل من الكتب هو دليل على فشل البشر فى الوصول إلى شئ ذى بال، لو كانوا وجدوه ما كتبوه، ثم تطلع لى يا عبد السلام يا مشد فى آخر الزمان تلوح لى من جديد بمملكة العدل والأمان على الأرض الخراب هذه، لقد كنت مستعدا للهجرة إليها فى سابع سماء، لم يكن عندى مانع أن أصحب البلهاء من المتدينين وهم يحلمون بها فى الآخرة وسط أغلفة المجهول فى مكان ما بالكون السرى الغامض بعد الموت، لم أستطع، يا ليتنى ما كفرت أبدا، يا ليتنى ظللت أحلم مثلهم، تركت لهم جنتهم بعسلها ولبنها حيث كل الناس مثل كل الناس، لا أنا وجدت جنتى، ولا أنا رضيت بجنتهم.

كانت شطحة أخرى حكمت العالم سرا فترة من الزمن، كان حكما رائعا لم أظلم فيه إنسانا ولا حيوانا ولا طائرا، كان عالمًا، ساد فيه الأطفال وكانت الأعمار تسير بالمقلوب فيولد الإنسان عجوزا ويصغر حتى إذا ما بلغ عمر الطفل تولى منصب اللاعب الأول فى الدولة

لماذا حكيت لى يا عبد السلام عن تلك الجنة المسحورة البديلة المشفرة فى عيادة هذا الطبيب الأرزقى؟ لماذا لوحت لى بإمكان الحياة بشكل آخر؟ من حقك يا عبد السلام أن تحلم بما يرضيك وأن تجرجر زوجتك المصونة وراءك كما تحب، ولكن من حقى أنا أن أحافظ على ذاتى من سطوة شيخك الغامض المغرور وهو أكثر خوفا واهتزازا منى ومن أى واحد فيكم، يغرينا بالتنازل عن ذاتنا فى حين يتمسك هو بكل قطرة من ذاته، ألا ترى أن نفسه متضخمة فاغرة فاها تلتهم كل ما يلقى فيها من ضحايا الوحدة والألم، وهى تقول دائما هل من مزيد.

نفسى هى زادى وغايتى وشقائى، وعيى يقظ طول الوقت، لن يتفجر ثانية إلا لحسابى، سأعاود صنع مملكتى أنا، أتحين الفرصة للانسحاب، سوف أظل يقظا طول الوقت حتى تستغرقون فى سباتكم، فأتسحب مشفقا عليكم.

****

= قبل أن ذهب أريد أن أحذرك يا نجوى.

–..... ولكن تذكر أننا نحبك.

= ألفاظكم أصبحت متشابهة.... مثل السمك الميت فى حلقة روض الفرج، أشم لها رائحة لا تسرك.

– تلوّح لى فى كل مرة، ثم تقطع أى حديث بهذه السخرية المرة.

= أنا أشفق عليك تماما، جاء دورى لأفتح "سبيلا" للشفقة مثلما كنت تفعلين معى.

–..إفعل ما يحافظ على تماسكك، هذا حقك.

= هذا الرجل يوزع حيرته الكبرى عليكم بالتساوى ويتفرج عليكم من أعلى.

– يجوز، فماذا عندك بدلا من ذلك.

= حافظى على نفسك المحدودة المعالم، فلن يعيش أحد بالنيابة عنك.

– هل نجحت أنت أن تعمل بنصحيتك، لماذا جئت هنا ولماذا استمررت هذه المدة؟، أليس لأنك أنهكت من المحافظة على نفسك المحدودة المعالم.

وزعت الأرزاق بالعدل
وزرعت البحر كما نبتت
أشجار الفاكهة على سفوح
جبال السحاب، كان ديوانى
مفتوح على مصراعيه لكل
الناس وكان رغم صغره يسع
الناس جميعا، لم يكن عندى
حجاب ولا وزراء ولا
مساعدين، كانت الأمور
أبسط من كل ذلك

=... كنت مخدوعا حين تصورت أن تنازلى عنها سوف يلحقنى بالذات الكبرى.

– لأنك لا تعترف بأن هناك احتمال لوجود ذات كبرى.

= تبينت أن الذات الوحيدة فى هذا الكون هى ذاتى أنا الكبرى.

– ماذا تركت لى إذن فى هذا الكون؟ بم تغرينى؟

= لكل وحدته الخاصة به، لا علاقة لها بالآخر مثل النجوم فى السماء..

– النجوم تسبح فى كون واحد وبنظام واحد فى فلك واحد.

= عبث تدعونه، عدم تحملنا مسئولية الاستقلال ترعبنا من التناثر حتى نخترع إلها مزعوما يجمعنا إلى الضياع فيه أو نحوه، كل واحد هو إله ذاته لا أكثر.

– كم مليار إله على الأرض؟

= كلهم، ما المانع؟

– منظر الآلهة وهى تتقاتل على لقمة العيش أو قطعة أرض أو خمسة تعريفة، يهلك من الضحك.

= الآلهة طول عمرها تتقاتل، الإنسان لم يصبه البله إلا حين قبل خدعة التوحيد، ألم تكن حياة آلهة الإغريق ذوى الاختصاصات الرائعة أغنى وأجمل، إله للعدل، وإله للجمال، وإله للحب، وحتى الشر كان عظيما وله إله رائع، ثم جاء الهرب الشمولى إلى شئ ليس كمثله شئ، ثم يأتى صاحبك هذا يسميه الصحة ويصلى له بهذه الطقوس العلاجية، أسماء جديدة لغباء قديم،

– نحن لا نملك إلا السعى والمحاولة.

= هل هذا كلام يا نجوى؟ ، هل هذه عيادة أو نوع جديد من المخدرات؟

– الوعى يزداد والإحساس يستيقظ.

= ثم يتلاشى الجميع فى الجميع، وصاحبك يظل هو اليقظ الأوحد، يتحكم فى أسلاك لعبة الإحساس الموجه لتحريك الجميع نحوه بمنتهى الحرية، حريته هو، ولا مانع أن يسمى ذلك إيمانا أو صحة أو ما شئت،

حين استتبت الأحوال أحسست أنه لا معنى لسلطانى ولا حتى لوجودى، قررت أن أتنازل عن كل شئ لكننى لم أجد أحدا يصلح له إلا الله، وهو غير موجود

تراجعت حتى لا يفسد الناس من بعدى وقررت ألا أتنازل عن مملكتى حتى أجده ليتولاها بمعرفته ما دام يدعى أنه خلقها، وهو لم يأت ليتسلمها حتى الآن

– ليس بالضبط، التوجه الضام إلينا لا يمحونا، يمكن أن تسميه الإيمان إذا شئت، وهو ماينساب إلى الجميع فيجمعهم دون استئذان، ويفرقهم دون ضياع.

= تعتبرين تلاشى الكل فى الكل إيمانا.

– إفهمها كما تشاء.

=..... خبرتى مرعبة.

– لم تكملها.

=... لن أتشوه بإرادتى.

– كفرك بكل شئ إلا نفسك، يبعدك عن أى احتمال آخر، وعن نفسك.

=....

–....

= كيف أراك خارج المجموعة بعد انقطاعى.

– ربنا يسهل،

= أحب أن أتتبع ما يجرى، لم أتخلص من حب استطلاعى تماما، ولكنى لم أعد أحتمل المخاطرة.

– لا أستطيع خداعك بوعد لا أضمن الوفاء به.

= أنا أستطيع أن أحمى نفسى بنفسى.

–..... هذا صحيح ..... غالبا.

= ما أسخف كل شئ.

****

كل ما أتمناه هذه الأيام هو أن أنجح فى إقناعى بفقد الأمل، أنا يائس مثل البداية وأكثر، هذا الذى يطل على من الداخل وبلا مناسبة يشبه ما يسمونه الأمل، بضاعة لا أعرفها، كلما عاودنى هذا الهاتف بالرغم منى تذكرت مسخرة ذلك اليوم، حتى تقفز إلى عقلى فكرة الانتحار، لم أعد أطيق أى شئ يوحى إلى بالأمل أو يدعونى إلى الحياة، حتى زيارات صفية أصبحت عبئا ثقيلا يواجهنى

حين كنت أنزل إلى العالم الأدنى لم أكن أعرف المشى ولا الحديث باللغة السائدة، ومع ذلك كنت أواصل السعى لأرجع مثخنا بالجراح إثر الوقوع واللطمات

مجرد وجود هذا الكم الهائل من الكتب هو دليل على فشل البشر فى الوصول إلى شئ ذى بال، لو كانوا وجدوه ما كتبوه

بعجزى أكثر، أفكر فى التخلص منها بأية وسيلة، يخطر على بالى أن أواجهها مباشرة، أرفض شعورها بالواجب وأمقت تصورها حبها لى، أفكر فى مختار، هل أنا أنتقم من إصرارها على ملاحقتى، أو مساعدتى، أو حتى حبى، ينقبض قلبى كلما أحسست أنى ألعب معها لعبة خبيثة لا أعرف حقيقة أبعادها.

هذا السؤال الذى يحيرنى بين أن أعيش أو أموت هو الذى يدفعنى إلى قطع كل صلة يمكن أن تربطنى بالحياة، لماذا لصق هذا السؤال بالذات فى خلايا عقلى من بين كل ما شاهدت عندهم من قمامة؟ زارنى عبد السلام ليدعونى ثانية إلى معاودة الحضور ولكنى راوغته وحاولت أن أحطم كل آماله حتى يحل عنى، هو شخص عنيد يخدع نفسه وتخدعه زوجته، ما لى أنا به، بهما؟ هو السبب، قبل دعوته الأولى كنت متمتعا بأنى لا أعيش ولا أموت كنت قد اكتفيت بأن أكون ناعى الحياة الصادق أمزج الموت بالحياة سرا، أتحدث عن الموت وكأنى أعيش، وأقرأ عن الحياة وأنا ميت، لا يتلاقى الضدان إلا تحت التراب، متى يحين ذلك.

فى آخر الزمان تلوح لى من جديد بمملكة العدل والأمان على الأرض الخراب هذه، لقد كنت مستعدا للهجرة إليها فى سابع سماء

أصبحت القراءة عبئا جديدا، الكلمات تتحدانى شخصيا، لم أعد أستطيع أن أحتفظ بمسافة كافية بينى وبينها، ألفاظ كثيرة تنبض بما تحوى فتحرك شيئا بداخلى يريد أن يلزمنى به، كأنى مسئول عنه، عن تحقيقه، عن اختبار إمكانيته، أى مصيبة حلت بى، لم أعد أستطيع الاكتفاء بهذه النشوة الصومعية، أصبح للكلمة لسان تخرجه لى، حواجبها تتلاعب أمامى وتتحدانى، الحروف أسنة للكلمات تشكنى مثل الدبابيس فى مقلة وعيى.

مصيبة وحلت بى، لا أستطيع نسيانها وإن كنت نجحت فى أن أخفى آثارها، أواجه مصيرى وحدى.

لا....

لن أنتحر.

و.... و....و..

ولن أعيش.

لم يكن عندى مانع أن أصحب البلهاء من المتدينين وهم يحلمون بها فى الآخرة وسط أغلفة المجهول فى مكان ما بالكون السرى الغامض بعد الموت

الإثنين 25-06-2018

العدد: 3950 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثالث "نجوى شعبان" رواية "مدرسة العراة"

أنا أعلم حقيقة اليأس أكثر منه عشر مرات، أنا خضت التجارب لحما ودما، هو قرأها فى صومعته

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل الثالث

(رواية "مدرسة العراة")

الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط"صورة نجوى شعبان مدرسة "نجوى شعبان"

كل شئ يقول إنه مستحيل، أنا لا أملك إلا أن أواصل فى اتجاهه، كلام غريب الأناضولى ينفذ إلى عظامى، غبى مسكين، أنا مثله.

أشفق عليه فى حماسه ومحاولته إقناعى وكأنى أعترض على آرائه، أنا أعلم حقيقة اليأس أكثر منه عشر مرات، أنا خضت التجارب لحما ودما، هو قرأها فى صومعته، اليأس والفشل هما قانوننا الأعظم، حطمت كل شئ لأفضح الواقع، وقررت أن أحاول المستحيل، غريب يثير فىّ رغبة فى الاقتراب منه، ربما لتحديه.

أقول له أحيانا إن إعلان بؤس العالم لا يبرر التسليم له، زوجى ليس له ذنب فيما أحمل فى أعماقى من نار أتصور أنها مقدسة، كثيرا ما قدرت أنها نار جهنم، هى أيضا مقدسة لأنها من عند الله، أراد زوجى أن تدفئه نارى تلك فأحرقته وانهار البيت بلا إنذار، تركت ابنتى الوحيدة معه بين الأنقاض، هو أولى بها، يرحمها من جريى وراء المطلق المجهول، أغرقت كل مراكبى قبل أن أطرق هذا الباب، لم يعد لى خيار تركت بيتى، وبترت أمومتى، وذهبت أبحث عن أصل وجودى لأعرف على أى أساس أبنى علاقاتى بعد ذلك، أحس أن هذا الطبيب يحبس عنا أشياء يجب أن يقولها.

اليأس والفشل هما قانوننا الأعظم، حطمت كل شئ لأفضح الواقع، وقررت أن أحاول المستحيل

هو لم يشترك فى قرارى ولكنه يلوّح بإمكانية ركوب البراق، هو مسئول رضى أم لم يرض، سوف ألاحقه مهما هرب وراء أصول الصنعة أو سر المهنة، عليه أن يساعدنى لأحقق ما أريد مما أعرف ومالا أعرف، لو فشلت فهى نهاية العالم، كل شئ يقول "لا"، كلام غريب ويأسه وصمت عبد السلام وصورة زوجته الست فردوس العروس الحلاوة، غيبوبة كمال، وذهول عبد السميع، تفاؤل إبراهيم العجيب، وتردد الباقين، لا شئ يحاول أن يهدئ من لهيبى، كل ذلك لا يزيدنى إلا اشتعالا، لا أجد فيهم ما يثنينى عن عزمى إذ يؤكد لى أن المستحيل هو مستحيل فعلا، هكذا أجد مبررا لإثبات العكس، تشتعل نارى أكثر، وحتى حين أنجح فى أن أهملها أو أتلهى عنها فإنها تندلع فى أحلامى فتكاد تحرق كل شئ.

= لماذا أنت صامت يا عبد السلام معظم الوقت مع أنى أشعر بشئ يجمعنا.

– أنت تعلمين أنى معك.

= أنت بعيد عنى.

– حملُكِ ثقيل ولا أريد أن أخدعك بتهوين الأمر.

= لم أطلب منك أن تهون لى الأمر أو أن تحمله عنى أو حتى معى.

– أعرف ذلك ولكنى أتساءل إلى متى تصبرين عليه وعليهم، طاقة البشر محدودة، وأخشى أن تنكسرى وحدك، حتى أمومتك ضحَّيت بها من أجل شئ لا معالم له.

= لن أنكسر أبدا، أنا أعرف نفسى، أنا لم تتحدد معالمى أبدا حتى أخشى عليها من الكسر.

– أنت تزوجت، وأنجبت، وطلقت، وها أنت تسبحين عكس اتجاه التيار.

= عملتها جميعا بنفس الشجاعة دون ندم.

– لا أعتقد.

= معك حق، ندمى سيكون أكبر لو لم أكمل طريقى.

– هذا طريق ليس له نهاية.

= أعرف ذلك.

– هل تريدين منى شيئا محددا؟

= نعم.

– قولى مباشرة ماذا عندك؟

= فردوس.

– مالها؟

= لم أرتح لها أبدا، لافى الأول وهى كالبلهاء المذعورة، ولا الآن وهى كالطير العاجز المنتشى بوهم الطيران، فى حين أن قدماه تغوصان فى الطين، وهو فى غاية السعادة.

– أعرف..... المسألة أصعب من كل تصور.

= أخشى أن تيأس معها، فأحس بالوحده أكثر.

– لست هنا لأيأس، لا معها، ولا بدونها.

= اليأس يتربص بنا عند كل منحنى من الضعف أو المراجعة، وللعمر اعتباره.

حين أحسست بحريتى، أطلقت لمشاعرى العنان فانطلق حبى الملتهب يغلف كل علاقة لى حتى بالجماد والموتى

أنا لم أحرق مراكبى وأهدم بيتى لأسلّم روحى لآخر، حتى ولو كان هذا الآخر هو النبى الجديد

– أنت إنسانة عظيمة.

=... لا تكن غبيا كالآخرين.

– معك حق.

– 1 –

حين أحسست بحريتى، أطلقت لمشاعرى العنان فانطلق حبى الملتهب يغلف كل علاقة لى حتى بالجماد والموتى، لابد أن أعترف أن شيخنا هذا شئ آخر، أحيانا يبدو لى أنه أبسط من كل تصور، وأحيانا يبدو بعيدا غريبا لا تكاد ترى معالمه، أحيانا يبارك عواطف الضعف حتى أحسب أنه حمامة تضع الحب لصغارها، وأشك فى إمكان تحقيق أى شئ، ولكنه لا يلبث أن يثور كالنمر الهائج وكأن شعلة جنونه تصارع كل شرور تاريخ البشرية جمعيا، بل وحاضرها الساحق، ومستقبلها المظلم فى وقت واحد، أية مهنة هذه التى تفرض على صاحبها صراع الدينصور وركوب البراق فى آن واحد، أقسم أنه يحتاجها لكيانه الشخصى وأنه فى أشد الحاجة لكل هذا الإصرار والتحدى، ربما هذا هو الذى يحافظ على استمراره، أنا أحترمه وأحبه، أحس به بالرغم منه، يحاول أن يخفى شقاءه وراء صياحه وأن يغلف صناعته بتقديس المطلق والحديث عن إيمان جديد قديم، وهو لا يطلب إلا الأمان فى أبسط صورة، أخاف من سلطانه رغم يقينى بأن مبالغتى فى استقبال جبروته هى منى أنا، أحس أحيانا أنى لو سهوت عن نفسى لوجدت روحى ملقاة بين يديه، لا أدرى كيف أستطيع أن أسترجعها منه.

أنا لم أحرق مراكبى وأهدم بيتى لأسلّم روحى لآخر، حتى ولو كان هذا الآخر هو النبى الجديد، لو رضيت بالتسليم لكانت ابنتى وأبيها أولى بى، أعذر غريب الأناضولى وهو لا يكف عن هجومه عليه ووصفه بأبشع الصفات، أتعجب لماذا يصر غريب هذا على الحضور، أتمنى أن يستمر فى الحضور، وجوده يطمئننى، أنا فى حاجة لأن أسمع رفضه باستمرار حتى لا أنسى، متى أستطيع أن أمسك خيوطى دون التماس العون من أحد؟ إبراهيم الطيب، هذا الفلاح

أريد أن أعرفه عنه أكثر، أريد أن أخترق صفاءه لأرى بحره حين يثور، أريد أن أغوص فى أمواجه ثم أغوص فى أعماقه، ثم قد أعلن مثله أن الدنيا بخير، أو أنه أكبر أبله فى العالم

الحلو..الدنيا بخير، ماشى، تحمل يا إبراهيم مشعلك المتواضع، مثل اللمبة ذات الشريط العارى التى لا يطفئها الريح أبدا..

= ألا يساورك الشك يا إبراهيم فى أن الدنيا بخير.

– يساورنى.

= وماذا تفعل؟

– أتأكد أن الدنيا بخير.

= ألم يحدِّثك غريب؟

–.... حاوَل.

= وماذا فعلت؟

–... لم أجد ما أقوله، كانت مرارة حديثة أصدق وأقسى من أن يخففها فيضان النيل قبل السد، لكنه كف منذ يوم الحادثة، كاد يُؤمن، ثم ملكه رعب شياطين الأرض والسماء.

= عاد أسوأ من الأول.

– خاف حلاوة الإيمان، لا شئ يقضى على الأمل إلا تحقيقه.

= كلامك يجعلنى لا أتعجل تحقيق المستحيل.

– ألفاظك ضخمة، تبعث الشك فى حقيقتها.

= أليس مستحيلا يا إبراهيم؟

– نعم... ولا، حسب موقفك وما تريدين.

= أريد أن أجعله ممكنا، ولهذا أحضر بانتظام.

– ليس كافيا، غريب ذاته مازال يحضر بانتظام.

= أنا لست "غريبا" يا إبراهيم، وأنت تعلم ذلك.

– أعتقد أنه سيتوقف قريبا، لا قوة فى الأرض تستطيع أن ترغمه على الحضور.

= ولا فى السماء؟

حاولت أن أثنيه من طرفه خفى، ولكنه كان يواصل كفاحه الغبى دون توقف، غرباء هؤلاء الناس

– إلا أن يفقد توازنه دون أن يفقد توازنه.

= ما أبشع رؤيتك، حكمتك، تخيفنى.

–.... قوانين الواقع هى زاد المعاد.

= تصر أن الدنيا بخير.

– ولم لا؟

= ألا تشعر أنك تهرب بهذا التفاؤل الغبى.

– هذا ما يبدو لى أحيانا، أنا لست متفائلا يا نجوى.

= إسمع، لا تربكنى، أنت تعلم أنى أهوى الحيرة، تعفينى من مسئولية التحديد.

– هذه مصيبتك.

= ردك سريع وجاهز، ومع ذلك هو محيّر أيضا.

– إسمعى يا نجوى، لا تغترى بشجاعتك وتذكرى دائما أنك تسيرين على الأرض، كل ما عدا ذلك هو الهرب بعينه.

= تسمى تحدياتى هربا، وتفاؤلك ليس هربا.

– قلت لك لست متفائلا بالمعنى الشائع، لكننى مُصرٌّ

= الجميع يطمئنون إليك لأنك متفائل، حتى غريب لم يسمح لأحد أن يلْمَلِمْه ذلك اليوم إلا أنت.

– كانت بضعة ثوان، ولكنه لم يهدأ إلا حين أحطنا بهما جميعا.

= هذا صحيح، ما رأيك فى الدكتور؟

– له شطحاته، أشعر كثيرا أن وحدته أقسى من أى واحد فينا.

=أحيانا أحتار مَنْ الذى يعالج الآخر: أنت أم هو.

– هو طبعا.

= بذمتك؟ ألا يكلفك سرا ببعض مهامه؟ يدهشنى منظرك وأنت تدفع الأتعاب كل مرة للممرض مثلنا.

يبدو أن الرجال صنفان لا ثالث لهما: واحد طيب خارق فى حسن النية متلهف إلى أمومة سرية، والآخر غبى لا يرى إلا ذاته الذكرية اللامعة يباهى بها فى سذاجة

– فضله علىّ لا يمكن إنكاره.

= تبدو أكثر تماسكا منه.

– هو الرائد.... ولابد من احترام شقائه، وألمه،و وحدته.

= أنا أحبه يا إبراهيم، أحيانا أشعر أننى تخطيت حدود ما تسمح به العلاقة المهنية.

إن الله لم يخلقنا لنتراجع عن إنسانيتنا عند أوَل تهديد بالوحدة أو بالهجر

– أعرف ذلك، لا حظته، ولم أرفض، ولم أنزعج.

= ماذا أفعل؟

– تعرفين الطريق.

= ليس تماما.

– سوف تعرفينه.

يتركنى إبراهيم فى كل مرة أحادثه فيها وأنا فى جو من الأمان يرعبنى، كيف يمكن أن يكون هذا الإنسان هكذا، أريد أن أعرف عنه أكثر، أريد أن أخترق صفاءه لأرى بحره حين يثور، أريد أن أعوم فى أمواجه ثم أغوص فى أعماقه، ثم قد أعلن مثله أن الدنيا بخير، أو أنه أكبر أبله فى العالم.

لو أنى سمحت لأحد بالاقتراب فليس أمامى إلا تكرار الخيبة، أتمتع الآن بالعلاقات على مسافة

****

حين أرجع من هناك، أواجه عالمى الأوسع فى البيت أو فى العمل، أحس أنى أختنق، يعتبرونى فى العمل بائسة أستحق الشفقة بعد طلاقى وحرمانى من ابنتى، ويتهامسون أحيانا وكأنهم يشكّون فى عقلى، لا أعدم محاولات اقتراب مشبوهة بوصفى مطلقة حسناء، حاول أحد الوجهاء يوما أن يأخذ منى ميعادا خاصا وقبلت لتوى دون أن أعرف سببا واضحا لهذا السخف، كدت أتراجع بعدها ولكنى أصررت على أن أختبر قدرتى على الرؤية بعيدا عن جوهم الصناعى، رجل فى منتصف العمر، شديد العناية بالتفاصيل من أول ربطة عنقه حتى لمسات أصابعه وهو يبادلنى التحية، لاأنكر أن شيئا فىّ انجذب إليه، زاد

تصميمى على الذهاب حتى أتعرف على ذلك الشئ الذى مازال مختفيا بين طيات نفسى، اكتشفت بلا دهشة أن هذا عالم تَرَكَتْهُ من زمن، ولا أمل فى الرجوع إليه، كنت أتتبع حركاته ومحاولاته للتظرف – رغم أنه كان يبدو ظريفا فى بعض الأحيان، رحت أتعجب من عماه وبلهه، حاولت أن أثنيه من طرف خفى، ولكنه كان يواصل كفاحه الغبى دون توقف، غرباء هؤلاء الناس، حتى زوجى الطيب كان أكثر إحساسا بحقيقة الإنسان وبعض داخله من هذا الأعمى، إذا كانت هذه هى العلاقات المتاحة فلابد من تحقيق المستحيل، يبدو أن الرجال صنفان لا ثالث لهما: واحد طيب غارق فى حسن النية متلهف إلى أمومة سرية، والآخر غبى لا يرى إلا ذاته الذكرية اللامعة يباهى بها فى سذاجة، هذه هى الاختبارات المطروحة يا إبراهيم فما قولك فى حتمية المستحيل؟ إياك أن تقول لى بعد ذلك سيرى على الأرض، ليس على أرضكم سوى ذكر الطاوس أو ذكر النعام، إن الله لم يخلقنا لنتراجع عن إنسانيتنا عند أَوَل تهديد بالوحدة أو بالهجر، حتى أنت تخيفنى أكثر من أى آخر، أكثر من الطبيب نفسه، أخشى أن تتكشف عن إنسان مخدوع لا يعرف ما يقول، سوف أخوض المعركة وحدى حتى أتحدى يأس غريب وتفاؤلك معا، أنا مع غريب أكتفى بأن ألقى فى وجهه – بصدق ما – كلمات الحب بين الحين والحين لأتمتع فى خبث سافل بخلجات وجهه المرتعدة تترجم عن رعبه المروع، أخشى أن يخطئ مرة فيقبل أحد عروض ودى فجأة، ساعتها سوف ينتقل الرعب إلىّ، لو أنى سمحت لأحد بالاقتراب فليس أمامى إلا تكرار الخيبة، أتمتع الآن بالعلاقات على مسافة، ما زالت جروحى تدمى ويعاودنى الندم على ما فعلته فى زوجى الطيب وابنتى الطاهرة، أين أنت يا حبيبتى، أخشى الانتقام من فعلتى وأحاول أن أكفر عن ذنبى بالاقتراب من بسمة وكأنها أنتِ، هل أستطيع أن أساعدها؟،

= لماذا كل هذا الحزن يا بسمة؟

– لست حزينة، رأيت أكثر من احتمالى،

قولى عنى ما شئت الآن ولكنى لن أكف عن الصراع من أجلك، ومن أجل بسمة، ومن أجل كل البنات الزهور حتى لا تذبل قبل أن تتفتح

= أنت رقيقة، لماذا سبقتِ سنك الغض، هلا اكتفيت بذلك ومضيت تسعدين بشبابك.

– لا تقولى ذلك وأنت خير من يعلم أنه كذب.

= أشفق عليك بصدق.

– لن أكرر مأساتك أو مأساة فردوس هانم، أنت لا تعرفين أن ما هربت منه هو البضاعة الحاضرة فى سوق العلاقات.

= هذا كلام عجوز يا حبيبتى.

– وغير ذلك كذب لا يقنع حتى الأطفال.

= الحكمة قبل أوانها تفقد الحياة بهجتها.

– لا حكمة فى تسمية الأشياء بأسمائها.

= وسهر الليالى، وسحر الخداع، ونبض الحنان؟

– لا شئ يجمِّل الكذب إلا كذبٌ أنعم.

= "بدري" عليك يا حبيبتى.

– لا مجال لمراعاة فروق التوقيت.

.....

هل يا ترى يا ابنتى حين تكبرين سوف ترين ما رأته بسمة هكذا مبكرا، هل سوف تكونين وحدك أم سوف تجدينى بجوارك لو نجحت فى تحقيق هذا المستحيل، ساعتها أستطيع أن أخفف عنك، ربما، سوف أنقذك من الاستسلام الميت، ومن اليأس المر، ومن الخداع الأعمى، تركتك وتركت أباك من أجلك، حين أكمل الطريق سألقاك، أنا أنتظرك، سوف تحضرين إلىّ وحدك، أنا واثقة أن بك شعلة من وجودى، أو حتى شعرة من جنونى، لن تتحملى المضى بها طويلا تحت الرماد، قولى عنى ما شئت الآن ولكنى لن أكف عن الصراع من أجلك، ومن أجل بسمة، ومن أجل كل البنات الزهور حتى لا تذبل قبل أن تتفتح.

ماذا يريد منى هذا الجائع، عيناه فيهما سحر غامض ينفذ إلى خلايا الأنثوية دون استئذان

......

– أريد أن أحدثك فى كلمتين يا نجوى.

= خيرا يا فردوس.

– لا، على انفراد.

= سر يعنى؟

– تقريبا، أخشى أن تردِّينى خائبة.

= ما هذا يا فردوس؟

– خرج الآخرون وأستطيع أن أقول لك الآن.

= خيرا.

– أنت جميلة كالقمر.

= شكرا، ولكننا نتعلم هنا أشياء أخرى.

– وأعرف أنك معجبة بجمالك.

= ليس تماما.

– أنا أعرف أننا هنا، نتطور أليس كذلك؟،

= نتـ... ماذا؟

– نتطور، أى نصبح أحرارا، أليس كذلك؟

= تنطقين بهذه الألفاظ الرنانة يا فردوس وكأنك تتحدثين عن المقادير اللازمة لطبق اليوم.

– لماذا لا تصدقونى وأنا فى غاية السعادة بفضل علاجكم، وإصرار زوجى على إحيائى.

= ماذا تقولين يا فردوس بالله عليك؟ ما هذا الكلام؟

– يُخرج الحى من الميت.

= هل تدركين معنى ذلك يا فردوس.

– هو الذى يقول، وأنا أحفظ وأردد، هذا أكثر راحة، استسلمت.

مختار شىء آخر: ذكر فحلٌ، ينادينى وكأنه يكتشفنى، أو لعله يدعونى لاكتشاف الطبقات الأخرى من أنوثتى

= أنت تظلمين نفسك.

– كنت زمانا كذلك، كم ضيعت وقتى فى المطبخ ومع العيال، أما الآن بعد مسألة التطور هذه، لم أعد أظلم نفسى، ولا غيرى، إسأليه حتى، الفضل يرجع له، عبد السلام يجعلنى أضئ فى الظلام مثل الساعات الفسفورية.

= قلبى يتقطع عليك، وأخشى أن أصدمك،

– لا تكونى مثله، ماذا تريدون أكثر من ذلك،

= عبد السلام يحبك لو أنه يرفض هذا السهل الجاهز.

– سهل ماذا؟ وجاهز أين؟ أنتم تحبون الكلام، بينى وبينك، يبدو أنه يفرح بتطورى فى الليل، ويرفضه فى النهار.

= أخشى ذلك.

– ولم تخشينه؟ كله مصلحة.

= وأنتِ؟

– أنا مالى؟ كفى الله الشر.

= فى رأيى أنك كنت أفضل قبل هذا التحول المفاجئ، كنت أحس بترددك وحيرتك ورفضك، كانت عيناك لا تغيبان عن بسمة فى أمومة محيطة،

– لا داعى للهم والفكر، ما دام الدكتور وعبد السلام يعرفان الطريق، فسوف يساعدان بسمة كما ساعدانى حتى ينقلب كيانها، وتنسى الهم إلى الأبد.

=....

– أَخَذَنَا الكلام يا نجوى، أنت حلوة كالقمر، وخسارة شبابك فى كل هذا الفكر.

= ماذا تريدين قوله؟

– زوجك الأول قليل البخت ولم يعرف كيف يحافظ عليك.

=كان رجلا طيبا ولا لوم عليه، الذنب ذنبى.

قمت فزعة من نومى أمس حين حلمت به يسبح معى عاريا فى حمام سباحة سرى يقع فى بدروم مسجد أثرى، كيف أتحدث عن الصدق والشجاعة وأنا لا أسيطر على أحلامى ولا أتصالح مع بقية ذاتى

– عندى عريس.

=..... نعم؟ نعم؟

– عريس كله شباب وصحة، وحالته مستورة وقد حدثته عنك كثيرا، ماذا قلت؟،

= فردوس.... يبدو أنك لست معنا أصلا، فردوس، حاولى أن تفهمى ما يجرى.

– حاولت فى الأول حتى تعبت، ثم سلَّمت أمرى.

= سلمته لمن

– سلمتِهِ لكم ولعبد السلام.

= ربما هذا هو سبب ما أنت فيه الآن.

– أنا فى ماذا؟

= أبدا، ولكن لا بد أن تعيدى النظر.

– أنا أفكر كما تريدون، لا تنسَ أنى أحمل ليسانسا فى التاريخ، أنا لست جاهلة.

= ياليتك تستعملين فكرك بضع دقائق بطريقة أخرى.

– أنا مستعدة، قولى لى أفكر فى ماذا، لماذا؟

= فى الناس، فىّ، فى سبب طلاقى.

– أنت أدرى بهذا كله، قولى لى إذا شئت لِمَ طُلِّقت؟

= لأبحث عن المستحيل.

– اسم الله عليك وعلى حواليك، لقد حفظت هنا كلمات كثيرة مثل التطور والحرية، وها أنت تضيفين إلى القاموس كلمة أصعب، ما هى حكاية المستحيل هذه؟

= أن نعيش كما خلقنا الله.

– اسم النبى حارسك وضامنك، أنت امرأة مثلى وشبابك خسارة، دعى هذا الكلام الصعب للرجال.

المسألة ليست مسألة تحد، أنت تضعين حدودا لحريتك، والحرية الحقيقية ليس لها حدود، أنا فى انتظارك بلا خوف ولا شروط

= فردوس.

– نعم.

= الله يسامحك.

– 2 –

عينا مختار لطفى لا تتركانى فى حالى، ماذا يريد منى هذا الجائع، عيناه فيهما سحر غامض ينفذ إلى خلايا الأنثوية دون استئذان، ليس فيه زيف ذلك الوجيه المتأنق ولا وضوح ابراهيم المزعج، ولا يأس غريب الأسود، نظراته وقحه عارية تصل دون أن يغلفها بأية محاولة أخرى، مع غريب أجد لذة فى التحدى والعناد، مع إبراهيم أحس بالطمأنينه والأمان وحنان حذر، مختار شئ آخر: ذكر فحلٌ، يناديني وكأنه يكتشفنى، أو لعله يدعونى لاكتشاف الطبقات الأخرى من أنوثتى، أتجنب التفكير فيه معظم الوقت حتى لا أجد نفسى أتجول فى بستان حلم وردى لا يكفى لتبرير تحطيم بيتى وإغراق كل مراكبى، ينجح فكرى طول الوقت فى السيطرة على الإثارة التى تسببها لى نظراته، أحيانا لا أجد مبررا لمقاومته، قد يكون هذا كله عبث فى عبث ولكنه جزء من لعبة الحرية التى أريد أن أكملها للنهاية، أنا أسعى لتحقيق المستحيل، ولن أعرف طريقى إليه إلا إذا طرقت كل باب، قانونى مسئوليتى الشخصية، قمت فزعة من نومى أمس حين حلمت به يسبح معى عاريا فى حمام سباحة سرى يقع فى بدروم مسجد أثرى، كيف أتحدث عن الصدق والشجاعة وأنا لا أسيطر على أحلامى ولا أتصالح مع بقية ذاتى، واجهته فجأة وكأننا نكمل حديثا بدأ منذ زمن.

= نعم يا مختار.

– نعم يا نجوى.

= عيناك تريدان أن تقولا شيئا باستمرار.

– صحيح.

= لماذا لا تقولها مباشرة؟

الحرية عندى هى الوجود ذاته، الوجود قبل ودون أى شروط أو تفكير، هى حرية قانون الخلية الحية الأعظم من كل قيمة

– لأنك تعرفينها مادمتِ قد أحسَسْت بها.

= دعنا من الألغاز، أنا أدفع عقلى ثمنا للمعرفة.

– كلامك كبير والحكاية أبسط من كل هذا.

= حين أترك بيتى وابنتى فلابد أن تكون الحكاية أكبر من كل تصور، أنت لا تفهم معنى البيت والأمومة.

– هذا اختيارك فماذا تريدين بعد؟

= أن اخترق المجهول.

– أنت شجاعة، ولكنك لست حرة.

= لا تتحدانى وإلا ندمت.

– المسألة ليست مسألة تحد، أنت تضعين حدودا لحريتك، والحرية الحقيقية ليس لها حدود، أنا فى انتظارك بلا خوف ولا شروط.

= الخوف الصادق جزء من لعبة الشجاعة.

– ستظلين سجينة خوفك بقية حياتك.

= ماذا تريد منى.

– أن تكونى حرة.

= ماذا تقصد؟

– الحرية عندى هى الوجود ذاته، الوجود قبل ودون أى شروط أو تفكير، هى حرية قانون الخلية الحية الأعظم من كل قيمة.

= سمعت أن الخوف هو من قوانين الخلية الحية أيضا.

– أنا لا أفرض آرائى على أحد، تعرفين احتياجك، وسأظل فى انتظارك.

أحيانا أحس أنه أقرب إلىّ من نفسى، ابتسامته الوديعة ونظراته النافذة تقول لى تصبحين على خير قبل أن أنام، وفى أحيان أخرى استطيع أن اقسم أنه لا يعرف اسمى، هو لا يخصنى بهذه النظرات بل يوزعها بالعدل على كل أنثى من

حيوانات أعقد، لكننا جزء من الطبيعة لا أكثر ولا أقل، وما شقاؤنا وضياعنا إلا لأننا خاصمنا الطبيعة بغباء، لا سبيل للتوافق إلا إذا رجعنا إليها بلا تباطؤ

أول مساعدة الطبيب حتى ملكة مناع، الفائدة التى يمكن أن أحصل عليها هى ألا أتراجع مهما تكون النتائج.

تمضى الأيام ولا أستطيع أن أتخلص من تفكيرى فيه.

– 3 –

= الا يعنى ذلك نكسة إلى الحيوانية يا مختار؟

– الحيوان كائن متناغم مع نفسه، يعيش فى حالة وجدٍ كامل دون انشقاق أو ادعاء،..الانسان هو الذى تدهور حين انقسم على نفسه.

= كلامك كبير.... وتتهمنى بالتفكير المعقد.

– هذا إحساسى الكامل بلا تفكير.

= أجد صدَى لما تقول، صدى يثيرنى ويغرينى بالمخاطرة،

– ليست مخاطرة ولكنها عودة للوجد التلقائى، أين الخطر.

= الخطر خطر.

– هذا الخطر من صنعنا نحن، هو يعوق تكامل وجودنا ويحد من انطلاقنا.

= انطلاقنا إلى أين؟

– إلى جنة الحيوان فى توافقه مع ذاته تماما.

= نحن بشر.

– حيوانات أعقد، لكننا جزء من الطبيعة لا أكثر ولا أقل، وما شقاؤنا وضياعنا إلا لأننا خاصمنا الطبيعة بغباء، لا سبيل للتوافق إلا إذا رجعنا إليها بلا تباطؤ.

= أخاف من كلمة الرجوع.

– إذا اكتشفنا خطأ الطريق فلابد من الرجوع.

= الحيوان ليس مثلى الأعلى.

– الحيوان أكثر توافقا وصدقا.

= الحيوانات تأكل بعضها بعضا.

الحيوانات تأكل بعضها بعضا.

– الحيوانات لا تفعل ذلك إلا إذا جاعت، أما الإنسان الكذاب فهو يغلف هذه الجريمة بالمبادئ ويمارسها لمجرد الجشع والسيطرة والاستغلال

– الحيوانات لا تفعل ذلك إلا إذا جاعت، أما الإنسان الكذاب فهو يغلف هذه الجريمة بالمبادئ ويمارسها لمجرد الجشع والسيطرة والاستغلال.

= عندك تفسير لكل شئ يا مختار، رؤيتك كاملة الوضوح، فلماذا أنت هنا؟

– لا أسأل نفسى لماذا إلا نادرا، أنا أفعل ما أحس أنى أريد أن أفعله فحسب، أنا لا أعرف لماذا أنا هنا، وجدت نفسى هنا، قلت أكمل، حتى لم أسأل: أكْمِلَ ماذا؟

= أنا خائفة.

– بل أنت شجاعة ولا أحسبك تركت الزواج وضحيت بالأمومة إلا لاسترداد حريتك.

= أحيانا أحس بالندم وأفكر فى الاحتماء بأول رجل يطرق بابى، أستظل بظله من جديد.

– لا أعتقد أنك تستطيعين أن تربطى مصيرك بواحد فقط مرة ثانية.

= يعنى، ولكن...

– لو أنك من أهل "لكن" لما هدمت بيتك من أجل حريتك.

=.... هل أنت حر يا مختار؟

–.... تماما....

= تماما؟!! تماما..؟!.

– بلا أى قيد.

= فلماذا أنت هنا؟

– ألم أجبك؟ طائر بلا عش، أرتشف رحيقى من كل الأزهار.

= أنت وحيد.

– لا أسعى لقتل الوحدة، ولا للتمسك بها.

= ليس لك أصدقاء.

– لى.... ولكن دون وفاء ملزم، حتى الوفاء يحد من وجودنا الحر.

اسمع، أنا لو أطلقت نفسى فسوف أكتسح العالمين، قد يتغير التاريخ، أنت تعرف أن طاقتى بلا حدود، شهيتى لا ترحم.

= أى شيطان يزين لى كلامك، تتفتح أنوثتى بلا استئذان.

– أنا واثق منك.... ومن صدقك.

= ليكن، وبعد؟

–.... حرة.... و.... وشجاعة.

****

لاقوة فى الأرض تستطيع أن توقفنى ولا أن تنسينى هذا الحديث، هل هذه هى حقيقتى فعلا؟ ماذا يفعل بى هذا الرجل؟ هل هذا هو المستحيل الذى سعيتُ إليه؟ الذى تركت الدنيا من ورائى لتحقيقه؟ هل أنطلق حقيقة إلى عمق أعماقى الحسية؟ هل أنا أنتقم من نفسى أم أمارس حريتى؟ نظرات إبراهيم لا تتركننى وكأنه يعرف كل شئ.

هل أنطلق حقيقة إلى عمق أعماقى الحسية؟ هل أنا أنتقم من نفسى أم أمارس حريتى؟

– 4 –

= إذن ما الحرية يا إبراهيم؟ فلَقْتنِى.

– هى المسئولية.

= وهل الحيوان مسئول؟

– وهل هو حر؟

= يخيل إلى أنه كذلك، أليست حريته هى حرية الخلية الحية.

– الحرية اختيار، والاختيار وعى، والوعى مسئولية، والخلية لا تعى أيا من ذلك.

= لا تبالغ فى فلسفة الأمور أنت الآخر، فأنا فى مأزق حقيقى.

– أعلم ذلك، ومختار ليس حرا على أى حال، بل لعله أبعد واحد فينا عنها.

= لم أذكر اسمه، هل تتجسس علىّ؟

– أعرف ألفاظه جيدا وخاصة حين تخرج من شفاه غيره.

= الحقيقة ليس لها صاحب.

– وأعرف قصته كذلك.

= أنا أسألك بلا لف ولا دوران.

– وقد أجبت.

= تقول مسئولية..مسئولية عن ماذا؟

– عن كل شئ: عن سعادتنا وشقائنا، وسعادة الآخرين وشقائهم.

= تُوَسِّع الدائرة..... حتى تضيّق على الحرية فى النهاية.

– إما الحرية لتخدم كل ذلك، وإما الكذب والتبرير.

= البساطة فى الانطلاق بلا قيود ولا قيم من الخارج.

– ما عليكِ إلا أن تجربى.

= هل جننت..؟ أنت لا تعرفنى.

– النصح لا يفيد فى مثل هذه الظروف، لن تربيك إلا التجربة.

= اسمع، أنا لو أطلقت نفسى فسوف أكتسح العالمين، قد يتغير التاريخ، أنت تعرف أن طاقتى بلا حدود، شهيتى لا ترحم.

– أعرفها، وأخاف منها، ولكنى أعرف أنها ليست هى الحرية، ربما تكون عكسها.

= هلا راجعت نفسك يا إبراهيم؟ ربما كنت مكبوتا خائفا طول عمرك، ربما كان هذا هو مصدر حِكْمَتك وسر صبرك وتفسير شقائك الذى لا يعرفه أحد.

– ربما يكون شقائى هو حريتى.

= أنا لا أعيّرك يا إبراهيم، لا تكن حساسا هكذا، ولكنك تقيد فكرى حين تخطر ببالى، كلما هممت بالانطلاق أو تجرأت على علاقة ما: تذكَّرتُك، صورتُك وصوتُك، صبرك وشقاؤك، كل ذلك يذكرنى بجانب الحياة الذى أتمنى لو نسيتُه إلى الأبد.

– هذا ليس ذنبى.

=... تأثيرك سئ على حريتى،

– لن أتصنع الانطلاق من أجل مساعدتك على إشباع حيوانيتك.

= حيوانيتى ليست سُبّه، هى أنا.

تأكدت أننى مجنونة، الألفاظ الرنانة التى كنت أستعملها لأخفى جنونى بدأت تتكشف على حقيقتها حين دخلت إلى الاختبار الحقيقى

المستحيل الذى كنت أحاول التماس الطريق إليه هو الشكل الجميل لخيال مجنون، كنت أسخر من كل من يتهمنى فى عقلى لمجرد أنه يرفض تصرفاتى، كنت أعتبره جاهلا لا يفهم

– ألهذا سعيتِ للطلاق؟؟

= ربما، الحيوانات لا تتزوج على أى حال.

– ليس دائما، بعضها يفعل.

=... أنا من فصيلة الطيور التى تملك كل السماوات.

– لابد من عش فى النهاية، وأزواج الحمام تهدل فى كل مكان.

= بماذا تغرينى يا إبراهيم؟ هل تلوّح لى بالرجوع إلى زوجى؟

– ليس عندى ما أقوله.

= وأنت؟ لماذا لا تتزوج؟

– أنا متزوج.

=..... نعم؟ نعم؟

– أنا متزوج.

= وأين هى؟

– مع عشيقها.... عشاقها.

= ماذا تقول يا إبراهيم!!؟

– أقول ما قلت.

= أهذا هو الذى علمك الفضيلة فرحت تبخرنا برقيتك "أن الدنيا بخير".

– لا شك أن الدنيا بخير.

= كذاب، هارب.... هارب، من منظرها بين أحضانهم.

– ربما ..! أنت حرة...

=..... رغم أنفك....

– 5 –

تأكدت أننى مجنونة، الألفاظ الرنانة التى كنت أستعملها لأخفى جنونى بدأت تتكشف على حقيقتها حين دخلت إلى الاختبار الحقيقى، النار المقدسة التى كنت

أفخر بها هى نار جهنم بلا نقصان، المستحيل الذى كنت أحاول التماس الطريق إليه هو الشكل الجميل لخيال مجنون، كنت أسخر من كل من يتهمنى فى عقلى لمجرد أنه يرفض تصرفاتى، كنت أعتبره جاهلا لا يفهم، كم تساءلت لِمَ أذهب إلى الطبيب وليس عندى أعراض؟ الآن، عرفت أن ما بى هو ألعن من كل الأعراض!! لو كنت أرى أشباحا أو أعتقد أن الناس تضع لى السم لهان الأمر علىّ وعليه، لماذا لم يقل لى الطبيب أنى مجنونة "رسمى" منذ البداية؟ هو المسئول منذ البداية، كان عليه أن يشخص حالتى ويعطينى المهدئات اللازمة فى الوقت المناسب حتى أرجع إلى زوجى وابنتى، لا أنكر أنه عرض على ذلك فى أول الأمر وأنى رفضته بإصرار، كان عليه أن يصر حتى ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة، تركنى لنفسى حتى اكتشفت مصيبتى بنفسى، ولكن بعد فوات الأوان، أين أنت الآن يا ابنتى يا حبيبتى، كيف تنامين؟ وكيف ترضعين؟ على صدر من تبكين؟

هل تقبلنى يا زوجى الطيب بعد الآن؟ بعد ما كان؟ كنت أخاف الانتقام مما فعلته بك، لم أتصور أنه سيكون بهذه البشاعة، الانتقام يأتى من داخلى، نار جنهم هى بالداخل.

هل تقبلنى يا زوجى الطيب بعد الآن؟ بعد ما كان؟ كنت أخاف الانتقام مما فعلته بك، لم أتصور أنه سيكون بهذه البشاعة، الانتقام يأتى من داخلى، نار جنهم هى بالداخل

أنا وهؤلاء الناس المخدوعين وقلوبنا التى تحجرت هى وقود هذه النار بلا نفاد، ضاق على الخناق فى كل مكان، أخى الأصغر، الذى كنت أعلمه المشى طفلاً هو هو الذى صاح بى أمس" لا حرة ولا زفت"، "انظرى ماذا صرت إليه يا غبية" لم أرد عليه، بل إنى لا أنكر أنى شعرت أننى نلت بعض ما أستحقه، لو أن ربع هذا حدث قبل ذلك لكنت انتحرت أو قتلت، بلعتها فى صمت جزاء لما اقترفت فى حق أبرياء.

أتبين الآن أن طلب المستحيل الذى يبدو براقا وكأنه الشجاعة والطموح فى أرقى صوره ما هو إلا مهرب حقير من مواجهة تحمل مسئولية حياتى اليومية، هأنذا – يا طالبى المستحيل– أنتقل من وجيه يعرض على خدماته فى كازينو

على النيل إلى مختار الذى يغرينى بالحرية لحسابه الخاص، وهو لا يكاد يعرف اسمى، إلى إبراهيم الموتور المخادع، إلى غريب المرعوب من مجرد اللمس، كل ذلك يدور فى فلك سيدنا الشيخ ناظر مدرسة تحضير الأوهام؟ هنا والآن، أى عبث، هدمت بيتى من أجله؟ وأى ضياع ينبغى أن استمر فيه؟ متى تغلق الحكومة هذه المحال التى تبيع الأوهام للعجزة والأغبياء أمثالى؟ قاع البئر سحيقة حتى لتبدو بلاقاع.

– ما العمل يا إبراهيم؟ أنا لا أسألك، أنا أعرف ما ستقوله لكنى أريد أن أسمعه منك أنت بالذات.

– ترجعين، وبأسرع ما يمكن.

= أبهذه السهولة ؟ أنا لا آكل من بيتك، سوف أرجع حين أريد.

– مازلت تتكلمين عما تريدين وما لا تريدين.

= سافل جبان..تنتقم من زوجتك فىّ.

–...الرجوع أو التراجع أفضل من الهلاك مثلها، إنك هكذا ترقصين على السلم، لا تحصلين على عنب الشام ولا بلح اليمن.

= صفقة هى؟ أنت لا تدرك ما بى من ثورة، وتنتهز هذه الفرصة لتسقط علىّ مخاوفك، وعجزك عن إكمال الطريق.

– مازلت تتحدثين عن الطريق وإكماله وأنت إلى الخلف در.

= أحسن منك يا من أحكمت رباط عينيك وتوقفت تماما تدّعى الفضيلة وتفرز الشقاء.

– أنا سأكمله يا نجوى بالرغم من كل شئ.

= وامرأتك؟

– لها عذرها، لم تر شيئا غير ماهى فيه، لكنك أنت عرفت كل شئ، وحدك، وهذا مادعانى للائتناس بك.

= لا تخدعنى..أنت تحتقرنى من البداية.

أتبين الآن أن طلب المستحيل الذى يبدو براقا وكأنه الشجاعة والطموح فى أرقى صوره ما هو إلا مهرب حقير من مواجهة تحمل مسئولية حياتى اليومية

– كانت ثورتك تخجلنى من عجزى، وكان إصرارك يزيد يقينى بالخير دون أن نتبادل كلمة، كنت دائما آنس لك من وراء ظهرك.

= كفى يا كذاب..أليس أنت الذى كنت تنصحنى منذ لحظة بما لا ترضاه لنفسك، بالرجوع بأسرع ما يمكن، يا فرحتى بائتناسك بى.

– أنا لا أنصح، أنا أقول ما أرى الآن، وكل واحد يتغير باستمرار.

= شكر الله سعيك..أنا عملتها وحدى، وسوف أتحمل مسئوليتها كاملة.

– احذرى أن يدفعك عنادك لتكرار ما كان بصورة أخرى.

= حتى لو كررتها، فمالك أنت؟

– تكرار بتكرار، زوجك وبنتك أولى بك.

= هذا ليس من شأنك.

– هو شأنى ونصف، إما الرجوع وإما المسئولية كاملة، كله إلا الضياع

= جبان، كذاب، لماذا لم تمنع زوجتك من الضياع من قبل؟

– نهايتها البشعة هى التى علمتنى ألا أتهاون فى أن اقول ما أرى، وفى الوقت المناسب.

– 6 –

ضاقت بى السبل، انطفأت حاجتى للرجال، أعلن جسدى الموت، تجمد الثلج فى أحشائى وتراكمت الأتربة على مشاعرى، مازلت أصر على الحضور بانتظام، نسينى مختار تماما وكأنه لم يعرفنى أبدا، انقطع غريب عن الحضور، طلق إبراهيم زوجته بعد أن اختفت من المنزل بضعة شهور، امرأة شجاعة، أشجع من كل هؤلاء المخدوعين، شيخنا العنيد يحصل على الإتاوة بانتظام، كان عليه أن يعلن زيفنا وخداعنا منذ البداية لنتحمل المسئولية فى كل الأحوال، أحسب أنه ينتظر أن نصنع له المعجزة التى عجز هُوَ عن أن يصنعها لنفسه، عبد السلام مازال يحاول فى إصرار، فردوس بدأت تعيد النظر على ما يبدو.

= عبد السلام.

هنا والآن، أى عبث، هدمت بيتى من أجله؟ وأى ضياع ينبغى أن استمر فيه؟ متى تغلق الحكومة هذه المحال التى تبيع الأوهام للعجزة والأغبياء أمثالى؟ قاع البئر سحيقة حتى لتبدو بلا قاع

– كنت أنتظرك يا نجوى، من زمن وأنا أتابع كل ما يجرى.

= قلت لك من الأول أن هناك شيئا يجمعنا.

– أعرف ذلك.

= أرهقتُ تماما وفشلتْ كل الحلول.

– تقتربين من بداية أخرى، لعلها أطيب.

= صبرك رائع ومزعج.

– لم أتعلمه فى يوم وليلة.

= وكيف حال فردوس، أظن أن هناك شيئا ثالثا بدأ يظهر.

– أنت تحبيننا يا نجوى، تحبين فردوس كما تحبيننا جميعا، أنت إنسانة كريمة.

= لا أظن، أريد نجاحكما لأستند إلى مستحيل ممكن.

– لم تتعلمى بعد يا نجوى.

= لولا أن زوجى تزوج لذهبت خادمة له بقيه عمرى،

– لا أحسب أنك تعنين ما تقولين.

= لاأعنيه، ولا أستطيعه، تعبت، هل يمكن أن يصبح السجن جنة مختارة؟

– كل شئ ممكن لو استسهلنا أن نختصر الطريق.

= المشى على الصراط لا يقدر عليه إلا ذو قلب سليم.

– قلوبنا سليمة ما لم نشوّهها بالعجلة أو الطمع.

= لو عرض كلب علىّ الزواج الآن لقبلت.

– جهنم شرعية، بدلا من جهنم البحث الفارغ أو الكذب أو الخداع.

= جلدى رخام صدئ، ونار جهنم لم تعد تؤثر فيه.

– هذا تشويه بلا مبرر.

= يبدو أنى سأستمر بلا أمل.

– أنت لم تبيعى نفسك، أو تكذبى عليها.

= هذه مرحلة استهلكت فعلا، أتساءل كيف تحاول مع فردوس، وباستمرار.

ضاقت بى السبل، انطفأت
حاجتى للرجال، أعلن
جسدى الموت، تجمد الثلج
فى أحشائى وتراكمت
الأتربة على مشاعرى

– وستحاولين أنت أيضا، ولكن بشكل آخر، مع شخص يستأهلك.

= حاولتُ مع إبراهيم لعبة الزواج، وفشلت قبل أن تبدأ.

– إبراهيم مجروح، وهو يتجاوز جرحه دون أن ينساه.

= لماذا لا يتزوجنى ألست كزوجته السابقة على الأقل؟

– له حساباته، فلا تقللى من قدرك بحكاية "على الأقل" هذه.

= على الأقل، على الأكثر، أنا تعبت.

– يخاف أن تعملى منه نسخة من زوجك السابق، ربما شعر بذلك.

=... لا تبدو أمامى أيه فرصة لمحاولة أى شئ آخر.

– أنت لا تعرفين نفسك، ما تحدثه فينا هذه التجربة أعمق من أن يظهر على السطح فى ألفاظ.

= الوحدة صعبة.

– وأصعب منها الكذب والضياع.

****

أغلقت خلفى الأبواب الجديدة التى فتحت على مصراعيها، لم يكن لها مزاليج أصلا، تتعمق الوحدة حتى تسحبنى الدوامة إلى أعمق بؤرة لا أعرف لها قرارا، ثم أطفو فأجدنى أقدر على السباحة والطيران، لم يعد الواقع فى السماء، ولم تعد الأجنحة للطيران، أسير ببطء لكننى مفتحة العينين طول الوقت، يتسحب إلىّ معنى آخر للواقع، أرى الناس من جديد، أكاد أعرف ما أريد، الأمل ليس فيما وراء الأفق، بل فيما بين أيدينا.

.....

.....

= إبراهيم، سوف أتزوجك الليلة،

– يا خبر أسود.

= ليس أسود من ظلام الوحدة وعمى الكذب بإدعاء الاستغناء.

كل شئ ممكن لو استسهلنا أن نختصر الطريق.

= المشى على الصراط لا يقدر عليه إلا ذو قلب سليم.

– قلوبنا سليمة ما لو نشوِّهها بالعجلة أو الطمع

-.... هل تتحملين مسئولية ما تقولين؟

= أعرف أى مصيبة نحن مقدمان عليها.

- بشَّرَكِ الله بالخير..... لم تنتظرى ردى.

= أنا أتكلم بالأصالة عن نفسى والنيابة عنك.

- سبق أن رفضت محاولتك الأولى، ماذا حدث؟

= كان عندك كل الحق، شتان بين زواج الاختباء.... وبين اقتحام الواقع.

- وإذا فشلنا.

= كل شيء جائز، لكن لا مفر من قبول التحدى.

- تعرفين ما تفعلين.

= وأنت؟

- أعرف الضرورة، فأقترب منها دون أن أتنازل،

= ليكن ما يكون.

- ليكن ما نصنع.

= لا وقت للكلام.

-...المستحيل هو أبسط صور الممكن.

= بلا ألفاظ رنانة،

- ولا حديث عن التطور ولا يحزنون.

= عندك حق: الحديث عن القيمة يُهدرها.

- كل يوم زاخر بكل شئ،

=.. كم يظلم الإنسان نفسه بكل هذه الضجة!،

- لابد أن فى الأمر سرا.

= هو أن للاستمرار معنى.

- ربما..

جهنم شرعية، بدلا من جهنم البحث الفارغ أو الكذب أو الخداع

السبـــت 30-06-2018

العدد: 3955 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الرابع "ملكة منّاع" رواية "مدرسة العراة"

لقد عرفنا ماذا نريد من زمن، وانتهى الأمر، أما هو، فما هو إلا طبيب يسترزق، وهو يريد نقودنا ونقود أمثالنا

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط".

وهذا هو الفصل الرابعصورة ملكة مناع الفصل الرابع

"ملكة منّاع"

= إلى متى تظل تذهب إلى هناك يا غالى؟

– إلى أن أعرف ماذا أريد؟ وماذا يريد هذا الرجل منى؟ أو لى.

= لقد عرفنا ماذا نريد من زمن، وانتهى الأمر، أما هو، فما هو إلا طبيب يسترزق، وهو يريد نقودنا ونقود أمثالنا.

– أعرف ذلك، لكنى أعرف أيضا أنه يمكن أن يحصل عليها بطريق آخر، ربما أيسر، وربما أكثر.

= أعتقد أنه مضطرب مثلهم، هذا ما يدفعه لسلوك هذا الأسلوب، هو لا يعدو أن يكون برجوازيا مدعيا رغم ما يتظاهر به من حسن نية، وزعم الشعور بالناس.

– قد يكون كلامك صادقا، ولكن عليك أن تواجهيه لتعرفيه أكثر.

= هو لا يهمنى فى شئ، أنا أذهب معك لأنك حبيبى، ورفيق طريق كفاحنا، هذا كل ما هنالك.

– لست أدرى ماذا كنت أفعل بدونك.

= حبنا أقوى من أى اهتزاز، لم نعثر على بعض مصادفة جمعتنا المبادئ والإصرار على رفض ظلم الكادحين واستغلالهم.

–.... طبعا، كفاح الشعب هو الذى سينتصر.

= أحيانا أشك أن هذا الطبيب يأخذ عمولة من القوى الرجعية والامبريالية لتحطيم الثورة التى تعتمل فى صدرى وصدرك وصدور الطبقة العاملة، هو يحاول جاهدا أن يقلب كل شئ إلى "مشكلة شخصية"، مع أن المجتمع هو المريض.

– يجوز.... ولكن.

= لا تلغى فكرك يا غالى، الامور تتضح كل يوم، هو رجعى هارب جبان، لا أكثر،

–عبد السميع يعتقد أنه عميل لنا، ويحاول اتهامه بين الحين والحين بالإلحاد.

= إلحاد؟ إنه أجبن من أن يلحد، حديثه ملئ بكلمات الإيمان والخير والتوحد، يضرب اليمين واليسار فلا يبقى إلا نفسه.

– بصراحة رجل محيّر.

= ليس تماما، "الذى تغلب به العب به" هذا هو مبدؤه الذى لا يفتأ يردده.

– لو ثبت ذلك، فهى أكبر خدعة قابلتها فى حياتى.

= ليس هناك أدنى شك يا غالى يا حبيبى.

–.... ما الذى يدفع كل هؤلاء المختلفين أن يذهبوا إليه بكل هذا الإصرار،

= نفس الذى يدفعنا: ورطة، وأمل مجهول.

– لا بد أن شيئا ما بداخلنا يطلب بضاعته.

أحيانا أشك أن هذا الطبيب يأخذ عمولة من القوى الرجعية والامبريالية لتحطيم الثورة التى تعتمل فى صدرى وصدرك وصدور الطبقة العاملة، هو يحاول جاهدا أن يقلب كل شئ إلى "مشكلة شخصية"، مع أن المجتمع هو المريض

= بضاعته ليست سوى الخرافة فى صورة عصرية.

– سنرى.

= متى؟

– لست أدرى.

= أحيانا أدعو على صديقك الذى أشار عليك بالذهاب اليه.

– كنت أيامها لا أنام الليل.

= ياليتك أخذت أقراص الطبيب الآخر، وخلصنا.

– كانت تقتلنى بلا نوم حقيقى، أنت تعلمين أن صاحبنا هذا قد عرض على أقراصا فى أول الأمر، أنا الذى قلت له أننى ما جئت لمثل هذا، أنا الذى فضلت حضور "المجموعة العلاجية" بنفسى.

=...أذكر ذلك، لم أكن مرتاحة أبدا، قلبى حدثنى.

– هذا ما جعلنى أحترم شجاعتك أكثر وأنت تصرين على الحضور معى من أول مرة.

= وسوف أكون أشجع حين نتوقف عن الحضور معا أيضا.

– تعجبت وهو يوافق، بل يرحب بحضورك وأنت لست مريضة.

= زيادة الخير خيرين، كله مكسب.

– لا تبالغى هكذا، ودعينا نرى.

= مالنا ومالهم؟ نحن ثوريون، وهم مرضى، ولا سبيل إلى الالتقاء.

– أحيانا، أعتقد أنهم ثوريون أيضا، بل إنى أحيانا أظن أنهم هم الثوريون ونحن الأدعياء، ياملكة.

= غالى !!.

– أقول ما أشعر به.

= بدأت مخاوفى تتحقق، حافظ على ثقتك بنفسك وبمبادئك.

– لا خوف إطلاقا، طالما نحن معا، فلا تهديد بالتغير.

هذا الرجل خطير، أشعر أحيانا أنه ليس إلا عميل مهمته تمييع مواقف الناس لإجهاض الثورة بأن يلصق عليها لافتات طبية؟.

لابد للانسان أن ينسى الفشل حتى يستطيع أن يستمر

= نفسه طويل، وطريقه يبدو بلا نهاية.

– الثائر لا يخاف المغامرة..ما دام على حق.

= ... وهل يوجد حق أحكم مما نحن فيه، هذا معمار صنعنا به وجودنا بعرق عقولنا.

– من يدرى؟

= أنا أدرى.

– صبرك يا ملكة، أحيانا أقارن بين هؤلاء الناس وبين جماعتنا الثورية، وأتردد.

= إنتبه يا غالى، عقيدتنا أغلى مافى حياتنا، فكيف نقارن هؤلاء المجانين الذين يتذرعون بالمرض بجماعتنا وكفاحنا.

– لا تنكرى حقيقة ما يدور هنا، فلا أحد منهم يعتذر بالمرض أو يستجدى الشفقة، أشعر أنها دعوة لمواجهة الحياة بشكل آخر.

= واجهناها وعرفنا أولها من آخرها، الكفاح الكفاح، رفع الظلم والمساواة، ماذا هناك غير ذلك؟

– طبعا..طبعا، لم أقل شيئا.

= هذا الرجل خطير، أشعر أحيانا أنه ليس إلا عميل مهمته تمييع مواقف الناس لإجهاض الثورة بأن يلصق عليها لافتات طبية؟،

– يجوز،

= مؤكد.

– مؤكد، إن كان هناك أى شئ مؤكد.

= ماذا جرى لك يا حبى ؟!!!.

– 1 –

قلبى يحدثنى أن غالى يتغير فى السر، لن أفرط فيه ولو دفعت حياتى ثمنا لذلك، مسكين، طيب القلب، استدرجه هذا الرجل ليبتزه ويشوهه، لا أنسى كيف

تحاول أن تبرر فشلك بأن تثبت على واجهتك "لافتة مرضية" تعفيك من تحمل مسئولية الناس

استقبلنى ببرود أول يوم حين فرضت عليهم نفسى دون استئذان، لم أصدق أنه رحب بمشاركتى كما يقول غالى، صدق ما ادعيت بعد ذلك من شكاوى أبرر له بها ما يلهفه منى كل جلسة.

ثقتى بنفسى لا يزعزعها شئ على الأرض، أريد أن أنهى هذه الورطة بأسرع ما يمكن، غالى مُصِرّ، لو عارضته فسوف يعاند كالأطفال، سوف أتركه حتى يمل هذا التكرار السخيف، نضالنا أشرف وأصدق من كل هذا، ماذا يفعل شيخ المنسر هذا إلا أنه يجهض النضال ويثير الشكوك حول كل حل شامل، زوجى يوافقنى غالبا على أرائى ولكنه ينقاد له بلا مبرر، فوجئت بوجود كمال نعمان، معرفة قديمة، سوابقه فى الهرب تبرر وجوده هنا، كمال زميل نضال قديم، خاف السلطة فأصبح فنانا، حين التقيته هنا تعجبت، لا أنكر أنى أحسست فى قرارة نفسى بالشماته، هذه هى نهاية الانسحاب من المسئولية الجماهيرية، المرض وعيادة الأطباء بدلا من الناس وإرادة التغيير، إدفع يا كمال الثمن حتى لو استمرت سخريتك لاذعة، وشكك قاتل.

لا أحد يفسد عقل آخر إلا باختياره، الفشل اختيار، وفساد العقل اختيار

لا أستطيع أن أخفى عن نفسى تساؤلا مذلا: إذا كان كمال قد مرض لأنه انسحب من ميدان النضال فلماذا حضرنا نحن هنا إذن؟ لابد أن تنتهى هذه القصة سريعا حتى أتخلص من هذه المذلة، لا أحتمل هذا الموقف الذى يذكرنى كل ساعة أنى مريضة، أو أن غالى مريض، أى مرض هذا الذى نضيع فى البحث عن اسم أو مبرر أو شكل له؟ لماذا نمضى هذه الساعات الطوال فى النقاش والعراك و"محاولة" الإحساس؟ كل إنسان يحس بكل شئ فما الداعى للتشكيك؟

الحياة كلها تأجيل لمصيدة القبر، وعلينا أن نختار الشكل المناسب للهرب، قبل أن تطبق المصيدة علينا يوما ما

حتى أنجح فى إقناع غالى بالكف عن كل ذلك؟ لابد من خطة مضادة، المسألة تحتاج إلى تنظيم وتكاتف لكسر هذا الوهم المحيط، أبدأ بكمال، أعتقد أنه أوهى الحلقات، صديق قديم أعرف مداخله وأحب فنه، لو نجحت فى إقناع كمال فلسوف يستجيب غالى أسرع.

= هذه المناقشات تذكرنى ببعض ما كان يدور بيننا فى اجتماعات الإعداد لمجلة الحائط، هل نسيت يا كمال؟

– ربما لهذا أنا هنا، يا ست ملكة.

= تسخر من جديد، "ست" فى عينك، أنت هنا، لأنك نسيت؟

– بل لأنى لم أنجح أن أنسى.

= ولماذا تريد أن تنسى.

– لابد للانسان أن ينسى الفشل حتى يستطيع أن يستمر.

= مازلت تتحدث عن الفشل كالقدر، وهو اختيارك، نحن لم نفشل يا كمال، الشعب لا يفشل.

– لقد فشلنا جميعا.

= أنت انسحبت، فلا تحكم علينا.

– ليكن،... لكلٍّ رأيه.

= تحاول أن تبرر فشلك بأن تثبت على واجهتك "لافتة مرضية" تعفيك من تحمل مسئولية الناس.

– أفضل من لافتة "ثورية" توهمنى بتحمل مسئوليتى فضلا عن مسئولية ناس لا أعرفهم.

= نجح الرجل أن يفسد عقلك، هذا هو ما حسبت حسابه.

– لا أحد يفسد عقل آخر إلا باختياره، الفشل اختيار، وفساد العقل اختيار.

= واختيارك الآن هو أن يفسد عقلك؟

– خير من أن يفسد ضميرى وأخدع الناس تحت عناوين ثورية.

= ماذا جرى لك يا كمال، أنت فنان حساس، ولابد من عمل نضالى بين الجماهير.

– جماهيرك يا ملكة فى عقلك، لن تعرفى الجماهير إلا إذا كنت أنت الجماهير، إلا إذا عرفت نفسك، هذا هو ما أحاوله.

أنا لا أخاف على نفسى، كل ما أخشاه أن يتغير خالى بالرغم منه، لو تغير بإرادته فقد أتحمل النتائج مهما كانت، أما أن يتغير تحت وهم العلاج وتأثير "شيخ الطريقة الصحية لتمييع الثورية" فهذا ما يهددنى.

= من أين نبدأ يا كمال؟ قصة قديمة، الفرد أولا أم المجتمع؟

– لن أنخدع ثانية بمناقشة القضايا العامة قبل أن أحدد موقفى.

= أكبر خداع هو ما أنت فيه الآن، ماذا بك حتى تتردد على طبيب كهذا؟

– عاجز عن فعل أى شئ.

– أوهمك الطبيب بالعجز والمرض، ولو لم تستسلم لهذه الإشاعة العصرية لكنت مستمرا معنا الآن.

= من أنتم؟ وأين انتم، الآن؟

– نحن مع الطبقة العاملة.

= ولكن الطبقة العاملة ليست معكم.

– الكادحون مسحوقون، والنضال مستمر، والعمال بدأوا يدركون حقوقهم.

= كلامك يوحى بأن القتال يدور من بيت لبيت ليل نهار، ولا أرى إلا تأجيل مواجهة الذات لأجل غير مسى.

= نترك الناس ونواجه أنفسنا؟ فى عيادة طبيب أرزقى؟

– أفضل من أن نترك أنفسنا ونضحك على الناس.

= حتى لو صح اتهامك، فالناس أقوى من أن يضحك عليهم مثلى ومثلك إلا بعض الوقت، ماذا جرى لك يا كمال؟

– لابد أن نعرف من نحن، من هو "أنا" "الآن"؟ وإلا..

= نوقف مسيرة العالم والتطور حتى نعرف من هو "أنا"... ومن هو "أنت"؟

– حتى لا تباع الثورات لغير أصحابها.

= الثورة للمطحونين من سواد الشعب.

– أنت لا تعرفين سواد الشعب ولا بياضه يا ملكة يا مناع، كل ما تفعلينه أنك تحافظين على "قلعتك الخاصة" بأسلوب أيديولوجى عصرى، أنت وغالى من مستحقى "وقف" الثورات، أما صانعوا الثورات فأنت لا تعرفينهم.

= ليس لى قلعة ولا بيت، حتى أمومتى ضحيت بها من أجل مبدئى.

أنا أتساءل هل سيختار من أول وجديد، لقد اخترنا طريقنا بعد طول عناء، لقد أجابت "النظرية" على كل شئ، ماذا بقى أمامنا لنختاره ونحن نتعرض لهذه الخدعة الامبريالية الجديدة

– أنت لم تضحى بأمومتك، كل ما فى الأمر أن الحمل والرضاعة لم يعودا لازمين لممارسة الأمومة لديك، أنت تتبنين غالى سرا وعلانية، ملكية أضمن تكفيك وزيادة.

= خبيث، مهزوم تشوه الناس لتبرر انسحابك، كله من تأثير هذا الرجل المجنون.

–... لا تبالغى، لقد جئته مهزوما جاهزا.

= كنت تهرب منا فى الفن، والآن تهرب من الفن فى المرض.

– الحياة كلها تأجيل لمصيدة القبر، وعلينا أن نختار الشكل المناسب للهرب، قبل أن تطبق المصيدة علينا يوما ما.

= حكمة اليوم هى إضفاء صفة الشرعية على الهزيمة، ما أبشع ما يجرى هنا.

– ألا تحاولين النظر داخلك، ولو قليلا؟

****

يبدو أننى أخطأت الهدف، غالى أهون من كمال ألف مرة، شعرت أن كمال انتهزها فرصة ليسوى حسابا قديما، أردت أن أستقطبه فكاد يهزنى وأنا لا تهزنى قنبلة ذرية.

= أنا لست مريضة يا كمال كما تتمنى.

– تحضرين للفرجة؟ أليس كذلك؟

= زوجى يحضر وأنا مع زوجى للنهاية.

– تخافين أن يضيع وهو راجع إلى البيت، أو يخطفه أبو رجل مسلوخة؟

= شيخكم هو الخطاف الذى أخشاه.

– ليس لى شيخ.

= ينتهز ضعف الناس ليستولى عليهم لحساب جنونه الخفى.

– حتى لو..... فهو يعملها علانية، وعلى من يستسلم له أن يدفع الثمن،

أحس أننا نستدرج إلى مجالات ميتافيزيقية ألعن من كل المخدرات التى تعاطتها الشعوب عبر التاريخ، هذه الخدعة العصرية تلبس مسوح العلم وتدعى الطب لقد اخترنا طريقنا بعد أن أنهكنا البحث، فما الداعى لأن نعيد الاختيار

= كذب، كذب.الطب سلطة خبيثة، الرهبان يمارسون الدعارة مع أطفال.

– إلى هذه الدرجة تخافين منه، أم تكرهينة.

= هو يقتل وحدته بإلغاء كيانهم.

– هو لا يخدع أحدا.

= أنت أول المخدوعين به.

– لا أنكر أنى احتاج لرعايته بعض الأحيان.

= غالى له من يرعاه.

– تريدين أن تحتكرى رعايته حتى يظل طفلك الكبير ملكك وحدك.

= أنا أكثر أمانة عليه من شيخ المنسر هذا.

– ملكة يا غالى، قوى التملك تتنازع زوجك مثل الحدود الصينية السوفيتية.

= سخريتك سخيفة، أنت لا تعرفه، غالى سيد الرجال.

– هل تتصورين أننى لا أعرف متى رفع الراية البيضاء بعد زواجه بك.

= وغد لا تريد أن تنسى أنك كنت غريمه، ألم تعرض على الزواج قبله.

– قذّر، ولطف.

= مازلت تريد الانتقام.

–.... أنت تحلمين.

= هو سعيد بحبى.

– أراه يسير ويداه مرفوعتان، وفوهة حبك مصحوبة طول الوقت إلى ظهره.

= ترسم له صورة مثل صورك الباهتة وهو ظفره برقبتك.

– ها أنت تتشطرين فى تسعير الرجال بعد تسعير الطبقات.

= لن تستطيع أن تسخر حتى النهاية.

– أنا لا أعرف النهاية ولا أسعى لها.

= خيبت ظنى... إلى متى تنوى الاستمرار.

لن أخدع فى أحاديثهم وتمثيلياتهم، ما أدراهم بالحب والمساواة والعدل التى يتكلمون عنها ليل نهار، صورة جديدة ليوتوبيا المأفونين

مقاعدهم وثيرة وكفاحهم بالألفاظ، يتعاطون أفيون العواطف فى حجرة مغلقة

– حسب التساهيل، أنا أول الهاربين فى أى اتجاه، وكل اتجاه، أكره التحديد كرهى لعماك.

= وغد، تفخر بجبنك.

– أحسن من ادعاء غيره.

= لابد من وقف هذا العبث.

– تخافين المواجهة.

= قلبك ممتلئ حقدا.

– .... ألم يكن الحقد ثروتنا التحريضية؟ فلماذا تتنكرين له الآن.

– 2 –

الخوف يتزايد ويحيط بى من كل جانب، لو تركت نفسى استعمل لغتهم لاكتشفت مصدر التهديد من داخلى، أنا لا أخاف على نفسى، كل ما أخشاه أن يتغير غالى بالرغم منه، لو تغير بإرادته فقد أتحمل النتائج مهما كانت، أما أن يتغير تحت وهم العلاج وتأثير "شيخ الطريقة الصحية لتمييع الثورية" فهذا ما يهددنى.

غالى يكرر إعلان أنه لا يتغير ولكنه يستزيد من المعرفة، يقول إنه بذلك يستطيع أن يختار، أنا أتساءل هل سيختار من أول وجديد، لقد اخترنا طريقنا بعد طول عناء، لقد أجابت "النظرية" على كل شئ، ماذا بقى أمامنا لنختاره ونحن نتعرض لهذه الخدعة الامبريالية الجديدة، أحس أننا نستدرج إلى مجالات ميتافيزيقية ألعن من كل المخدرات التى تعاطتها الشعوب عبر التاريخ، هذه الخدعة العصرية تلبس مسوح العلم وتدعى الطب لقد اخترنا طريقنا بعد أن أنهكنا البحث، فما الداعى لأن نعيد الاختيار، لقد بدأنا النضال من زمن بعيد وقطعنا فيه شوطا أعطى لحياتنا معنى، فماذا نريد أن نختار بعد ذلك يا غالى الله يهديك؟ وأنا..؟ هل أنا من ضمن ما سوف تعيد النظر فيه؟، يا غالى.

الذى ينبغى أن نسارع بتحطيمه هو الملكية الفردية لا الكيان الشخصى، أما العواطف فهى شئ آخر، هذا هو التركيب البشرى الذى ينبغى احترامه

العواطف أمور سلامية ليس لها علاقة بالتطور المادى، العواطف ملكية خاصة لا ينبغى أن يقترب منها أحد، فما بالك بما يجرى هنا؟!.

– أما آن الأوان أن نكف عن الحضور لننتبه إلى ما وراءنا من واجب تحرير الناس.

– نحرر الناس، دون أن نتحرر نحن يا ملكة؟

– نحن أحرار تماما، وأنت تعرف ذلك يا غالى يا حبيبى.

– مم تخافين إذن؟

– أنا لست خائفة.

الحرية للشعب، والسيادة للطبقة العاملة.... هذه هى المقدسات الحقيقية لأنها واقع الناس، مالك؟ هل كفرت بكل هذا؟

أعلم أنى كاذبة، كل ما حولى يؤكد لى أن أخطر الخطر هو ما يقع دون سابق إنذار، هنا خطر متسحب، شئ ما يتحرك فى داخلنا ويقترب من السطح دون إذن.

دفعنا حياتنا لمحاربة الاستغلال، وهو يعلمنا الدرس تلو الدرس، ثم أكتشف أنه يمارس أبشع استغلال

لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم، لم أكن أتصور أبدا أن ذلك يمكن أن يحدث لغريب أو من غريب بالذات، ذلك الإنسان الهادئ المثقف، كيف فقد كيانه هكذا فى لحظة، مازلت أذكر كيف رعبت، وكيف تحرك داخلى يكاد يقفز ليحتويه ويحول دون تماديه، كنت أريد أن أحميه من كذبهم وادعاءاتهم "المحبة"، لو كان رحمى عباءة لفردته عليك يا غريب ساعتها، لو كان فكرى حصانا أشهب لاختطفتك عليه من وسطهم حتى أحميك من هذه المهانة يا غريب، فخورة بك أنا، سرعان ما رجعت محصنًا أكثر من ذى قبل رغم محاولات نجوى التى لا تيأس، تلك السيدة المدعية لا تكتفى بإغراء مختار، أو الكذب على إبراهيم، هى لا تكف أيضا عن ملاحقتك بكل الصور، حتى الطبيب نفسه لم يسلم من محاولاتها، لا، لن أفرط فى "غالي" أبدا، لن أخدع فى أحاديثهم وتمثيلياتهم، ما أدراهم بالحب والمساواة والعدل التى يتكلمون عنها ليل نهار، صورة جديدة ليوتوبيا المأفونين، مقاعدهم وثيرة وكفاحهم بالألفاظ، يتعاطون أفيون العواطف فى حجرة مغلقة، لابد أن يتغير المجتمع من أساسه أولا، المادة أساس كل شئ، أما العواطف الإنسانية فلابد وأن تصان من هذا العبث والتشويه، الذى ينبغى أن نسارع بتحطيمه هو الملكية الفردية لا الكيان الشخصى، أما العواطف فهى شئ

آخر، هذا هو التركيب البشرى الذى ينبغى احترامه، العواطف أمور هلامية ليس لها علاقة بالتطور المادى، العواطف ملكية خاصة لا ينبغى أن يقترب منها أحد، فما بالك بما يجرى هنا؟!.

–.... أصحاب الأملاك يقولون أيضا أن ملكية النقود والأشياء من طبيعة البشر.

= يدافعون عما يملكون بتشويه طبيعة الإنسان.

– لعلنا نفعل ذلك أيضا حين نصر على خصوصية العواطف.

= ألم أقل لك يا غالى إن هذا الرجل يتسحب إلى خلايا عقلك من الباب الخلفى.

– أنت تعرفين أنى أحب أن أفحص كل الاحتمالات مهما كان الثمن،

=.... حتى لو كنت "أنا" الثمن.

– أنت فوق هذه القاعدة.... بالنسبة لك.... استقرت الأمور من زمن.

= عماذا تبحث إذن بعد أن استقرت الأمور..؟

– عن أى احتمال يوصل للحقيقة، ربما للقدرة، أو للفعل.

= نعم، نعم..؟ وهل ستجد ما تتحدث عنه هنا عند هذا الرجل؟

– ربما.

= هذا الرجل لا يقدم إلا احتمالا واحدا، هو: ذاته.

–... أحس أنه هو ذاته لا يعرف من هى ذاته، فكيف يقدمها، لعله يبحث مثلنا، معنا، كل شئ جائز.

= هذا الرجل عنده جواب لكل سؤال، رؤيته حادة مثل السكين، تقطع كل من ينحرف عن حدودها.

– إذا كانت كذلك، فما هى؟

= لا أراها بوضوح.

– كيف إذن هى حادة كما تصفين.

القاع ليس فيه أحرار عالم يسعوا إلى القمة المسؤولة، هل نستطيع؟

الحرية هى أن تحبنى كما تشاء وأن أحبك طول الوقت، أنت إبنى وأبى ودينى وعقيدتى، تستطيع أن تفعل بى ما تشاء من واقع حريتك

= سألته مرة عنها، فقال إنها: "الحياة".

– كلمة مائعة مثل "الفطرة"، كلمة تصلح لكل العصور، تختبئ وراءها كل الحيل.

= ها أنت تفهم أحابيله، مازلت غالى حبيبى اليقظ الثائر.

– لا أنال منه، المسألة أصعب من هذه البساطة، فلا تبالغى فى تجسيم اعتراضاتى.

= تدافع عنه ثانية.

– أنا لا أدافع عنه، ولا عن أحد، وإنما أنا أسعى إلى المعرفة.

= وفى سبيل ذلك تنسانى، وتغفل حبى يا حياتى.

– ما دخل حبك يا ستى الآن؟

= لا حياة لى بدونك، لقد وجدنا الطريق من زمان فلا داعى لضياع الوقت.

– أى طريق؟

= هل نسيت يا غالى: الحرية للشعب، والسيادة للطبقة العاملة.... هذه هى المقدسات الحقيقية لأنها واقع الناس، مالك؟ هل كفرت بكل هذا؟

– لم أكفر ولا يحزنون، أنا انتهز هذه الفرصة لكى نتعرف على هذه الألفاظ من جديد، "الواقع"– "الناس"، ربما تكون مسئوليتها أكبر من احتمالنا، أو ربما عشنا أصدق.

= نتعرف على "الواقع" و"الناس" من فوق هذه الكراسى الوثيرة؟

– حيرتنا هى التى دفعتنا لهذه الكراسى الوثيرة، وهى جزء من واقعنا، وهؤلاء "ناس" من لحم ودم بغض النظر عن عدد "السست" التى تهتز من تحتنا.

= حيرتنا انتهت من زمن.

– فما الذى أرقنى تلك الأيام؟

= كل الناس تصاب بالأرق أحيانا.

– ليست المسألة بهذه البساطة، أنت تذكرين جيدا كيف أنى فجعت فى صديقنا المسؤول؟

أحاول أن أتذكر ما كنا نقوله ليل نهار.
= المادية، والحرية، والحب، ماذا تريد أروع من ذلك.
– بضائع الرصيف المستوردة.

= خطأ عادى وما نحن إلا بشر.

– عادى؟ ، أسوأ استغلال وأبشع سرقة، خادمة قاصر!!.

=.... لكل واحد هفوته.

– دفعنا حياتنا لمحاربة الاستغلال، وهو يعلمنا الدرس تلو الدرس، ثم أكتشف أنه يمارس أبشع استغلال.

= كفاحه المقدس لا تلغيه زلة عابرة.

– كفاحه أم صياحه؟

= زلة شخص واحد لا تهز المبدأ.

–..دفعتنى للتفكير فيمن يقدر على حمل مسئولية المبدأ.

=.... نحن قدرها يا غالى، حتى لو أخطأ أحدنا.

–.... بدأت أشك فى كل شئ حتى فى ما هو نحن.

= مازلت تغلى بالغيظ.

– بدأت حكاية الأرق من يومها دون ربط ظاهر.

= أزمة وعدت، أنت تنام هذه الأيام مثل القتيل،

– أغمض عينى فحسب، أشعر أن داخلى لا ينام، لابد من حل.

= وهل الحل فى هذه المسرحية المعادة بلا نهاية فى عيادة طبيب مجنون.

– الحل فى الحصول على حريتى الداخلية.

= داخلية ماذا، وخارجية ماذا؟ كلنا أحرار إلى قاع القاع.

– القاع ليس فيه أحرار مالم يسعوا إلى القمة المسؤولة، هل نستطيع؟

= نحن نستطيع، ونصف، استطعنا ونستطيع.

– ليس بهذه البساطة.

ماذا جرى لك يا غالى؟ شكك يتزايد بدرجة لا تطاق، حتى حريتك التى لا جدال فيها، أصبحت مجالا للشك والمراجعة، أنت حر مادمت معى يا حبيبى، ماذا لو كنت زوجا لامرأة أخرى ليست "ثائرة" مثلى؟ امرأة تضيق عليك الخناق

أليس الأفضل يا غالى أن نكرس حياتنا لتخفيف آلام المسحوقين بدلا من اجترار آلامنا الخاصة

وتحاسبك على نظراتك وسكناتك، إننى لم أصر على حقى فى الإنجاب حتى لا أقيد حركتك، ماذا تريد بعد ذلك؟ فكر قليلا، ماذا لو أنك زوج ست البيت المتصابية فردوس هانم، أو ست الحسن المغرورة نجوى شعبان، ضبطتك آخر مرة متلبسا وأنت تتأمل جسدها ولم أفتح فمى، أنت حر حتى النخاع، مالذى أدخل إليك الشك بعد كل هذا؟ الحرية هى أن تحبنى كما تشاء وأن أحبك طول الوقت، أنت إبنى وأبى ودينى وعقيدتى، تستطيع أن تفعل بى ما تشاء من واقع حريتك، أنا أحبك يا غالى وليس لك سواى.

****

الخطورة أنى بدأت أتساءل حتى عن الحب، اختلف معناه، أحيانا يعاودنى سؤال قديم يقول: هل ثم من يحبنى "أنا"، فعلا؟

= كل شى تم تحديده بصفة نهائية يا كمال.

– نهائية !!؟ نهائية جدا طبعا، أفيدينا يا ملكة الحسم أفادك الله.

= تسخر منى؟

–.... أحاول أن أتذكر ما كنا نقوله ليل نهار.

= المادية، والحرية، والحب، ماذا تريد أروع من ذلك.

– بضائع الرصيف المستوردة.

= سخريتك قبيحة.

– كرشك يسع عشرين رجلا وطفلا بلا تمييز.

= لقد اكتفيت بغالى، فلا تحرك أمانيك القديمة.

– مجنون أنا إذا تمنيت أن أتمتع بعصارات هضمك الملتهبة.

= غيرتك تقتلك.

– غيرة ماذا يا ملكة؟ أنت أين؟ غالى يريد أن يتملص من سجن حبك قبل أى شئ.

= غالى ليس جبانا مثلك وهو لا يتمتع بحريته إلا بين أحضانى.

– حرية أن يختار إن كان يؤكل مسلوقا أو مشويا جدا أو نصف نصف؟

= تحقد عليه، مازلت أنت كما أنت، أنت لا تكف عن الحقد عليه.

– لا تحلمى، لا أحد يحقد على من يُشوى فى أتونك.

.....

.....

أفسدكم يا أغبياء إلى هذا الحد؟ ماذا لو انتهى غالى إلى ما انتهيتَ إليه يا كمال، سوف لا أتعرف عليه.

كيف السبيل إلى إيقاف عجلة هذا العبث البرجوازى القبيح؟

– 3 –

كان غريب هو الوحيد الذى يتعاطف مع مشاعرى العدوانية تجاه هذا الطبيب سرا وعلانية، حين يدخل فى نقاش معه، أو حين يتحوصل وينظر إلى هؤلاء البله فى تعال، أحس أنه يقوم عنى بما أود أن أفعله، حين يتكلم أحس أنه يستخرج الألفاظ من وجدانى، ها هو ذا ينقطع عن الحضور فيتركنى وحيدة تماما، كنت أحس به سندا قويا فى إدراكه لحقيقة ما يجرى، فرحت لغيابه، تماسك وقرر ونفّذ وغاب، طمأننى أننا يمكن أن نخرج من هذه الورطة ونحن أكثر صلابة وتماسكا بذواتنا وعقائدنا عن ذى قبل، ليس معنى أن يصاب إنسان ما بالأرق لبضعة ليال أن يفرض عليه التنازل عن كل تاريخه ومكاسبه لمثل هذا الطبيب الذى ينتهز الفرصة ليدعى أن ظهور الأعراض ما هو إلا طلب للتغيير، يشترط ضمنا أن يكون تغييرا فى اتجاهه، هذا الجاهل الذى لا يكف عن الكلام عن العلم وعن الحرية وعن التطور يخلط بين ذاته وبين العالم بطريقة بلهاء، العجيب أن أحدا غيرى وغير غريب لا يكتشف ذلك، أكاد أشعر أن قانونا غير مكتوب يحكم هؤلاء الناس، غاية أملى أن يفهم غالى خبث هذه اللعبة قبل أن ينساق إلى مالا يدرى، لماذا التغيير؟ ليس فى الإمكان أبدع ولا آمن من القوانين المادية الراسخة العظيمة، ما جدوى البحث فيما انتهينا من البحث فيه؟ أريد أن أحتفظ بغالى كما هو، لا يخالجنى شك فى أنه سيترك هؤلاء الناس يوما ما ويعود إلى هو، هو، متى؟ لماذا تطول هذه المسرحية كل هذا الوقت؟ ماذا ينقصه وأنا معه؟،

نتحدث عن حتمية التغيير، أرعب من تغيير بعض من سبقونا ممن أتيحت لهم فرصة أن يختبروا بكرسى السلطة

الرجال لا يحمدون النعمة.

كمال هو الذى أحذره أكثر من شيخهم نفسه، حين يكلمنى يعرينى دون استئذان هل يعيبنى يا كمال أن كل همى هو أن أحافظ على زوجى؟ غالى إنسان صادق، تألم بما فيه الكفاية واضطهد بما فيه الكفاية، أنت تعلم كيف تعامل الأقلية من الأكثرية بغباء لا نظير له، يكفيه ويكفينى ما كان من آلام.

= أليس الأفضل يا غالى أن نكرس حياتنا لتخفيف آلام المسحوقين بدلا من اجترار آلامنا الخاصة.

– لا نستطيع أن نكف عن معايشة الألم بقرار يا ملكة.

= الحب يخفف الآلام.

– الخطورة أنى بدأت أتساءل حتى عن الحب، اختلف معناه، أحيانا يعاودنى سؤال قديم يقول: هل ثم من يحبنى "أنا"، فعلا؟

= نعم؟ نعم..؟ ماذا أفعل أنا إذن؟ هل ألغيتنى يا غالى؟

– لا أقصد، أنت حياتى، ولكن....

= لكن ماذا؟ هل تشك فى حبى أيضا؟ أو أنه لا يكفيك؟

–..... أخاف منه أحيانا.

= فيم الخوف؟ نحن على وفاق حتى فى أفكارنا.

– ربما هذا هو سر خوفى، لقد ضحيتِ بكل شئ من أجلى، حتى حقك فى الأمومة، أخشى ألا أستطيع دفع الثمن.

= لا أطلب منك ثمنا إلا استقرارنا وسعادتنا.

–.... ماذا كنت أفعل بدونك؟

= آن الأوان للانسحاب من هذا الذى تسميه علاجا.

– ما بالك منزعجة هكذا؟

= هذا رجل صاحب دعوة سرية، هى تسرى فينا تحت شعار الصحة، لا تنس أننا أقلية ولابد أن نحمى أنفسنا بكل وسيلة.

ضرر هذا الرجل إن وجد لا يتعدى عشرة أو عشرات، أما نحن، فثقة الناس لو ملكنا أمرهم ترعبنى وتلزمنى بمواصلة طريق المعرفة الشائك ضمانا لى ولهم

– لا أشعر هنا معهم أنى أقلية.

= نحن أقلية مهما انتمينا إلى أعضاء هذا السرك الجديد.

– أريد الحقيقة، حتى ولو كنت وحدى.

= قوانين المادة تفسر كل شئ حتى التاريخ، لماذا نعود لطرق أبواب الخرافة؟

– لست واثقا إن كان ما نحن فيه علم أم خرافة.

= هذا الرجل يستغل ظروف المجتمع وآلام الناس لترويج أفكاره.

– أحيانا أشعر أنه عالم حقيقى.

= وهذا سر خطره.

– أى خطر؟

= خطر أن ننسى عقيدتنا وواجبنا إزاء نضال الشعوب.

– المواجهة الداخلية هى الضمان لاستمرار الشعلة التى تشعل نضال الشعوب.

= تقول داخلية، هلى سنغير العالم من الداخل؟ هذا العبث يكاد يلهينا عن بيتنا الذى أسسناه لنكمل النضال من أجل الشعب العامل.

– هل تخافين على الشعب العامل، أو على بيتك؟

= تنسى تضحيتى بأمومتى لنتفرغ للكفاح؟،

–...أنت لم تحبى الأطفال أبدا.

= لا أحب تعريضهم لخطر حياة كلها ظلم واستغلال.

– الخطر الحقيقى هو أن نخدع أنفسنا.

= نحن نعرف طريقنا.

– أحيانا أعتقد أننا نهرب فى الناس من أنفسنا، بلا انتماء حقيقى لنا.

= صرت تتشكك فى كل شئ، ما الحكاية!!.

– نتحدث عن حتمية التغيير، أرعب من تغيير بعض من سبقونا ممن أتيحت لهم فرصة أن يختبروا بكرسى السلطة.

أنا لا أستطيع أن أوقف تدفق الشلال، بيتى محدد، حريتى محددة، عقيدته تهتز، كل هذا نتاج عناده وإصراره على الاستمرار فى لعبة حمقاء ليس لها معالم

= ماذا جرى لك؟ هذا الكلام أشبه بهمس رجال المباحث.

– أراجع مواقفنا، أتساءل وأرعب من تصور منظرنا على كراسى الحكم يوما.

= نتركها لهم بالسلامة يمصون دم الشعب حرصا على نقاء داخلك، ماذا تكون النتيجة إذا توقف الجميع عن النضال نتيجة لمثل أفكارك؟ سيقيم الطغاة الأفراح، وتسحق الأقليات بلا هوادة.

– هذا يرعبنى أكثر.

= من إذن سيغير المجتمع؟ أصحابك المجانين، وشيخهم الأرزقى؟ فى هذه العيادة السرية.

– هذا ما يزعجنى أيضا.

= يخيفنى !!! يرعبنى !! يزعجنى !! أهذا ما نجنيه من صحبة هؤلاء المعوقين داخل عيادة مجنون؟

– عجز هؤلاء المعوقين كما تقولين، لا يبرر كذبنا نحن.

= نحن لا نكذب.

– ضرر هذا الرجل إن وجد لا يتعدى عشرة أو عشرات، أما نحن، فثقة الناس لو ملكنا أمرهم ترعبنى وتلزمنى بمواصلة طريق المعرفة الشائك ضمانا لى ولهم.

.....

أنا لا أستطيع أن أوقف تدفق الشلال، بيتى مهدد، حريتى مهددة، عقيدته تهتز، كل هذا نتاج عناده وإصراره على الاستمرار فى لعبة حمقاء ليس لها معالم، أنزعج حين أفكر فيما وصل إليه من عمَى، ماذا يريد منى؟ أحيانا يعرض على أن أدلو بدلوى فى العلاج، وأن أتوقف عن موقف الفرجة ؟ هل يريد لى أن أكون مثل فردوس العروس الحلاوة الحمقاء، تلك المرأة لا تخجل من وصف نشوتها الجديدة، وكأنها عثرت على كنز قارون، كيف تجرؤ على هذه الوقاحة أمام طفلة مثل بسمة؟ أنا امرأة مثلها ولا أعرف تلك الأحاسيس التى تخترعها فردوس هذه اختراعا لتثبت لنا شفاءها الشبقى، وكأنه النجاح الأعظم فى حياة

أرفض، وأخاف من هذا الحديث العابث الكاذب عن الأجنحة التى تطير بها هذه المرأة متعبدة فى فحولة زوجها راقصة تحت سمائه، أراهن أنها تعد له خفية وصفات رجب العطار مع توصيات سحرية سرية

البشرية المشمولة برعاية زوج متفرغ، كيف لا تخجل من تصابيها المنفر؟ كلامها يثيرنى أحيانا لدرجة تشككنى فى أنوثتى، ما هذه القمم المجهولة التى تصعد إليها مع زوجها؟ ما تلك الغيبوبة التى تصفها وكأنها انتقلت إلى الجنة فى كل مرة؟ لن أشك فى نفسى مهما كان، ممارستى الخاصة هى الطبيعة ذاتها، أنا أعطى غالى كل ما يرضيه وأنام راضية مسترخية أغلب الأوقات، أرفض، وأخاف من هذا الحديث العابث الكاذب عن الأجنحة التى تطير بها هذه المرأة متعبدة فى فحولة زوجها راقصة تحت سمائه، أراهن أنها تعد له خفية وصفات رجب العطار مع توصيات سحرية سرية.

هؤلاء المجانين يخلطون بين كل شئ وكل شئ: الجنس والله والحب والناس، كلام خطير يحرك خلايا الحجر.كيف أتحمله؟ وإلى متى؟ هل أنا باردة حقا؟

هل هذا هو ما تبحث عنه يا غالى فى روضة أطفال الدعارة هذه؟ هل هذه هى حقيقة الداخل الذى تريد مواجهته؟ هل هذا هو طريق المعرفة الشائك؟ هل أصبحت فردوس مثلك الأعلى فى المرأة ؟ أم أنك تريد نموذجا آخر مثل نجوى المغرورة بجمالها وهى تريد أن تكمله بالديكورات العلاجية الحديثة، والإكسسوارات الثقافية المناسبة؟ إلى متى أظل محكوما على بتأمل "غرائب الطبيعة" هنا على هذه الصورة؟ نجوى التى كانت لا تفهم معنى كلمة أيدلوجية تتحدث الآن عن الصدق والحرية والناس، هى تروج بضاعتها الجديدة عند مختار وإبراهيم بعد أن هرب غريب بجلده، ليس أمامى خيار، علىّ أن أستمر فى التمثيلية إلى النهاية حتى أسترده وأرجع به إلى مكانه الطبيعى، كيف أستطيع أن أتحمل كل هذا الذى يجرى هكذا؟ كيف أسيطر على مشاعرى إلى النهاية؟ كيف أمنع شكى فى أنوثتى من خلال تفجرهم الصناعى؟ هؤلاء المجانين يخلطون بين كل شئ وكل شئ: الجنس والله والحب والناس، كلام خطير يحرك خلايا الحجر.كيف أتحمله؟ وإلى متى؟ هل أنا باردة حقا؟ هل هو يرغبنى هكذا، إن كان يعرف أصلا، ما هذا، هذا يكفينى، هذا الرضا يخفف آلام الاقتراب الجنسى ذاتها.

أغلب العبيد كانوا يمنحون أرواحهم برضاهم وهم يعتقدون أنهم فى غاية السعادة فى ظل الإقطاع

أحيانا تساورنى رغبة مجرمة للتحدث معهم فى موضوع هذه الآلام وخاصة بعد أن أكد لى طبيب أمراض النسا سلامة أعضائى، لن أسمح بذلك ولو بعد ألف سنة،

– 4 –

بوادر خير تلوح فى الأفق.

بدأ غالى يفكر فى لعبة بديلة، ذهبنا إلى بعض الأصدقاء الذين اعتادوا أن يتجمعوا حول الشيخ الضرير بعوده المتحفز ولسانه السوط، فرحت بذلك وتمنيت أن نستغنى بهذه الجلسات عن ذلك الرعب الأسبوعى حتى لو كان الحشيش هو الوسيلة إلى ذلك، حشيش الجوزة أهون من حشيش ذلك الطبيب النصاب، دعانى غالى لمشاركتهم ولكنى لم أستطع، ضحك كثيرا وتكلم كثيرا ولكنه بكى ونحن راجعان فى التاكسى.

لم أدر ماذا أفعل.

****

انتهى غالى، بعد أن أفرغ شحنته، وتمدد على ظهره هذه الليلة دون أن ينام، أصدرت أوامرى لخلايای بالسكون بعد أن أدت مهمتها الثقيلة، وابتدأت الآلام تتضاءل تدريجيا، نظرت إليه فى تساؤل: لماذا لم ينم هذه المرة كما اعتاد أن يفعل كالطفل الرضيع.

= مالك يا غالى الليلة؟

– لا شئ، أنا أفكر فيك؟

= أنا بخير ما دمت سعيدا، ألم أرضِك الليلة؟

– وأنا، هل أرضيتك؟

= أنا راضية بك وبجوارك ليل نهار.

– طرأت علىّ فكرة مرعبة فور انتهائى الليلة.

= الأفكار التى تطرأ عليك هذه الأيام أغلبها مرعب، وأنت مصر على الاستمرار.

– هذه جريمة استغلال.

= تتحدث عن ماذا؟

نجح الطبيب المجنون أن يقلب مشكلة استغلال الطبقة العاملة إلى البحث عن الجنة الجنسية الموعودة.

أنا لا أتهمك، أنا اتهم نفسى بالعمى والصمم، لن أقبل أن أستغلك بعد الآن، العادة السرية أشرف من هذه العلاقة.

– عن ما حدث الليلة.

= ماذا حدث..؟ الليلة مثل كل ليلة.

– ألسنا نحارب استغلال الإنسان للإنسان؟

= هذه بديهية.

– وهذا الذى فعلته بك الليلة، أليس أسوأ استغلال؟

= غالى.... ماذا جرى لك؟ أنت أغلى من عينى وروحى، أنت زوجى وحبى، أين الاستغلال؟

– تفتحت آفاقى على معان أخرى للاستغلال.

= ماذا عندك أيضا من مفاجآت؟ بدأت أخاف كما لم أخف أبدا؟ من يستغل من؟

– أنا أستغلك يا ملكة.

= برضاى، هذا غاية سعادتى.

– أغلب العبيد كانوا يمنحون أرواحهم برضاهم وهم يعتقدون أنهم فى غاية السعادة فى ظل الإقطاع.

=...أنا فى كامل وعيى، وبكامل حريتى، كيف تشبهنى بالعبيد؟

– تكتمين آلامك ولا تتمتعين بحقك، وتطلبين عبوديتى ثمنا لذلك.

= درس جديد حفظته من حضرة الناظر فى روضة الدعارة الصحية الحديثة؟

– لا تنسبى إليه كل شئ.

= نحن نعيش فى وفاق نحسد عليه.

– أحسست أنى مجرم فى حقك.

= نعم؟ نعم؟ شفقة أم احتقار أم ماذا هذا؟

– أفكر فى حقوقك، أبسط حقوقك كامرأة.

= وهل اشتكيت لك يا أخى؟ عجيبة.!!.

– هذه الجريمة يجب أن تتوقف.

يبتعد عنى ويسمى ذلك حبا واحتراما، هذا آخر تفسير للحب، أحدث التفسيرات تقول إن أحسن طريقة للتعبير عن الحب هو الصبر فى المضاجع، ثم الضرب بإذن الله (;) هكذا ننسى جوع الجماهير الكادحة ونتفرغ لتصنيف أنواع الحب السبعة، أو الأربعة وأربعين، طيب

=.... أى جريمة يا مجنون؟ هل اشتكيت لك ؟ أنا لا أجد مبررا لكل هذا الذى تحكى عنه.

–.... السعادة شئ آخر.

=.... لابد أن تكون السعادة ممهورة بإمضاء شيخ الطريقة الجديدة حسب المواصفات التى يلقنها لكم، أليس كذلك؟ عد إلى رشدك يا غالى قبل أن تفقد شخصيتك تماما.

– قولى لى بصراحة: هل تصلين إلى، إلى "النهاية"؟

= ماذا جرى لك يا غالى؟ نهاية ماذا وبداية ماذا؟ هذا وهم وإشاعات، هل تريدنى بقرة رقطاء مثل الست فردوس، أم لبؤة جوعى مثل الست نجوى؟ أنا امرأة حرة ومثقفة، وهم لا يعرفون القيم الإنسانية فى الاقتراب الجنسى.

– قيم؟ وإنسانية ؟ يبدو أننى لم أعد أفهم، عموما أنا آسف على كل ما كان، منذ..البداية.

= أية بداية.

– منذ زواجنا.

= منذ ماذا؟ ماذا تقول؟ ياسيدى أنا راضية وسعيدة بكل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، مادام منك، ومادام يرضيك، مالك بى؟

– لم يعد يرضينى، لا أولاد..ولا جنس، من أين تأتى السعادة؟

= غريبة أمورك هذه الأيام، نحن نعيش هكذا من سنوات ماذا جرى؟ ماذا استجد؟

– رؤيتى تتضح يوما بعد يوم.

= نجح الطبيب المجنون أن يقلب مشكلة استغلال الطبقة العاملة إلى البحث عن الجنة الجنسية الموعودة.

– الصدق يؤكد الصدق، البداية منا نحن، ثم تمتد إلى كل شئ.

=... البداية من على السرير، أليس كذلك، أهذه آخرتها؟ ما ذنبى أنا؟

نحن ننتمى طول عمرنا إلى هؤلاء الناس وليس إلى أصحابك المعوقين فى عيادة سرية، هذا هو الامتحان الحقيقى

هل تضمنين أنهم إذا دخلوا الامتحان الأكبر سوف يتحملون مسئولية استيعاب هذه المشاعر الجماهيرية الغالية لصالح الناس؟ أصبح رعبى من ورثة الثورات أكبر من فرحتى بهتافات الأبرياء

– أنا لا أتهمك، أنا اتهم نفسى بالعمى والصمم، لن أقبل أن أستغلك بعد الان، العادة السرية أشرف من هذه العلاقة.

= هذه ليلة سوداء لن تمر بخير.

.....

نجح شيخهم الكلب أن يقلب حياتى رأسا على عقب، دخلها من أسفل المسارب، سوف أنتقم لا محالة، لا أحد يحس بى، لا أحد يفهمنى، حياتى مهددة، وغالى يبتعد عنى إكراما لإنسانيتى على الطريقة "النور الدينية الجماعية!!" لن أيأس، لن أستسلم للغضب، سوف أقاتل حتى النهاية، سوف أسترجعه بكل وسيلة، يبتعد عنى ويسمى ذلك حبا واحتراما، هذا آخر تفسير للحب، أحدث التفسيرات تقول إن أحسن طريقة للتعبير عن الحب هو الهجر فى المضاجع، ثم الضرب بإذن الله (;) هكذا ننسى جوع الجماهير الكادحة ونتفرغ لتصنيف أنواع الحب السبعة، أو الأربعة وأربعين، طيب.

– 5 –

بدأت المظاهرات من باب اللوق وانتشرت إلى وسط البلد بلا ترتيب سابق، جاءت فى وقتها يا غالى يا جوهر، عليك أن تواجه ذاتك يا كمال يا نعمان، أما أنت يا عبد الحكيم يا نور الدين فلسوف تتضائل أمامنا جميعا حتى يسعك جحر يليق بجبنك وخيانتك، وحين يقرصك الجوع سوف ألقى إليك بكلمة صدق عليها "سم" الفئران الحديث جزاء وفاقا لما تفعله بالناس، ها هو الشعب قد استيقظ وهو يطالب بحقوقه، الحوانيت تتحطم، والمتاجر سوف تنهب ليسترد العرايا والجوعى حقوقهم، الأتوبيسات تحترق، الثورة أعلنت فى الوقت المناسب، وقت أن طعنت فى أنوثتى حتى كدت أنهار، هذه هى الحياة والحرية والمسئولية الحقيقية يا غالى يا ابن جوهر، نحن ننتمى طول عمرنا إلى هؤلاء الناس وليس إلى أصحابك المعوقين فى عيادة سرية، هذا هو الامتحان الحقيقى، من شاء أن يرى صدقه فلينزل إلى الشارع الآن يا كلاب، حين تعرف كذب ادعاءاتهم يا غالى فسترجع الى أحضانى آمنا نواصل الكفاح مثل زمان.

هل آن الأوان أن نمد بصرنا حتى نعرف من الذى سيمسك الدفة بعد أى تغيير، مجرد الفرحة بالغليان لم تعد تكفى، أنا أشك فى نفسى، بشع ما هو بالداخل، أتصور أن مثله عندهم ولا أعرف السبيل إلى ترويضه لصالح هذا الحماس

= قامت الثورة، وعلى كل إنسان أن يعرف مكانه ودوره، ويتحمل مسئوليته.

– أية ثورة؟ هل أخبرك أحد شيئا.

= المسألة لا تحتاج إلى إخبار، الشارع يغلى يا غالى، فأين دورك؟

– ياليتنى أعرف.

= دورنا فى الشارع يا غالى، هل نسيت؟ ننزل فورا.

– ننزل إلى أين..؟ هل فى ذلك ما يفيد؟

= أى شئ أحسن مما نحن فيه من ضياع منذ شهور؟

– كنا نبحث عن حل.

= ثم جاءنا الحل بأن نواجه مسؤليتنا بحق، ما قولك الآن؟

(برودى الجنسى يابن جوهر أشرف من برودك السياسى يا حبيبى الغالى).

– لا أنكر أنى أخجل من موقفى ومن جلوسى هنا الآن، لكن...

= هل اكتفيت بالتدريبات الداخلية فى "مصنع" العواطف المستوردة ؟؟

– أحتقر نفسى ولا أعرف كيف أشارك الناس حقيقة مشاعرهم.

= الأحداث أقوى من كل تساؤل.

– هل نترك التلقائية تتحكم فى مجريات الأمور؟

= أفضل من الحسابات الجبانة.

– وهل التحطيم يكفى؟

= إذا كنت لا تؤمن بالتحطيم فلماذا حاولت تحطيمى؟

– هذا ليس وقت تصفية حسابات شخصية، هل يمكن عمل شئ الآن فعلا؟

= هذا وقت الحساب الحقيقى، أين أنت وأصحابك المجانين من كل هذا، وعلى رأسكم شيخ المنسر هذا الطبيب الأفاق؟

– مواجهة النفس هى بداية الطريق، هذا ما تصورت أننى تعلمته.

= ويموت الناس جوعى حتى تتم مواجهة أنفسنا بالسلامة، أليس كذلك؟

– الحماس وحده لا يكفى، لابد من تخطيط وضمان للاستمرار.

نؤجل الثورات حتى يتم ترويض الداخل بالسلامة، هذه هى التعليمات الجديدة، هؤلاء الشباب هم أمل الأمة، هم شرف الوطن، ماذا يبقى لو رفضنا ما يفعلون؟

أنا لا أرفض ولا أقبل، من أنا؟ أنا أتصور أن أيا منهم لا يقدر على التعرى لمعرفة حقيقة وجوده، فلا ضمان حين تتغير دوافعهم وظروفهم وآمالهم ومواقعهم من السلطة والناس، لا ينبغى أن ننسى دروس التاريخ، لا بد أن نعد من يرث الثورة مثلما نعد من يشعلها

= فى عيادة سرية تبيع الوهم للمجانين جلوسا؟ ، أليس كذلك يا غالى يا حبيبي!؟

– أى صدق لابد ينتج ثائرا عنيدا يمكن أن يتحمل نتائج مثل هذا الغليان فى الشارع.

= الصدق الذى تمارسونه هو تبرير التأجيل إلى ما لا نهاية.

– محتمل، محتمل جدا، ولكن ما حيلتى أنا وهذه هى رؤيتى الجديدة.

= لم تصدقنى وأنا أقول لك إنها رؤية مغشوشة، رؤية تبرر التأمل بديلا عن الثورة، لو طبقنا إشاعة حتم هذه الرؤية على هؤلاء الشباب إذن للزموا بيوتهم يتأملون ذواتهم بالسلامة.

شاركنا قبل ذلك واستلمها من هم ألعن ممن أزلناهم، هؤلاء يستعملوننا، وأولئك يزيحوننا، يبدو أن المسألة تحتاج لإعداد جاد وطويل

– هم يؤدون دروهم بحماس من وجهة نظرهم.

= يا ليتنا أحذية فى أرجلهم.

–... هل تضمنين أنهم إذا دخلوا الامتحان الأكبر سوف يتحملون مسئولية استيعاب هذه المشاعر الجماهيرية الغالية لصالح الناس؟ أصبح رعبى من ورثة الثورات أكبر من فرحتى بهتافات الأبرياء.

=... وصى حضرتك على وعى ومسار المكافحين الشرفاء !!

– لست وصيا ولكنى خائف، خائف من الخدعة الكبرى، للكراسى سحر آخر.

لو لم أصل إلى "معنى" للآن وما يترتب عليه، فالنار التى تنتظرنى أشد سعيراً

= وحتى نفك السحر، علينا أن نرضى بالواقع أليس كذلك؟ ماذا جرى لك يا غالى؟ أليس بديهيا أن حالنا لم يعد يحتمل أى استمرار، لا بد من التغيير حالا، وجذريا.

– صحيح، لكن: هل آن الأوان أن نمد بصرنا حتى نعرف من الذى سيمسك الدفة بعد أى تغيير، مجرد الفرحة بالغليان لم تعد تكفى، أنا أشك فى نفسى، بشع ما هو بالداخل، أتصور أن مثله عندهم ولا أعرف السبيل إلى ترويضه لصالح هذا الحماس.

= نؤجل الثورات حتى يتم ترويض الداخل بالسلامة، هذه هى التعليمات الجديدة، هؤلاء الشباب هم أمل الأمة، هم شرف الوطن، ماذا يبقى لو رفضنا ما يفعلون؟

– أنا لا أرفض ولا أقبل، من أنا؟ أنا أتصور أن أيا منهم لا يقدر على التعرى لمعرفة حقيقة وجوده، فلا ضمان حين تتغير دوافعهم وظروفهم وآمالهم وموقعهم من السلطة والناس، لا ينبغى أن ننسى دروس التاريخ، لا بد أن نعد من يرث الثورة مثلما نعد من يشعلها.

ماذا يفيد لو كسبت العالم وخسرت نفسك؟

= أصبحتَ فيلسوفا؟ عينك شيخ الطريقة قاضيا على منصة يقسم الناس إلى شغالة وورثة بعد أن يحكم على المناضلين بالتسطح العاطفى.ألا تخجل من نفسك؟

– أخجل، أخجل جدا، أريد أن أتوارى، أحاول أن أنسى كم تحمسنا وقتل زملاؤنا، ثم ورثها الأعلى صوتا، لا الأعمق إحساسا بالناس وبآلامهم وبحقوقهم، أخشى أن تتكرر المأساة كل مرة، لا يا ملكة سوف أرفض تكرار المأساة.

= وماذا يفيدك أو يفيدنا اعترافك بخجلك من نفسك هذا الذى تدعيه؟

نمشى على حافة النار مغمضى العينين ونتحدث عن الرؤية الصادقة

– أواجهه بكل الألام قدر استطاعتى.

= ثم تعلقه على الحائط مصلوبا.

– لا أستطيع أن أخدع نفسى وأنا بكامل وعيى.

= الناس تموت فى الشوارع.

– قد يكون هذا هو الحل.

= أن يموت الناس؟

– لا.... أنا الذى..

= غالى، ماذا تقول؟

– العجز يحكم قبضته على، والخجل أكبر من احتمالى.

= المشاركة..هى الحل الحقيقى.

– شاركنا قبل ذلك واستلمها من هم ألعن ممن أزلناهم، هؤلاء يستعملوننا، وأولئك يزيحوننا، يبدو أن المسألة تحتاج لإعداد جاد وطويل.

= أفسدك العلاج.

– أنا أحمل مسئوليتى وأمضى.

= والشعب يا غالى.

– من الشعب؟

= الطبقة العاملة.

– وأنا وأنت؟

= هذا ليس وقت للقافية.

– أعنى ما أقول، هل نحن من الشعب أو لا؟

= نحن من صميم الشعب الحر.

– ولكننا لسنا أحرارا.

= سجننا هو خوفك، وخوف أمثالك،

– آن الأوان أن نحترم الخوف حتى نزداد شجاعة تمنع أن يسرقونا ثانية.

= كنا نعيش فى وضوح وصدق.

– هناك جانب آخر لما كنا نسميه الوضوح أو الصدق.

= يا خسارة ! حتى النار المشتعلة فى الشوارع لم توقظك.

– لو لم أصل إلى "معني" للآن وما يترتب عليه، فالنار التى تنتظرنى أشد سعيراً.

= تراتيل الخرافة الحديثة؟

– ماذا يفيد لو كسبت العالم وخسرت نفسك؟

= ترتد إلى الغيبيات تبرر بها سلبياتك.

–سمها ما شئت.

= الأفيون يسرى فى عروقك بسرعة البرق.

أين حماسك وإصرارك؟ إلى أين أنت ذاهب فى مجاهل الغيبيات، ونحن لم نخرج منها إلا بعد جهاد مرير؟ هل نسلم عقولنا ثانية للقوى الخفية حتى ولو سميت نفسها بأسماء علمية؟ ثم تتهمنى أنا بالجمود؟

تعصبك لدينك المادى ليس أقل من تعصبه لدينه السماوى

– لن أخدع نفسى ثانية.

****

ضاعت الفرصة وهدأ الشارع بفضل الأمن المركزى والطب الحديث، توارت الفرصة يا ملكة ولم يعد غالى، لن أهمد.

****

= إلى متى يا غالى، ألا يكفينا ما جرى؟

– لا مفرمن مواصلة المحاولة، ولو هلكت، من يفتح عينيه مرة لا يستطيع أن يغلقهما بخاطره ثانية.

= نمشى على حافة النار مغمضى العينين ونتحدث عن الرؤية الصادقة.

– لا أعرف سبيلا سريا إلا العمى الاختيارى ولو تحت اسم حركى آخر.

= أصبح للتفكير الخرافى شكل علمى طبى حديث، يعفى من المسئولية على صك جديد يسمى روشتة "وهو يستدرجنا إلى ما وراء الطبيعة هربا من مسئوليتنا.

– بل إلى ماوراء العقيدة بحثا عن حقيقتنا.

= لا حقيقة إلا فى المادة.

– المادة البشرية شديدة التعقيد، ولابد أن نبحث قوانينها بأسلوب آخر.

= قوانينها هى أيديولوجيتنا الرائعة الصالحة لأى عاقل يحترم عقله.

– هل تعرفين تعريفا للعقل أو للاحترام؟

= يبدو أنهم يصنعون الأفيون هذه الأيام فى أقسام الطب النفسى.

– هذا لا يعفينا من مسئولية البحث.

= ويهلك الكادحون حتى ننتهى نحن من البحث أولا؟

– من يسمعك يخيل إليه أن يدك على الزناد فى ساحة القتال ليل نهار.

=..... تسخر منى لتبرر هربك.

****

المناقشات لا تنقطع، عناده يزيد، أين أنت يا غالى، أين حماسك وإصرارك؟

مطعونة فى أنوثتى، مهاجمة فى عقيدتى، محجورة فى سريرى، بدأ الشك يتطرق إلى طريقتى فى الحياة، بدأت تساورنى الشكوك حول غالى وحول علاقاته

إلى أين أنت ذاهب فى مجاهل الغيبيات، ونحن لم نخرج منها إلا بعد جهاد مرير؟ هل نسلم عقولنا ثانية للقوى الخفية حتى ولو سمت نفسها بأسماء علمية؟ ثم تتهمنى أنا بالجمود؟

– أحيانا أفكر فى وجه الشبه بينك وبين عبد السيمع الأشرم يا ملكة.

= أنا، يا غالى ؟!! عبد السميع يا غالى!!!.

– تعصبك لدينك المادى ليس أقل من تعصبه لدينه السماوى.

= دينى المادى؟ ودينه السماوى؟ وأنت يا ملك الرؤية والصدق، ما دينك الجديد، ماذا تريد منى الآن بعد كل هذا؟ ألا يكفى أن أذهب إلى شيخك المجنون أتحمل شطحه وتهويماتكم البلهاء، ثم تشبهنى بعبد السميع المعتوه يا غالي!!!.

– عبد السميع لا يدعى الحرية مثلك، وهو ينتظر الفرج فيما بعد الموت.

= تطلب النجاة لتبرير ما انزلقت إليه بتشويهى وتشويه معتقداتى التى ماعرفتها إلا منك.

– مازلت مؤمنا بمعتقداتنا ولكننى أبحث عن الطريق الذى يحافظ عليها.

= وسوف تجده بالسلامة فى عيادة طبيب؟

– لا أعرف.

– 6 –

مطعونة فى أنوثتى، مهاجمة فى عقيدتى، مهجورة فى سريرى، بدأ الشك يتطرق إلى طريقتى فى الحياة، بدأت تساورنى الشكوك حول غالى وحول علاقاته، أتتبع نظراته إلى نجوى برعب حقيقى، إصلاح مساعدة الطبيب تتعاطف معه بشكل ظاهر، تهتز كل خلجة فيها حين تتفاعل معه.

طبيبة مساعدة هى أم مريضة مثلنا؟ حين بكت تلك المرة حاولت أن أتهمها بالتصنع، لم أستطع، غالى تكلم كثيرا بعدها عن صدقها وإيمانها بما تفعل، لم أرد، يبدو أنى خدعت فى كل شئ، آمنت به وبمبادئه ودفعت ثمن العيش معه: أمومتى، وربما أنوثتى لو صح اتهامه لى، ها هو ذا يكاد يترك لى مبادئه

يبدو أنى خدعت فى كل شئ، آمنت به وبمبادئه ودفعت ثمن العيش معه: أمومتى، وربما أنوثتى لو صح اتهامه لى، ها هو ذا يكاد يترك لى مبادئه ويتراجع دون إنذار، كأنه يطالبنى بالتراجع معه، كأنى مذياع تتغير المواد التى يذيعها بحركة خفيفة من مؤشر جانبى

ويتراجع دون إنذار، كأنه يطالبنى بالتراجع معه، كأنى مذياع تتغير المواد التى يذيعها بحركة خفيفة من مؤشر جانبى، هذا جزائى، هذا ثمن التنازل عن كيانى لأى شخص كان، لن ألوم إلا نفسى، كل الحلول التى تطرأ على بالى تفشل قبل أن تصل إلى وعيى.

لو تراجعت عن مبادئى من أجل خاطره سوف أحتقرنى، أتراجع إلى أين؟ لو أصررت على موقفى فلن يكف عن الهجوم والتشكيك فى، كيف أتنازل عن شئ حفظ كيانى وصورتى أمام نفسى وأمام الناس طوال هذه السنين؟ صحيح أنا التى تبعته، من أجله، لكننى اقتنعت بعد ذلك بغض النظر عنه.

سألت نفسى مرة فى لحظات يأس عابرة هل أنا – حقيقة – أعرف ماذا أقول؟ أجبت بالإيجاب "طبعا"، ولكنهم علمونى خيبهم الله أن أشك فى نفسى كلما قلت "طبعا".

هل أطرق بابا أحكمت إغلاقه من سنين؟ باب أمومتى التى أنكرتها من أجل خاطره؟ هل يكون ابتعادنا عن ما هو عادى سببا فى ارتمائنا وسط هؤلاء المجانين ثم اهتزاز عقائدنا؟ هل مازلتُ امرأة تصلح أن تتحرك حياة جديدة فى أحشائها؟

= مازلت أحبك يا غالى.

– وأنا كذلك،

= هل راجعت نفسك وأعدت تفسير مبررات هجرك لى؟

– لم أهجرك، أنا كففت عن خداع نفسى.... وظلمك،

= مازلت تسمى علاقتنا استغلالا.

– هذا ما يغلب على ظنى، حتى أتأكد من حقيقة سعادتك معى،

= أنا راضية، وسعيدة.

– لا بد أن تَرْضَى كل خلاياك.

= وكيف أعرف ذلك دون أن نجرب.

هذا جزائى، هذا ثمن التنازل عن كيانى لأى شخص كان، لن ألوم إلا نفسى، كل الحلول التى تطرأ على بالى تفشل قبل أن تصل إلى وعيى

صحيح أنا التى تبعته، من أجله، لكننى اقتنعت بعد ذلك بغض النظر عنه. سألت نفسى مرة فى لحظات يأس عابرة هل أنا – حقيقة – أعرف ماذا أقول؟ أجبت بالإيجاب "طبعا"، ولكنهم علمونى خيبهم الله أن أشك فى نفسى كلما قلت "طبعا".

– معك حق.

حاولت أن أقوم بتمثيل كل ما سمعت عن القمم الجنسية والخلايا ذات الأجنحة فى جنة المتعة، ولكن يبدو أنى لم أنجح فقد كانت نظراته مليئة بالألم، وقد حاول أن يمنع نفسه من إنهاء مهمته إلا أنه لم يتمكن، وطال الصمت بيننا حتى قطعه بقوله:

– فشلنا أفظع.

= هل يعنى ذلك انسحابك من جديد؟

– ليس تماما.

= أعدك أنى سأحاول.

– طبعا، أنا آسف.

=.... لم تسألنى عن حبوب منع الحمل،

– هذا شأنك أنت.

= قررت أن يكون لى أطفال.

– هكذا فجأة؟

= نعم.

– أرجو ألا تكون خدعة جديدة.

= لا خداع فى الأمومة.

– ليس لى سابق خبرة....

****

ما إن تأخرت العادة الشهرية حتى أحسست بالأمان يغمرنى بطريقة لم أشعر بها من قبل، طريقة لا تقارن بالأمان الذى كنت أتصوره من خلال حماسى لعقيدتى المادية، هذا شئ آخر، نجحت خطتى – لكن فشلى الآخر يتزايد والآلام الجنسية أصبحت أكثر حدة حتى أعلن غالى انسحابه ثانية، استقبلت انسحابه هذه المرة براحة عميقة، أنوثتى جرحت بنفس الحدة إلا أن أحشائى تحوى ما يثبت أمومتى دون ادعاء

هل أطرق بابا أحكمت إغلاقه من سنين؟ باب أمومتى التى أنكرتها من أجل خاطره؟ هل يكون ابتعادنا عن ما هو عادى سببا فى ارتمائنا وسط هؤلاء المجانين ثم اهتزاز عقائدنا؟

ما إن تأخرت العادة الشهرية حتى أحسست بالأمان يغمرنى بطريقة لم أشعر بها من قبل، طريقة لا تقارن بالأمان الذى كنت أتصوره من خلال حماسى لعقيدتى المادية، هذا شئ آخر

اللذة المجنونة، الأنوثة هى الأمومة أولا وقبل كل شئ، ديننا الذى هجرته يقول هذا، أو مثل هذا.

أحيانا أفكر فى العودة إلى دينى ودين أهلى بدلا من كل هذا الضياع والوحدة، من يدرى؟ ربما يغنينى تدين مثل تدين أمى عن أنوثتى المطعونة؟ هل ينتهى بى المطاف إلى مثل ذلك؟ لم أعد أقدر أن أخفى جوعى، أتصور أحيانا أن أحدهم، وأحيانا كلهم، يعرفون كل شئ، هل قال لهم غالى؟ طبعا لا، ألتقط نظرات مختار النهمة التى لا تميز.

= من أنت يا مختار؟

– طائر بلا عش، قادر على الطيران إلى مالا نهاية،

= غالى شككنى فى كل شئ، وهأنذا أشك فى حريتك.

– أتابع تطور علاقتكما بشغف.

= شغف؟

– أكبر جريمة أن تنسى المرأة جسدها.

= جسدها...؟

– الجسد أصل الحياة.

= أحيانا أحس أنك منحل انتهازى شبقى لا أكثر.

–تخافين من رغبتك فى الحياة، فى الحب الحر، الجسد هو الطريق إلى الحقيقة

= غالى يقول إنى باردة.

لم يعرف الطريق إلى مفاتيحك.

= مختار....!!؟

إذا أحببتِ جسدك كما أحبه، فلسوف تتعرفين على العالم من خلاله

= غالى له رأى آخر

لا تلومى زوجك على كرهه لجسدك، كيف يحبه وأنت لا تحبينه؟!

= أنا خائفة.

أنوثتى جرحت بنفس الحدة إلا أن أحشائى تحوى ما يثبت أمومتى دون ادعاء اللذة المجنونة، الأنوثة هى الأمومة أولا وقبل كل شئ، ديننا الذى هجرته يقول هذا، أو مثل هذا

أحيانا أفكر فى العودة إلى دينى ودين أهلى بدلا من كل هذا الضياع والوحدة، من يدرى؟ ربما يغنينى تدين مثل تدين أمى عن أنوثتى المطعونة؟ هل ينتهى بى المطاف إلى مثل ذلك؟

لا تخافى الحرية.

= أية حرية؟ ماذا تقول؟ ماذا أفعل ؟

أنا فى الخدمة، ولكن بمحض حريتك.

= قد أحتاجك لو جننت.

****

لملمت ما تبعثر منى فى تلك الأيام العصيبة، اكتشفت أننى أخطأت الطريق حين تنازلت عن أسلحتى الطبيعية دون مبرر حقيقى، أو بديل كاف.

لملمت ما تبعثر منى فى تلك الأيام العصيبة، اكتشفت أننى أخطأت الطريق حين تنازلت عن أسلحتى الطبيعية دون مبرر حقيقى، أو بديل كاف

فليكن الولد ولدى، ثم تحل مسائل الكون على مهل.... أو انشالله ما حُلّت.

غالى ما زال يبحث عن نفسه، هكذا يقول، يضيف أنه حين يجدها سينطلق لتضميد جراح البشر وإزالة الظلم، بتحقيق عقيدته هى هى، أصبحت لا أهتم بتحذيره من الطريق المغلق، أو بحساباته المرتعدة، أحيانا يتردد على الكنيسة دون أن يخبرنى وأنا سعيدة بذلك، مازلت فى انتظار إنهاكه.

توقفنا – دون ضغط منى– عن الذهاب نهائيا إلى حيث الكابوس الأعظم، قال إنه عرف ما يكفيه، غالى يزداد وداعة وتسليما يوما بعد يوم، علاقتى به هادئة، يبدو أنه نسى حكاية البرود والاستغلال بقدرة قادر، أنا التى لم أنسها، كيف أنساها.

أعفانى الحمل من الواجب الأسبوعى، لكن ماذا بعد الولادة.

سوف يحلها القادم الجديد كما سوف يحل مشاكل الكون.

****

تغير غالى تماما منذ الولادة.

حين أنادى على إبنى فيناغى وكأنه يفهمنى أقول لنفسى "إن الضمان الأوحد لاستمرار الإنسان وتطوره هو فى "أن تنجب النساء أطفالا".

حين أنادى على إبنى فيناغى وكأنه يفهمنى أقول لنفسى "إن الضمان الأوحد لاستمرار الإنسان وتطوره هو فى "أن تنجب النساء أطفالا"

الأســـــاس فـــي الطـب النفســي: الإفتراضــات الاساسيـــة

الفصـــل السابــــــــع

جميـــع الحقـــوق محفوظـــة للمؤلـــف 2023

إصـــــدارات مؤسســـة العلـــوم النفسيـــة العربيـــة

الإنسان والتطور

سلسلة الاصدارات المكتبية العلمية

29

2023

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2023

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية